رحلة في الملكوت

تأليف
الأستاذ الدكتور
عماد الشربيني
عميد كلية الحقوق
و
رئيس جامعة طنطا
« سابقا »

رحلة في الملكوت

تأليف
الأستاذ الدكتور
عماد الشربيني
عميد كلية الحقوق
نائب
رئيس جامعة طنطا
(سابقا)

اللهم اجمعنا على اليقين . .

يوم الدين . . واهد بنا قوما ضالين . .

وسلام على المرسلين . .

والحمد لله رب العالمين

بالدعاء عاليه :

نستهل صفحات هذا الكتاب .. ونختم به هذه الصفحات .

أملا فى أن يتقبله منا القارئ - فحسب - عند بداية القراءة .

وأن يشاركنا الدعاء اياه - بعزم - عندما ينتهى منها .

والله من قبل ومن بعد هو المستعان

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

تقديـــــم

طرق بيتى زائر غريب دون موعد ، رحبت بلقائه بعد أن علمت أنه كان أحد طلبتى المقربين وقت أن كنت استهل حياتى فى التدريس، سافر إلى الخارج فى بعثة للحصول على الدكتوراه، وانقطعت أخباره عنى فى غمرة مشاكل الحياة ..

وما هى إلا دقائق معدودة إلا وكان شريط الذكريات قد عاد إلى الوراء عشرات السنين ليقف بنا عند قاعة الدرس وما كنت القيه عليهم وقتها نصا وكيفا، وسعادته والزملاء بشخصى المتواضع وعلاقة الحب المقدسة التى تربط دائما بين الأستاذ وأبنائه الطلاب .

أجابنى عن أخباره بإيجاز، حين قال " إن هى إلا سنوات معدودات بعد سفرى للبعثة ، حتى كنت من أقرب المقربين لكبير من رجال المال لديه مؤسسة مالية كبيرة، بعد أن تزوجت ابنته الوحيدة عن حب حقيقى دام طيلة فترة الدراسة حيث كان الزفاف عقب حصولى على الدكتوراه.

أنجبت طفلين تميزا بالذكاء .. حتى أن الأكبر منهما ويبلغ العاشرة يكثر من الإلحاح على لزيارة مصر والتعرف على الأقارب ويطالبنى فى الكثير ألا أكلمه بغير العربية، وكأنما بداخله جذور الأجداد فى مصر، والأهم أنه يعشق الحديث عن الدين، يشاركه فى ذلك الأخ الأصغر ..

أعيش فى أسرة متكاملة توافرت لها سبل الحياة الرغدة والميسرة، التقى من خلالها بالعديد من الأسر الأخرى ذات المستوى المالى المرموق من معارف والد زوجتى وأقاربه سرعان ما ينتهى الحديث بين الرجال فيها على عقد صفقة، وبين النساء على تحديد مكان الرحلة الأسبوعية المقبلة.

المهم أنه مجتمع مرتب الفكر دائم العمل مستمتع بوقته لا تشغله لاهية، كدت أذوب فيه وأنسى جذورى فى مصر من سعى لصلاة الفجر فى المسجد، لسماع قرآن الصباح، لإخراج ما تيسر من الصدقات، لقيام جزء من الليل، لحضور مجالس التفسير والتلاوة ... الخ.
لولا أن تملكنى رد فعل عكسى لهذه الحياة التى أعيشها بينهم، فالتزمت بالخط الدينى أكثر مما كنت عليه فى مصر وأضفت إليه الصدق فى القول والإخلاص فى العمل، وتجاوزت ذلك إلى ضرورة الصلاة فى مواعيدها بالضبط أيا كان ما يجمعنا من لقاء وأداء باقى الفروض كما يجب أن تكون دون تهاون فى إحداها، وأكثرت من الاعتكاف وتلاوة القرآن .

الغريب أنهم تقبلونى بينهم كظاهرة تستحق الدراسة، وأخذوا يشجعوننى على أداء فرائضى، حتى أن والد زوجتى نظر فى ساعته مرة أثناء تناولنا الغذاء، وقام ببسط سجادة الصلاة التى كانت قريبة منه، حيث كان قد حان وقت صلاة العصر .. ناهيك عما كانت تقوم به زوجتى فى شهر رمضان من إعداد وتحضير الطعام لى وقت الفطور وكانت تسعد وهى تشاركنى الطعام .

دفعنى موقفهم وسلوكهم الحضارى أن اسألهم المرة تلو المرة، لماذا وأنتم تحترمون عقيدتى ألا نلتقى عليها أو تقنعونى فأشاركهم غيرها؟

وكان الرد دائما على كل محاولاتى فى إقناعهم :

أنك تتكلم من خلال رجل مؤمن بعقيدة معينة وتدلل عليها بما هو متوافر لديك من أسانيد .. فتذكرنا دائما بوجود الخالق ودلائل قدرته.. والرسول ومظاهر عصمته .. والكتاب ومصادر إعجازه .. والآخرة وما فيها من ثواب وعقاب .. والدنيا وما فيها من صالح الأعمال ..
تبهرنا بسماعك لتسجيلات الشيخ الشعراوى والدكتور مصطفى محمود والشيخ الغزالى – التى تصلك تباعا – فى إنصات كامل وإعجاب بالغ، وتردد علينا من النصوص والتفسيرات ما يؤكد صدق عقيدتك.

وتأخذ علينا إغفالنا عنك وإعراضنا الإنصات لك، رغم أننا صارحناك منذ البداية بأننا لا نتشيع لعقيدة بعينها إيمانا بها وإنما بحسبان فقط أننا ولدنا فى كنفها، أما عقيدتنا الحقة فهى أننا تربينا فى مجتمع يؤمن بالعمل المبنى على العلم.

العلم الذى طورناه فبلغ بنا آفاق السماء :

فهذه هى الطائرات النفاثة والصواريخ والأقمار الصناعية والسفن الفضائية، وارتياد القمر وكشف أسرار الكواكب الأخرى، ناهيك عن التقدم التكنولوجى الرهيب فى مجال العلوم الأخرى من طب وهندسة وكيمياء وأحياء ... الخ.

وهذه الصناعات العملاقة المتقدمة فى مجال إنتاج السيارات والأسلحة بأنواعها المختلفة، من نووية ذرية ...الخ. والصناعات الدقيقة التى تقوم على استخدامات الكمبيوتر والإنسان الآلى فى مجال الحاسبات الآلية .... وغير ذلك كثير مما لا يتناهى تحت حصر .

ذلك العلم الذى قادنا إلى الرفاهية التى نعيشها والذى فتح لنا آفاق المستقبل هو ما نؤمن به بحق، ونركز عليه حين ننطلق بفكرنا عند إجراء أى حوار، خاصة وإذا كان متعلقا بالعقيدة.

فهل لك أن تكلمنا بمنطق العلم وأساليبه المجردة ؟

وتطرح جانبا ولو لحين .. الحديث بالعقيدة وما تحمله من انفعال بها ، أو بمعنى أصح هل تكلمنا بمنطقنا فى فهم الأمور وترتيب نتائجها .. خاصة أن منطقنا – على النحو السابق – يصل بنا إلى ما تنتهى به أمور عقيدتكم :

١ – فمعلوم أن عقيدتكم حاصلها :

أن تنتهج فى الحياة الخط المستقيم الذى يؤدى إلى الصدق والإخلاص فى العمل والقول، وعدم الاعتداء على حقوق الآخرين، بل والأهم الحفاظ على مشاعرهم وأحاسيسهم .. وكذا الالتزام بالأمانة فى التعامل والإحساس بالواجب .... الخ .

وهى أمور ننتهجها أساسا كأسلوب للحياة عندنا ... فإن كانت الأديان تثيب عليها فى الآخرة، كما هو اعتقادكم، فقد نلنا الثواب دون ما أن نشغل أنفسنا هنا بذلك اليوم الموعود الذى تعدون له وتقدرون له الحسابات، كل ذلك على حساب دنياكم التى يجب أن تكرسوا لها الجهد والعمل.

ذلك أن الحياة الدنيا هى اليقين الذى نعيشه بينما الآخرة هى الأمل الذى تحلمون به ... ومنطق العلم يقودنا إلى أن ننعم بواقعنا ولا نبيعه على حساب أمل قد يتحقق وقد لا يتحقق .. فما بالك ونحن من الأصل

نعمل على الدرب المطلوب فإن تحقق هذا الغد فهو لنا، وأن لم يتحقق فقد نعمنا بدنيانا التى هى واقعنا.

٢ - **ثم ألست معنا ... فى أن منطق العلم المجرد فى التركيز على هذه الحياة التى نحياها** وما يجب أن نصل بها إلى التقدم والحضارة.. وبالإنسان إلى حد الرفاهية والوفرة، **أجدى من أن تتصارعوا أصحاب العقائد حول الحياة الآخرة** وما فيها من ثواب وعقاب ... وهل هذه الدار الآخرة لمن انتهج الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو البوذية أو الهندوسية ... الخ .

هذا الصراع الذى قد يصل بالبعض إلى حد تكفير البعض الآخر وإحلال دمه. ويا ليت هذا الصراع يقتصر على الاختلاف فى الأديان، وإنما يصل لحد الخلاف بين المذاهب والشيع داخل الدين الواحد. وهو صراع تحكمه فى النهاية العصبية والتشيع دون أن يستند إلى أساس علمى واضح يمكن أن يقبله منطق مجرد .

فالمتصفح لكل هذه الأديان يجد أنها تنتهى إلى عبادة إله يدعو إلى الخير والعمل الصالح، ويقرن ذلك ببعض العبادات والمناسك. ويعتمد على بعض الغيبيات من نعيم فى الجنة وعذاب فى النار، التى قد تختلف فى مداها وكنهها بحسب الرسول الذى يدعو لها والأقوام التى تؤمن به، فيتشيع الناس إلى فرق وجماعات فى صورة أديان ومذاهب مختلفة تتصارع وتتناحر فيما بينها ... فى حين أن جوهر العقيدة واحد إذا حللناه بالمنطق العلمى المجرد، وهو الإيمان بإله له السيادة فى الحياة الدنيا وعليه ينعقد الأمل فى الحياة الأخرى : أيا كان صورة الإله وأيا كانت تعاليم منهجه ، وأيا كان شخص المنادى بها.

٣ - **ثم الست معنا ... أن إفراط الأديان والعقائد في الاعتماد على الغيبيات والمسميات التى لا تدخل تحت حس مادى** (كالروح والنفس ويوم القيامة ونعيم الجنة وعذاب النار، وما يقوده ذلك من تفصيلات جدلية : كالفرق بين الروح والنفس وهل الحساب والعقاب عند البعث في الحياة الآخرة يكون بالنفس أو الروح أو بالجسد أو بهم مجتمعين .... الخ) **تصرفنا عن الاهتمام بأمور دنيانا التى هى واقعنا** ، وغالبا ما ينتهى البحث فيها عن قصور فى تحديد ماهيتها أو تفسير ذاتيتها ... فنرجعها إلى عالم الغيب الذى لا ندركه بحسنا، طالما أن العلم قد عجز عن إدراكها.

٤ - **الست معنا ... أيضا** فى أن هناك الكثير من تداعيات الفكر المبنى على المنطق العلمى المجرد التى تجعل هوة الخلاف بيننا واسعة فى العديد من الموضوعات الأخرى، رغم كل محاولاتك الجادة المبنية على نصوص صريحة تحملها عقيدتكم، ورغم حرصك على فرضها علينا بمنطقك الإيمانى، أملا فى أن تجدنا خير الأهل والصحبة ولك فينا الولد والزوجة.

شكرت له الزيارة - بعد أن تألمت لحاله - ودعوت له بالتوفيق فى حياة الغربة، وتمنيت له النصر على هؤلاء القوم متسلحا بسلاح العلم الذى هو ديدنهم ....

ونهضت مصافحا، لولا أن استمهلنى فى إصرار، **طالبا منى العون والمساعدة على إقناع هؤلاء القوم بعد أن أعجزه الحديث معهم بمنطق الدين والعقيدة**، فما من قول محكم فى العقيدة إلا ويرجعوه إلى العلم : فإن استدل على وجود الخالق بوجود المخلوقات ... قالوا وما دلك

عليه غير العلم ، فإن قال لهم العلم وسيلة إدراك قالوا بل غاية فهم .... وهكذا.

معى يا أستاذى .. لأحاج هؤلاء القوم الذين قرءوا عن العلمانية والفكر المادى وتبحروا فى الجدلية .. وأحاطوا بمفهوم الكثير من الأديان.. لا رغبة فى الوصول إلى الحقيقة بقدر ما هى هواية عقلية تدريبية – عند الكثيرين منهم – شأنها فى ذلك شأن لعبة الاسكواش مثلا اللازمة للبنية الجسدية.. وإن كان بعضهم يتوق للحقيقة.

قلت له : وما حيلتى وعلمى عن الدين فقط بالقدر اللازم لمسيرتى فى الحياة .... ولم أزد عن سالك والأمر يحتاج هنا إلى واصل ...

استوقفنى : وما مرادى محاجاتهم بالدين فما أنت عليه بقادر، وما هم له بقابل.. وإنما أطلب **هداية الأستاذ** الذى أنار لنا سبيل المعرفة يوما فى قاعة الدرس فى سلاسة فكر وانهمار معرفة... كنا على بداية الدرب فسايرنا الخطوة تلو الخطوة حتى كانت المحصلة إدراكا كاملا وفهما واعيا بالمطلوب .. **هذه الهداية أو إن صح القول أسلوب الأستاذ هى ما ننشده فى هذه المعركة الدائرة بينى وبينى هؤلاء ..** وهى فيكم وإلا ما تلوت عليك أجزاء كاملة من محاضرات تلقيتها عنكم .... **فهل أنت لى ناصر؟**

قلت : معاذ الله إلا أن أحاول .. فإن كان لى ما أردت فأجرى على الله .. وإن كنت قد أخفقت، فيكفى معك أنى بدأت ومن سار على الدرب وصل.

ولكن دعنا نؤكد منذ البداية على أن المطلوب منى ليس بالأمر الهين:

فالبحث عن حقيقة العلم وكيفية خلق الوجود والروح والنفس والموت والحساب فى الآخرة .. الخ، إنما هى موضوعات يجرى بعضها فى عالم الوجود الذى نعيشه ويمتد الآخر إلى حيث مرحلة الموت والحساب فى الآخرة، أى يمتد إلى ما بعد مرحلة الوجود.

وبالتالى فإن المطلوب هو نظرة فاحصة فى الملكوت الذى تتسع دائرته ليشمل مرحلة الوجود الذى نعيشه، ويمتد إلى حيث مرحلة الموت والبعث فى الآخرة ...وهذه وتلك مراحل تفوق إدراكات العلم اليقينى حتى ولو كانت بصيرة الأستاذ نافذة ...

ومن ثم لا مجال للإدراك بها وتحقيق هذا المطلوب، إلا إذا خضنا معا تجربة القيام برحلة عبر أرجاء هذا الملكوت نتلمس فيها بإدراكاتنا العقلية المحدودة بعض العلامات الدالة عليها ... فهل عندك القدرة على أن تصحبنى ؟

قال : وكيف أصحبك ولم يسبقنا إلى هذه الرحلة أحد من قبل !! وكيف نخوض رحلة الموت ونحن مازلنا أحياء !! وكيف نتصعد إلى حيث الحساب فى الآخرة ومازالت أقدامنا على أرض الواقع !!

قلت : تلك هى الصعوبة ، ولكن يمكن تجاوزها إذا اعتبرنا هذه الرحلة لها خصوصيتها وتفردها سواء من حيث مرادها ووسيلتها وزادها ومراحلها وذلك على النحو التالى :-

١ - **فأما عن مرادها** فإنا سنقصره فقط على ما جئت من أجله **وهى محاجات قومك بمنطقهم العلمى المجرد عن أمور أنكروها بمنطق الدين**

ولم يهتدوا إليها بمنطق العلم ... فصارت - على أقل تقدير - معلقة تحتاج إلى من يرجح كفتها إما إلى الإنكار التام أو اليقين المطلق. فهى ليست رحلة وصفية ذلك أن الوصف يحتاج لمشاهدة فعلية، وإنما هى فقط مجرد رحلة تحليلية لموضوعات ظنية تحتاج إلى سندها القطعى من العلم.

٢ - **وأما عن وسيلتها** فهى بعيدة تماما عن تلك الوسائل من الانتقال التقليدية التى نستخدمها فى دنيا البشر من طائرة وقطار وخلافه ....، **وإنما تنفرد بوسيلة خاصة لها طلاقة الحركة وسرعة الأداء بحيث تجوب أرجاء الملكوت فى لحظات ... هذه الوسيلة هى الكفر والتصور....**

قاطعنى : وهل يسعفنى الفكر والتصور لأن أرقى عنان السماء وأذوب فيما وراء الأزمان !!

استطردت: ليس هناك حدود لطلاقة الفكر، فالفكر حيث توجهه... فإن كانت وجهتك أرجاء الملكوت تجده ... وإن كانت تحت قدميك فهو ماثل.

٣ - **وأما عن زادها** فهو أيضا عجيب عجب الرحلة ذاتها - ذلك أن ما يلزمنا طيلة هذه الرحلة التى تمتد إلى ما بعد حياتنا ليس من زاد الدنيا ... فهو ليس من المعلبات ولا المشروبات - وإنما هو :

أ - كتاب أحكمت آياته ... فكان ...

قاطعنى : ستقول القرآن .. وهنا تكون الرحلة قد دارت فى رحاب

كتاب مقدس ... وهو ما يرفضون التسليم به حتى ولو كان عن بينه ... فمازلت أردد أن ديدنهم العلم وحسب.

واستطردت : حسبى أن أصادر على المطلوب وقد وصفتنى بالمعلم والأستاذ، **وإنما استمسكت بهذا الكتاب فقط بحسبان أنه** -من الوجهة العلمية المحضة – **قد قنن أحكام السماء فوضع العلامات فى هذا الوجود الذى نعيشه وحدد المسارات لما نحن مقبلون عليه فى رحلتنا نحو الأبدية** وكان لابد أن يكون هذا الكتاب رائدى وأنا أجوب المسيرة الفريدة، وإلا تعثرنا فى ظلام العدم وضل فكرنا شأن الملايين من البشر...

قاطعنى للمرة الثانية : لك أن تقطع بأن القرآن كتاب تناول أحكام السماء .. وبمعنى آخر تعتبره أحكام التقنين الإلهى الخاتم .. فهذا شأنك... ولكن ...

واستطردت بدورى معنفا : ولكن ما نريده أن نستند على كتاب إن وصفناه بأنه تقنين لأحكام السماء ، **أن يكون ذلك من واقع علمى ومنطقى مجرد وبعيد عن التشيع والتعصب** ... وهو ما سوف أحيطك منه خُبرا .. ولكن أمهلنى رويدا فالرحلة ممتدة وسوف نقف عند هذا الموضوع طويلا فى تأمل وأناة ... وستجده فوق ما وصفت .. **وما عليك إلا أن تحمله معى بظنى حتى يأتيك اليقين العلمى ونحن نطوف به كعلامة من علامات الشهادة.**

ب – **العلم المجرد** : الذى يترامى مع أبعاد رحلتنا فلا يقف مكتوفا متخاذلا عند حدود واقعنا، وإنما ندفعه ونرقى به إلى ما بعد عالم الشهادة

... ليتنبأ لنا بمجريات عـالم الغيـب، **ولا غرو فوسـائل العلم متعددة ... فمنهـا التقريرى الـذى يقـوم علـى المشـاهدة والتجربـة ، ومنهـا الظنـى والاحتمالى الذى يقوم على الافتراض والتوقع.**

٤ - **وأما عن مراحلها** فهى بدورها تفوق كل تصور وتتخطى كل واقـع **حيث أنها تجوب موضوعات هى من عالم الشهادة** الذى يمثل واقعنا الذى نعيشـه ... **ثم هـى تمتد بنـا إلـى سرداب المـوت** حيـث نتلمـس وقتهـا بالبصيرة حدث الموت وعذاب القبر والوجود فـى البـرزخ ... **ثم تنفرج بنا فى حياة أخرى إليها معادنا** حيث نتعرف فيهـا علـى البعـث والحسـاب والجزاء من جنه ونار ... وهكذا

قال فى تردد : معذرة لو قلت لكم أن هذه الرحلة **تفزعنى بقـدر مـا تبهرنـى :** فـلا أتصـور أن أدخـل سرداب المـوت بـإرادتى والتقـى بواقـع الحسـاب برغبتـى ... حتـى ولـو كـانت المسيرة بمجـرد الفكـر والتصـور وحتى لو كنت بصحبة أستاذى الذى اطمئن لبصيرته ... ومع ذلـك فليس **أمامى من خيار. فالرحلة قادمة لا محالة** ... ووقتهـا سـأواجهها بمفـردى دون ما زاد أو غيره أو حتى فكر مسبق.

ولكنـى فقـط أريـد أن **أركـن لبصيرتكم** التـى سـوف تتعدى عالمنـا الـذى نعيشـه ... وذلـك مـن خـلال رؤيتهـا العلميـة المجـردة لأهـم الموضوعات التى لا نجد لها تفسيرا منطقيا نجمع عليه ... هنا فى محطة القيام بالنسبة لرحلتنا التـى ننطلـق منهـا إلـى العـالم الآخـر عـبر سـرداب الموت ..

قلت : هات ما عندك بلا خـوف أو حـذر ... فمـا زلنـا علـى أرض

الواقع الذى نعيشه، **وأعدك ألا نبحر فى رحلتنا** ونخوض سرداب الموت إلى حيث نستقر عند أعتاب الحياة الأخرى الأبدية ... إلا **إذا كنت معك قد أيقنت أن** رحلتنا آمنة مطمئنة **إلى بصيرة تقودها فى غياهب هذا المجهول ...**

قاطعنى : ولكن هذه المرة **عم صالح** (الذى كان يتولى فى شبابه إدارة منزلى وقت أن كنت بالجامعة .. وكان يتردد على فى غير أوقات عمله طيلة عمله كسائق بشركة النقل .. واستقر مقامه عندى بعد أن ترك الوظيفة لبلوغه سن المعاش) وهو يرحب بزائرى ويقدم له فنجان القهوة المضبوط ... **ويقول معكم فى هذه الرحلة حتى ولو كانت لأسوان.**

شرحت له أنها ليست كأى رحلة مما يعرف .. وإنما هى رحلة فى الملكوت نصعد فيها عبر أرجاء السماوات والأرض... فضحك كثيرا فى خجل واكتفى بقوله وهو ينصرف " ماتنسوش تجيبوا لى معاكم نجمتين وقمرين..."

قال زائرى : هل لى فى فترة راحة نتناول فيها القهوة ونتدبر فيها كيفية إخراج هذه الرحلة الفريدة ... واسمح لى بالجلوس فى الشرفة هاهنا بمفردى لأترك لك فرصة ترتيب الأحداث وتحديد معالم البحث تمهيدا لتحديد خط السير فى هذه الرحلة.

قلت لزائرى : (بعد أن شكرته على هذه الاستراحة) دعنا نحدد ركائز البحث فى هذه الرحلة ومراحلها على النحو التالى :-

أولا - دعائم البحث

الركيزة الأولى :

أن ما يدور من نقاش يعتمد فقط على بصيرة الأستاذ وقدر تجريده لوقائع الموضوع المطروح مع تحليلها قدر الإمكان لعناصرها الأساسية، وربطها فى النهاية بنتائجها حسبما تنتهى إليه، أى سواء اتفقت مع العقيدة أم ناقضتها طالما أن بحثها كان على مقتضى منطق العقل.

الركيزة الثانية :

أن ما نحن بصدده ليس إلا حلقات نقاشية حول بعض الموضوعات التى تضاربت فيها الآراء والمعتقدات، وبالتالى فإن ما ندلى به من رأى نعتمد فى تدعيمه فقط على النهج العلمى فى العرض - وهو ما استقيناه من مهنتنا فى التدريس - وليس على معتقداتنا الشخصية أو نزعاتنا العلمية . ومن ثم فهو لا يحتاج إلى التدليل عليه بآراء الآخرين أو تأكيده بنصوص علمية أو عقائدية، تاركين هذا لمن يتخذ من الموضوع بحثا علميا أو دينيا يستند فى إعداده إلى التأصيل الدينى والتحليل العلمى المطلوب للهدف منه.

الركيزة الثالثة :

أن ما نصل إليه من نقاش ليس تفسيرا لمعتقدات دينية ولا حلا لطلاسمها ولا دخولا لمعاقلها ، وإنما فقط هو مجرد استنتاجات علمية لبعض الافتراضات القائمة والحية عن موضوعات تداول الحديث عنها، والمطلوب مناقشتها بعيدا عن العقيدة الدينية لتصل إلى القلوب الغلف بمفهوم المنطق العلمى المجرد .. ومن ثم ما نصل إليه ليس بالضرورة هو حقيقتها الدينية وإنما فقط حاصلها العلمى.

ثانيـا - مراحل الرحلـة :

وقلـت لزائرى أيضـا دعنـا نحـدد مراحـل هـذه الرحلـة الفريـدة فـى الأتـى :

المرحلة الأولى :

ما يدور فى عالمنا الذى نعيشه باعتبار أن ذلك الوجود هـو محطـة القيام بالنسبة لهذه الرحلة.

المرحلة الثانية :

ما يجرى فى سرداب الموت باعتبار ذلك طريق السفر للآخـرة.

المرحلة الثالثة :

الحياة الآخرة وما يجـرى فيهـا مـن بعـث وحسـاب وثـواب وعقـاب باعتبارها محطة الوصول النهائى.

خطــة البحــث

بعد أن حددنا معالم البحث واستقرت لدينـا مراحل الرحلـة، أصبـح من الميسور أن نتابع هذه الرحلة فـى مراحلها المختلفـة - طالما التزمنـا بركائز البحث ، حتى إذا ما انتهينا من الرحلـة كـان اللقـاء الأخـير حيـث صادفتنا رحلة حقة، وفى النهاية كان هناك تذييـل لحدث وقـع بعـد انتهـاء الرحلة ولكنه كان على هامشها.

وهكذا نحدد خطة البحث أو خط السير لهذه الرحلـة الفريـدة، علـى النحو التالى :

المرحلــة الأولى : مرحلة الوجود الذى نعيشه (محطة القيام).

المرحلة الثانية : مرحلة الموت (طريق السفر).

المرحلة الثالثة : الحياة الآخرة (محطة الوصول).

اللقاء الأخير : الرحلة الحقة.

تذييـــــــل : على هامش الرحلة.

المرحلـــة الأولـــى



﴿ الوجـود الذى نعيشـه ﴾

(محطة القيـام)

خـط السيـر :

تستلزم طبيعة الرحلة نحو الأبدية أن نقف كثيرا فى مرحلة الوجـود الذى نعيشه ، باعتباره محطة القيام بالنسبة لهذه الرحلة الفريدة، نستخلص لنا طريقا .. ونحدد لنا خطا للسير – بين مسالكه المتشعبة – يقودنـا إلـى نقطة الانطلاق إلى الأبدية.

والحقيقة أن هذه المسالك المتشعبة والدروب الموصلة **تدور أساسا فى الفكر الإنسانى، ومن ثم يتطلب اجتيازها واختيـار أفضلهـا أن نتعمق داخل محراب الفكر الإنسانى ، ونلتقى بأهم ما يحرك هذا الفكر ويشغله.**

ولعل أهم ما يشغل الفكر الإنسانى :

دور العلم الذى تعاظم شـأنه – علـى الأقل فـى الوقت الحـاضر – للحد الذى اتخذه البعض إلها لهم، بعد أن مكنهم من خزائن هذا الوجـود سواء المطمورة داخل الأرض أم المعلقة فى أرجاء السماء.

وهناك القضية التى شغلت الفكر علـى مدى العصور وهـى كيفية خلق هذا الوجود الذى نعيشه والذى نحن جزء منـه، والهدف من هذا الخلق. ونحن نتتابع على هذا الوجود... ليقضى كل منـا أجلـه ويرحـل ومعه هذا السؤال الذى يحيره .. كيف خلق الخلق .. ولماذا ؟

وهناك أيضـا .. القضيـة التـى ترتبط بسـابقتها وهـى قضيـة – أو بمعنى أصح قصة – خلق الإنسان والهدف منها .. والتى لم يسفر العلم عن رواية يقبلها العقل.

وهناك أيضا .. القضية الأزلية التى استحوذت على الفكر الإنسانى منذ القدم وحتى وقتنا الحالى .. وهى قضيته مع الأديان وتخير إحداها.

كما أن هناك أيضا الظاهرة المحيرة التى عجز الفكر الإنسانى عن حل طلاسمها وهى الجسد الذى يُسير الإنسان والروح التى يتوقف عليها حياته ونفسه التى هى بين جنباته ولا يحيط بأى منها فهما أو إدراكا.

ومن ثم كان علينا أن نواجه هذه التحديات من الفكر فى كل درب من دروبه .. ونطرحها فى صورة قضايا نتعرف فيها على وقائعها - بما لها وما عليها - ثم نفصل فيها بمنطق العلم المجرد الذى لا يتعصب ولا يتشيع، ومن ثم يستسيغه أى إنسان مهما اختلف فكره ومهما كان انتماؤه.

والهدف من بحث هذه القضايا - رغم تشعبها من حيث الظاهر - يكمن فى أن الانطلاق نحو الأبدية، يتطلب بداءة اليقين بوجود حياة أخرى أبدية ندركها عبر سرداب الموت. وهذا اليقين بالحياة الأخرى يستلزم بدوره منذ الآن - أى ونحن نعايش مرحلة الوجود - اليقين بوجود إله يمتد ظله ووجوده، إلى ما بعد مرحلة الوجود الذى نعيشه، ليحكم مرحلة الحياة الأخرى بتنظيم وأحكام وضع أصولها سلفا فى هذه الحياة الدنيا. وهذا اليقين بالإله وما وضعه من أحكام وقواعد فى هذا الوجود والذى يشكل عصب الفكر الدينى، هو ما يدفعنا لاجتياز رحلة الأبدية بيقين واطمئنان.

ومن ثم كان طرحنا لهذه القضايا التى ثار حولها الجدل، لمعرفة ما إذا كانت ستقودنا بالمنطق العلمى المجرد إلى حيث الهدف منها فتكون رحلتنا نحو الأبدية آمنة مستقرة ... أم العكس فنتخلف فى محطة القيام ونقنع من الغنيمة بالإياب.

وفيما يلى نعرض لهذه القضايا تباعا على النحو التالى :-

القضيــة الأولــى : العلم بين المنظور العقلانى والمنظور الدينى.

القضيــة الثانيــة : كيفية خلق الوجود وهدفه.

القضيــة الثالثــة : قصة خلق الإنسان والهدف منها.

القضية الرابعـة : اعتناق الأديان وتخير إحداها على أساس علمي.

القضية الخامسة : التعرف على ماهية الجسد والروح والنفس.

القضـية الأولــى

العلم بين المنظور العقلانى والمنظور الدينى

الجلسة الأولــى : التعرف على ماهية العلم وتحديد خصـائصـه (دراسة تحليلية) .

الجلسة الثانيــة : العلم من خلال المنظور العقلانى ونتائجه.

الجلسة الثالثـة : العلم من خلال المنظور الدينى ونتائجه.

تمهيـــد

زمـان نعـاصره : يحسـب التقدم فيـه والحضـارة بقـدر مـا تمسـك الإنسان فيه بأسباب العلم وسبل المعرفة ، حتى ولو كان ذلك على حسـاب العقائد والمعتقدات ... والتأخر والتخلف بقدر ما باعد الإنسان بينـه وبيـن هذه الأسباب والسبل العلمية ، حتى ولو تعلق أكثر وأكثر بالعقائد والأفكار الدينية ... حتى صار اليقين لدى الكثير فى هذا العصر أن التقدم هو ثمرة العلم والمعرفة، والتخلف هو نتاج الجهل حتـى ولـو صـاحب ذلـك التعلـق بالعقائد.

عالم نعايشه : تقاس الوفرة فيه والرفاهية بقـدر مـا اعتمـد الإنسـان فيه على تكنولوجيـا العصـر والتقـدم العلمـى، حتـى ولـو بـاعد بينـه وبيـن مناسـك الشـرائع والعقـائد. والفقـر والعـوذ بقـدر مـا تخلـف الإنسـان عـن التمسك بالجديد من العلوم، حتى ولو ألزم نفسه ليل نهـار بشـعائر العقيـدة ومناسكها :

للحـد الـذى انقسـم العـالم إلـى درجـات قمتهـا، الـدول المتقدمـة ذات الاعتماد الكلـى فـى تسيير دورتهـا الاقتصاديـة علـى العلـم والتكنولوجيـا، وأخـرى ناميـة وهـى التـى مـازالت فـى طريقهـا للتمسـك بـأهداف المنهـج العلمى واستغلاله فى تنظيم حياتهـا الاقتصاديـة، وثالثـة فقيرة وهـى التـى باعدت بينها وبين العلم والمعرفة إلا بالقدر اليسير.

والغريب حقا أن **الدول المتقدمة حظها من الدين يسير**، فهى تعتمد فى الغالب على مجرد مظهره الخارجى ليكمل فقط شكل الحيـاة فيهـا ومـا تتسم به من فخامة وأبهة... **والدول النامية حظها من الديـن** أوفـر نسـبيا، فهى وإن كانت متطلعة للتقدم والارتقاء، إلا أنها ما زالت متعلقة بجذورها

الدينية التى لم تقتلع بعد ... والدول الفقيرة ترفع راية الدين عند كل أزمة ونزلة، وكأن الدين هو شعارها الأوحد لحل كل الأزمات حتى الاقتصادية منها.

والمحصلة أنه صار الاعتقاد أن الدين والعلم طرفى نقيض، وبات المطلوب الوصول إلى كنه العلم عند من آمنوا به وجردوه من الأخذ بالعقائد فازينت لهم الدنيا، وهؤلاء الذى تشيعوا للعقائد وجردوها عن واقعها العلمى فاكفهرت لهم الدنيا وتوارت بعيدا .... إلى حيث العالم الثالث .

الحق أن هؤلاء وهؤلاء قد اشتطوا فى الفكر والتطبيق فظهر الخلاف وبانت الذلة : فلا تكفى الدنيا عن الآخرة عند من تمسك بالعلم وجرده من العقيدة ... ولا تكفى الآخرة عن الأولى عند من شغل نفسه بالعقيدة وجردها من العلم.

وبات من الضرورى أن نعرف كنه العلم ونحدد مدلوله مجردا عن نظرة هؤلاء وهؤلاء، حتى إذا ما تيقنا من ماهيته الحقة ، ظهرت لنا واضحة :

النظرة القاصرة إليه ممن انتهوا به من أصحاب الفكر العقلانى المحض.

والنظرة المتعدية كما يجب أن تكون من أصحاب الفكر الدينى.

ولكن علينا - بداءة - قبل أن نخوض فى ماهية العلم ونتائجه الحقة - ألا نتخذ من واقع الحال (من تقدم الدول وتأخرها) - برهانا على صحة فكر هؤلاء أو خطئه بالنسبة لهؤلاء ... ذلك أن واقع الحال

واختلافه بين الدول مرهون بعديد من الظـروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الأخرى ولا يجب أن نقصره فقط على مدى التقدم العلمى والتكنولوجى أو التشبث بالفكر والعقيدة، **وإنما الصحيح أن نتخذ من المفهوم الصحيح للعلم وسيلة التصحيح** - إن صح التعبير - **للمسار العقلانى المجرد، وأداة اليقين بالنسبة للفكر الدينى الحق** .... وما يجب أن يعكسه ذلك على التطبيق العملى فيما بعد .

والآن آن الأوان أن نتعرف على العلم تمهيدا لبيان اختلاف منظوره بين الفكر العقلانى والفكر الدينى الحق .. وسوف نخصص لمناقشة كل منها جلسة مستقلة على النحو التالى :

الجلسة الأولى : التعرف على ماهية العلم وتحديد خصائصه (دراسة تحليلية).

الجلسة الثانية : العلم من خلال المنظور العقلانى ونتائجه.

الجلسة الثالثة : العلم من خلال المنظور الدينى ونتائجه.

الجلســة الأولى

التعرف على ماهية العلم وتحديد خصائصه
(دراسة تحليلية)

أولا – ماهــية العلــم

العلم فى إطاره العام :

هو ثمرة فكر الإنسان، وحاصل تجربته، وخلاصة تحليله لكل ما يحيط به من ظواهر كونية وطبيعية و صناعية ... وصقلها فى إطار نظريات عامة وقواعد وقوانين ثابتة ... وتطويرها مع كل اكتشاف جديد للمجهول الذى يحيط به واستخدامها فى قهر الطبيعية وقسوتها، والموارد وندرتها، والنفس وجنوحها.

وذلك بهدف أن يصل الإنسان للتقدم والارتقاء والسيطرة على الكون، باعتباره الكائن الأوحد الذى يحق له السيادة والسلطان على هذا العالم، بما هو مزود به وحده من طاقات العقل والإرادة الذاتية، دون غيره من المخلوقات الأخرى.

العلم فى إطاره الخاص :

هو فقط خلاصة حصر هذه الطاقات السابقة فى إطار فرع معين من فروع المعرفة ... ومن ثم يتفرع العلم إلى علم الاقتصاد والاجتماع والسياسة والهندسة والطب ... الخ .

والعلم سواء فى إطاره العام أو الخاص لا يمكن إدراكه إلا بالعقل الذى تميز به الإنسان على سائر مخلوقات الله. ومن ثم فكلما زاد إدراك

الإنسان وفهمه، كلما ازداد علما، وكلما ازداد علما كلما ازداد رجاحة في العقل .

ومن ثم كانت العلاقة بين العلم والعقل الإنساني، للحد الذى وجدت المذاهب العقلانية - أيا كانت ما اتخذته من صور وأشكال سياسية أو اجتماعية - أساسها المنطقى ... فطالما أن العقل الإنسانى هو الذى يحيط بالعلم ويسخره لخدمة المجتمعات وتطورها إلى حيث حضارات أفضل ورفاهية أكثر، **إذا فهو العقل الإنسانى ومن ورائه الإنسان هو حجر الزاوية فى هذا الوجود وبالتالى تنعقد عليه عمارة الكون.**

وقد كان وبلغ الإنسان حلمه فقد أصبح له فى الكواكب مستقر ومتاع، وفى الفضاء الخارجى سفن وأقمار، وله فى أعماق المحيطات أفلاك ومحطات، ناهيك عما وصل إليه من تكنولوجيا رهيبة فى مجالات الاتصالات السلكية واللاسلكية والمرئية والصوتية ومجال الحاسبات والإلكترونيات التى استخدمت لتوسيع قاعدة البحث العلمى، ليندفع إلى حيث موجه جديدة من التقدم والارتقاء، لتكتمل للإنسان دائرة السيطرة الكاملة على الكون : أرضه ومياهه ورياضه وسمائه .... الخ.

والحق أن الإنسان قد اغتر بنفسه وما وصل إليه من علم كسبيل له فى الحياة ، حتى أنه بات ينكر أى مقولة أخرى لا يصل إليها بفهمه وإدراكه، فهو كما برمج آلياته على أن تعمل وفق أصوليات علمية ، برمج ذاته وفكره على ألا يقبل إلا ما يدركه عقله وفهمه.

ولما كان العلم لا يقوم إلا على محسوسات ، فقد أنكر الإنسان الغيبيات أو على الأقل لم يعول عليها فى بناء حضاراته.

ومن ثم كان جنوح الإنسان إلى تقديس ذاته واعتناقه لنظريات ابتدعها يجمعها فكر واحد وإن اختلفت صورها، وهو أن العقل الإنسانى بما وصل إليه من علم ... محكوم فقط بالمنطق العلمى المجرد فى بناء حياته وتطورها ، وليس له بعد فى منظومة الحياة أن يعول على غير ما يستسيغه واقع العلم وأصولياته .

وبالتالى إذا كانت الأديان والرسالات السماوية تذكر بالموت على أنه حياة أخرى أبدية فهى وشأنها .. فالموت بالمنطق العلمى والمشاهدة فناء وهلاك. وإذا كانت الأديان تبشر بالجنة وتنذر بالعذاب فى الحياة الآخرة يوم الحساب فلها ما أرادت .. فالحياة الآخرة غيب والعلم لا يبنى نظرياته إلا على فروض محسوسة وواقع ملموس ولا يتعامل أبدا مع الغيبيات.

ومن ثم فمن قال من أصحاب المنطق العقلانى إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا فيها ولا يهلكنا إلى الدهر فقد التزم بمنطقه العلمى. ومن قال أن الطبيعة وقوانينها هى التى تحكم مسيرة الحياة، وأن الإنسان ابن المادة وهو من التراب وإلى التراب ومن ثم فهو إلى فناء، فقد اعتنق مذهبه المادى العلمى فى التفكير.

والمحصلة النهائية أن الإنسان بعلمه ورجاحة عقله قد خطط لذاته ولحياته من خلال واقعه المادى الملموس ، وسخر الطبيعة لخدمة مقدراته، فكانت نظرياته الاقتصادية والاجتماعية من شيوعية واشتراكية ... الخ . ونظرياته المذهبية : مادية جدلية وأخرى علمية.

وهكذا تصدر الإنسان الكون بعقله فصار عطاءا مناعا، خلاقا مميتا ... إلهه العلم، الذى به قد تنفتح طاقات جناته على الأرض أو ركائز فنائه فيها .

ثانيا – تحليل العلم

وهنا قاطعنى محدثى بقوله : نعم لقد أصبت فى تحليلك لمفهومهم للعلم ، وقد عشت معهم لسنوات هذا الفكر، وكنت كلما حاولت أن أضيف إليهم ما تحث به الأديان على التمسك بأهداب العلم واستشهد لهم بالآيات التى تفرض على الإنسان التدبر فى خلق الله، يقولون إنها ميلة إلى الدين وصلناها بفهمنا المجرد فما أغنانا عن رأيك طالما ليس فيه جديد ... **فهل أجد عندك أنت الجديد يا أستاذى ؟**

قلت : علينا أن نتمسك بمنطقهم العلمى إن أردنا أن يفقهوا لنا قولا، ومن ثم علينا ونحن بصدد تعريف العلم أن نحدد مفهومه بمنظور علمى أكثر دقة وأعمق تحليلا مما خطر ببالهم ومما تناقلتهم كتبهم، ومن ثم نبدأ من حيث انتهوا.

فهم :

قد بدءوا بأفكار تلو أفكار ودعموها بتجارب ودراسات فى مختلف المناحى والاتجاهات (من اقتصادية واجتماعية وسياسية وبحثيه) حتى استقرت فى مبادئ ونظريات نسبت لأشخاص وأشخاص: فصار العلامة .... أ، والفقيه ....ب ، والعالم ....ج ، والمفكر .... د ، والأخ .... هـ، والأب .... و ، ... وهكذا .

وأضحى هؤلاء رموز العلم فى البشرية ينسب إليهم الفضل فى التقدم الحضارى سواء على مستوى الفكر العقائدى أو الواقع التطبيقى ... ومن ثم صارت عقولهم هى محور الفكر وآلة العصر ونور المعرفة

والتقدم ... ويالها فعلا من عقول تستحق أن ينسب لها فكر ... ألا وهو الفكر العقلانى الذى اتخذ من العلم المجرد الذى يقوم على التجربة والمشاهدة والحساب دعائم بنيانه.

ومن ثم فلا غرابة إذا كانوا قد انتهوا إلى أن العلم الإنسانى الذى يحركه الإنسان بعقله، هو الذى تنعقد عليه حركة الحياة التى يحياها والتى تنتهى بنهايته طالما قد وقفت آلياته . ومن ثم فهو الذى يستحق التقديس والتأليه.

وعلينا :

أن نتخذ من هذه النهاية بداية الانطلاق لتحديد مفهوم العلم وإنما فقط بعقلانية أكثر عمقا، **ذلك أن ما انتهوا إليه عن العلم هو دون التحليل العلمى الصحيح للعلم، وإنما التحليل الصحيح يمكن الوصول إليه إذا ما علمنا أن :**

الإنسان – كما أثبتت التجارب العلمية والأبحاث والدراسات المتطورة – **ليس كما يتصورون فى عجالة قد فاض علمه على ما حوله فحرك وسيطر وخطط وعلا فى الأرض .. إذ يتطلب ذلك أن يكون الإنسان على حد قول العلم جهاز إرسال .**

والحق أن الإنسان ليس كذلك، فلا هو من حيث التحليل العلمى الدقيق بالسميع ... البصير ... الخبير... المتعال ذاتيا، بمعنى أن جهازه البدنى لا يسمع إلا إذا انعكس على أذنه صوت، ولا يرى إلا إذا انعكس على عينه شعاع من الضوء، ولا يكون خبيرا إلا إذا انعكس على مخه وميضا من العلم .. وهكذا. والدليل على ذلك أنه إذا انقطع مصدر

الصوت أو أظلم مصدر النور أو اقفل وميض العلم فإن الإنسان لا يسمع ولا يرى ولا يفقه.

والصحيح – كما أثبت العلم – **أن الجهاز البدنى فى الإنسان، إن صح التعبير، هو جهاز استقبال وليس إرسال. ويترتب على ذلك نتيجة غاية فى الأهمية :**

وهى أن كافة حواسه من شم وتذوق وسمع وبصر وإدراك لا تتحرك إلا إذا وجدت عوامل خارجية تحركها فى حركة ديناميكية ترتبط فيها بعضو الجسم الملائم لها ... وهى الأذن بالنسبة للسمع، والعين بالنسبة للنظر، والأنف بالنسبة للشم، واللسان للتذوق، والمخ للفهم والإدراك... وهكذا. فلا يسمع الإنسان مهما كانت أذنه واعية إذا كان ما يحيط به هو الصمت الرهيب، ولا يرى الإنسان مهما كانت عينه يقظة إذا كان ما يعيشه هو الظلام الدامس، ولا يفقه الإنسان شيئا مهما كان مخه نشطا إذا كان ما يطبق عليه هو الجهل المطلق... وهكذا .

وإذا ما انتقلنا من الكلام عموما عن الحواس للتركيز على حاسة الإدراك والفهم نجدها فى إطار نفس الحكم، فلو لم يكن هناك وميض من العلم والمعرفة ما اكتسب الإنسان الفهم والإدراك.

وقد فطن الإنسان إلى ذلك بفطرته فقد كان وليدا لديه المخ ولكن ليس بعد الفهم والإدراك، وإنما اكتسب ذلك بأن درب نفسه على المشاهدة والتدبر والتقليد والتلقين حتى اكتسب المعلومة واختزنها فى هذا الجهاز، وبقدر ما اختزنه منها فى هذا الجهاز يعتبر أنه اكتسب قدرا مماثلا من الفهم والمعرفة.

فها هى اللغة وهاهى العادات والتقاليد، بل وما هو أكثر المهنة والعمل فهى حاصل تهيئة هذا الجهاز فى الإنسان لاكتسابها ... فمن أراد أن ينطق بالإنجليزية عليه أن يتعلمها ولو كان والداه من الإنجليز، ومن أراد الطب كمهنة عليه أن يمهد لها بدراسة الطب سنوات وسنوات ولو كان أبواه من الأطباء، وكذلك الحقوق والآداب .. وهلم جرا. وما وجدنا حتى الآن إنسانا نطق بلغة لم يتعلمها أو نبغ فى مهنة لم يدرسها.

وهكذا نرى أن الإنسان يكتسب العلم ويختزنه ويجتره عند اللزوم والحاجة، ولكنه لا يشعه ذاتيا ، ذلك أن العلم دخيل عليه وليس من عناصر تكوينه.

وإذا سلمنا بأن العلم دخيل على الإنسان وليس من عناصر تكوينه، **وإنما فقط الذى يدخل فى عناصر تكوين الجسم البدنى للإنسان هو ذلك الجهاز المسمى بالمخ**، وأن هذا الجهاز هو القادر على تلقى المعلومة واختزانها ثم طرحها من جديد بعد أن يكون قد عقلها الإنسان وأدركها - شأنه فى ذلك شأن العين حين تنعكس عليها الصورة بطريقة مقلوبة ثم تعكسها للمخ بطريقة معينة فيدركها الإنسان وهكذا - **فإنه من البديهى إذا أصاب هذا الجهاز لدى الإنسان أى خلل أو مرض، أدى ذلك إلى فقد الإنسان للوعى والإدراك. وكلما سلم هذا الجهاز وتهيأ لتلقى المعلومة كما ونوعا كلما بلغ هذا الإنسان قدرا من الإدراك وتخصص فى نوع ما تلقاه من العلم**، وبذا صار الطبيب والمحامى والمهندس ... وهكذا.

ولكن ليس معنى ذلك أننا نغفل دور الإنسان، ونقصره على مجرد أن له جهازا يسمى المخ، يحركه بمجرد تلقى المعلومة واستخدامها دون ما أى إضافة من عندياته من بدائل واختيارات وفهم وإدراك لها ... أى

دون أن يعقلها ، وإلا التقى الإنسان بالحيوان والطير الذى يتكون بناؤه البدنى من مخ أيضا ولكن يختلف عن الإنسان فى أنه قد يدركها ولكن لا يعقلها، بمعنى ألا يختار بين البدائل وإنما يتصرف وفق غريزته أى برد الفعل. وهى قضية تستحق الوقوف عندها والتركيز عليها بعناية، ولذا فإنى سأفرغ لها مساحة أخرى فى المناقشة ونحن بصدد الحديث عن النفس.

ولكنى آثرت فقط فى هذا المجال الخاص بتعريفنا للعلم أن أركز على أن العلم ليس من عنديات الإنسان وإنما هو دخيل عليه، بمعنى أنه يتلقاه ويكتسبه سواء بالمشاهدة أو التجربة أو التلقين أو التقليد أو غيرها من أسباب التعلم الأخرى، على شكل ومضات تنعكس على جهاز فى الإنسان يختزنها ثم يجترها عند الحاجة.

ثالثا – خصائص العلم

١ – العلم كامن فى طبيعة الأشياء :

إذا كان الوضع كذلك وهو أن العلم ليس من عنديات الإنسان، وإنما هو خارج عنه، إذا فمن البديهى أنه كامن فى طبيعة ما يحيط به من أشياء سواء كان هذا الشىء صغيرا أم كبيرا، سائلا أم صلبا، بناءا أم زرعا، هواء أم صخرا، سماءا أم أرضا ... الخ .. **وسواء أدركه الإنسان أم لم يدركه .**

فالعلم كامن فى الذرة والنبات والحيوان والهواء والنجوم والأرض والصخر والماء .... الخ ، وهو كامن فى وحدات كل من هذه الأشياء التى لا نحصيها عدا. ويحتاج إدراك العلم الكامن فى أصغر مكونات هذه الأشياء وهى الذرة أو النواة مجلدات ومجلدات لحصره والإلمام به.

٢ - العلم يتخطى حياة الإنسان :

والعلم وإن كان يكمن فيما يحيط بالإنسان من أشياء ، فليس معنى ذلك أنه لا يجاوزه، فبالتأكيد أن مساحته تمتد لتغطى ما قبل الإنسان وما بعده، وما فوق الإنسان بكثير من عوالم أخرى وملء أعلى وما دونه من كائنات لا قبل له بها.

٣ - العلم له وميض :

وهو ما نستدل به على وجود العلم، كما نستدل بالأشعة على وجود الشمس، والضياء على وجود القمر، والرنين على الصوت ... وهكذا. **ولكنه ليس ملموسا بالحس المادى شأن شعاع الشمس وضوء القمر، وإنما هو يدرك بالفهم والإدراك، ذلك أن هذا الوميض أكبر من أن يتحيز فى مكان أو يتقيد بزمان أو ينفرد بصورة واحدة**، وإنما يتميز بالآتى :

- **وميض العلم شامل**، ذلك أنه إذا كان نور الشمس الذى يعم الأرض قد يحتجب نصفا من الوقت ليحل محله ظلام الليل، فإن وميض العلم الكامن فى الأشياء لا يستره ليلا أو نهارا سحابا أو رمادا ظلا أو حرورا ، فهو فى الليل والنهار والسحاب والرماد ... وفيما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر.

- **وميض العلم نفاذ**، لا يحجبه سترا أيا كان ، فهو يصل إلى صميم كل شيء وينفذ منه ليربطه بآخر، فهو مثلا قد وصل إلى الأرض فحكم كل ما عليها من زرع ونبات وجبال وحيوان وطير وبحار وهواء ... الخ ، ليربطها بما يحيط بها من كواكب ونجوم ... وتلك بما تنظمها من مجرات وهكذا .

❖ **ووميض العلم هذا يصل بدوره للإنسان فقط إذ هيأ نفسه لتلقيه**، فمن يعد نفسه لدراسة الذرة مثلا يجد فيها من العلم ما يكفيه، ومن أعد نفسه لدراسة الطب يجد فيها من العلم ما يرضيه .. وهكذا .

❖ **ووميض العلم له نبضات**، يتلقفها الإنسان تارة بالتدبر وأخرى بالتحليل وثالثة بالمشاهدة ورابعة بالتجربة ... الخ . وقد تكون هذه النبضات سريعة متلاحقة بحيث يصل الإنسان إلى المعلومة متكاملة فى وقت متقارب ، وقد تكون هذه النبضات بطيئة بحيث تحتاج إلى أجيال من البشر يكمل بعضها البعض حتى تستقر.

❖ **ووميض العلم قد يكون ساطعا**، بحيث تكفى المشاهدة العابرة لإدراكه. وقد يكون خافتا بحيث يحتاج لعين مدققة أو مجهر لبلوغه. **وقد يكون وميض العلم بعيدا** - كالأقمار والشموس - فيدفعنا غرورنا للحاق به ، **وقد يكون قمة القرب منا** - فى أنفسنا - فيصرفنا جهلنا عن البحث عنه.

❖ **ووميض العلم قد يكون حارقا مدمرا لا يبقى ولا يذر**، إن تعرضنا له بغير تحصين، كمن اقتلع من الذرة نواتها وقسمها بحسبان أنها ذرة لا ترى، وهو لا يعلم أن هذه الذرة فى ميزان العلم قد تنسف عالمه إذا لم يتحصن لها بالحسابات الدقيقة. **وقد يكون هذا الوميض بردا وسلاما** إذا ما قدر له أن يكون بلسما وعلاجا.

❖ **ووميض العلم قد يكون فيما نحسه ونتلمسه** ونشاهده أى فيما يقع تحت حواسنا عالم الشهادة. **وقد يكون غيبا عنا** سواء لأننا لم نصل إليه بحواسنا بعد أى مازال مجهولا عنا، أو كان بطبيعته بعيدا عن

متناول طاقات حواسنا وبالتالى إدراكنا، سواء كان بعدا مكانيا كمجرات وعوالم لا قبل لنا بها، أو زمانيا كحياة غيبية مقبلة لم نبلغها بعد... هكذا.

❖ **ووميض العلم له مكثفات** – كالعدسة وأنواعها بالنسبة للأشعة – قد تفسح للمعلومة العلمية طاقات وطاقات إذا جمعتها وأثقلتها بحيث قد تصل من أشعة الضوء الخافت إلى أشعة الليزر الحارقة ومن شتات الذرة أو النواة التى لا ترى إلى المفاعل الذرى والنووى الذى تحجب سحبه أشعة الشمس.

❖ **ووميض العلم كما قلنا كامن فى الأشياء، ومن ثم يأخذ من خواصها** ويجرى عليه ما يجرى عليها. فهو قابل للتملك والانتفاع والاستغلال؛ فمن يصل إلى بلوغ معلومة باكتشافه وتجربته صار له عليها حق ملكية وكان له أن يستعملها بنفسه وله أن يستغلها عن طريق الغير بما يحقق له الكسب، وما اتفاقات نقل التكنولوجيا إلا إحدى تطبيقات هذا المبدأ فى العصر الحديث، وما حقوق الملكية الفنية والصناعية إلا إحدى صورها.

❖ **ووميض العلم كائن وموجود قدم الوجود نفسه**، فهو فى الذرة والزرع والنبات والماء والهواء والضوء منذ كانت هذه الأشياء وسواء علمنا أو لم نعلم فالعلم كامن فيها ... كل ما هناك هو فى مدى ما أدركنا منه؟

وبالقطع ما أدركناه من العلم ليس باليسير وإلا ما انتقلنا من عالم البخار إلى عالم الكهرباء إلى عالم الصواريخ والأقمار، ومن يدرى ما سنصل إليه فى غدنا القريب أو البعيد مع كل اكتشاف جديد.

❖ **ووميض العلم ليس له مصدر محسوس** كذلك الذى للأشعة أو الرنين أو الضياء ... إذ لو تتبعنا كل منها لوصلنا إلى مصدره. فى حين أن وميض العلم لا تجد له مصدرا محسوسا، **وإنما يتعالى مصدره عن عالم المحسوسات والموجودات مهما بلغ شأنها أو حجمها ... فهو من مصدر آخر علوى لا قبل لنا به**، وإنما كل ما علينا هو أن نتلقاه ونتفهمه بقدر طاقاتنا المحدودة، ثم بعد ذلك نردده أو نطبقه ونعمله بقدر حاجاتنا ومتطلباتنا.

ومن حصيلة ما تقدم :

يمكن أن نصل إلى تحديد للعلم - بالاستهداء بالمنطق العلمى فى التحليل - بأنه ومضات لا تصدر عن الإنسان ، وإنما تكمن فى صلب كل الأشياء والمخلوقات (ارض وسماء وماء ونبات ... الخ) حيث تنبعث منها وتنعكس على جهاز فى الإنسان والحيوان (المخ) فيدرك منها كل بوسيلته (المشاهدة، التجربة، التقليد، التلقين)، بقدر ما يسمح به هذا الجهاز وتركيبه (كل ما هنالك أن الإنسان يتميز بأن له القدرة على الاختيار وهى مسألة سنعالجها فيما بعد عند التعرض للنفس).

وأن هذا الوميض له من الخواص ما يميزه فهو قديم قدم الوجود، له طاقات جبارة قادرة على نسف الكون أو بنائه، يمتد فى الزمان إلى ما يفوق عمر الأرض والسماء، قابل بعضه للتملك والحيازة والاستغلال، وأنه من مصدر علوى لا قبل للإنسان به ... الخ .

وبعد أن خلصنا إلى تعريف العلم من واقع علمى مجرد على النحو السابق ، علينا أن نبحث عن دائرته بين المنظور العقلانى والمنظور الدينى.

الجلســة الثانيــة

العلم من خلال المنظور العقلانى

بينا سلفا ما نقصده بالمنظور العقلانى : **وهو المنظور الذى يجمع بين دفتيه كل الأفكار والمذاهب التى تفصل بين الدين والدنيا، والتى تجعل للدين دائرته التى يعمل فيها الفرد فى علاقته بخالقه، والدنيا التى يسيرها الإنسان بعقله.**

وذلك بغض النظر عن مدى التفاوت بين المذاهب التى يضمها المنظور العقلانى، والتى قد يصل بعضها لحد الإنكار التام للأديان كالفكر المادى الماركسى، فى حين يكتفى بعضها الآخر بالاعتراف بالأديان ولكن فقط فى إطار تنظيمها لعلاقة الفرد بنفسه وبربه وهى ما تسمى بالأفكار العلمانية. وسواء كان هذا الفكر على مستوى الدولة أو كان على مستوى الفرد، ذلك أن الفرد قد يعيش فى دولة تعتنق الأديان فى حين يتخذ هو من مقدراته العلمية وحساباته المجردة عن المعتقدات الدينية ديدنه فى هذه الحياة .... الخ.

أى باختصار أننا نركز على دراسة العلم من خلال منظور عقلانى نهتم فيه بجوهر الفكر العقلانى ومضمونه وليس بشكله وصورته ... ونحن نعرض فيما يلى لأساسه وأهم نتائجه :

١ – أساس الفكر العقلانــى

هذا الفكر التزم فقط بحدود فهمه وإدراكه للعلم، على نحو ما بينا فى حينه، على أنه نتاج ثمرة فكر الإنسان وحاصل تجربته وخلاصة

تحليله لكل الظواهر الكونية والطبيعية ... الخ ، ولم يصل لفهم العلم - على نحو ما بينا فى تحليلنا له - على أنه وميض له مصدر علوى لا يصدر عن الإنسان ، وإنما هو يكمن فى صلب كل الأشياء ... وينعكس على أجهزة فى الإنسان ... الخ.

٢ - نتائج الفكر العقلانـى

يمكن أن نصادر على المطلوب ونحكم على من يدعون هذا الفكر العقلانى ويعتنقوه - سواء كان على مستوى الفرد أو جماعة - بأنهم لم يسايروا منطق العلم ونداء العقل حتى نهاية الشوط، فخرج فكرهم قاصرا ومحدودا، ويتجلى ذلك إذا ما استعرضنا نتائج هذا الفكر على النحو التالى :

أولا - تأليـه العلـم :

قادهم العلم إلى كل أسباب الرفاهية : فها هى الطائرات العملاقة التى تجوب أرجاء السماء شرقاً وغرباً ، وهذه هى البواخر والسفن التى تمخر عباب المحيطات والبحار، وهذه هى القطارات والسيارات، وهذه هى المبانى الفارهة والأثاث الفاخر، وأجهزة التكييف وهذه ... وهذه ... إلى مالا نهاية مما توصل إليه الإنسان، أخذا بأسباب العلم وتحقيقا للرفاهية .

قادهم العلم لكل أسباب القوة : فها هى الصواريخ والقنابل الذرية والهيدروجينية والدبابات التى تستخدم أشعة الليزر .... ومعلوم أنه يكفى استخدام أى منها لتفجير الكرة الأرضية وما عليها.

قادهم العلم للتوصل للفضاء الخارجى : ومحاولة السيطرة عليه واستخدامه فيما يحقق أهدافهم .... الخ.

والحق أنه لا يمكن حصر طاقات العلم التى توصلوا إليها والتى مازالوا فى طريقهم إلى اكتشافها .... وهى كافية لأن تذهب بلب الإنسان وعقله، حين يجد الإنسان نفسه وقد تحكم فى هذا الكون الفسيح وأصبح القادر على إنمائه أو هدمه ... لدرجة أن هناك ذلك الزر الأحمر الذى يقبع على يمين فرد معين من البشر يكفى الضغط عليه لأن يدمر كل من على الأرض لأجيال من الزمان.

أليس هذا عصر العلم والعلماء !! أليس هذا زمان الدول المتقدمة التى سبقت إلى استخدام العلم والتكنولوجيا فتحققت لها سبل الرفاهية.. والأخرى الفقيرة التى تخلفت عن ركب العلم والحضارة وأصبحت تنتمى لدول العالم الثالث لشدة فقرها وعوذها.

نعم لقد أدرك الإنسان أهمية العلم فى حاضره فأصبح يفكر بمنطق العلم ويتصرف بأسلوبه، فهو حين يقدم على مشروع اقتصادى مثلا عليه أن يدخله فى برنامج فى الكمبيوتر لدراساته وهو يلتزم فى النهاية بمخرجاته.

ولا غرو أن أصبح الإنسان أسير العلم وعبدا له، لقد أحاط به العلم فى كل خلجاته حتى أصبح الإنسان عالة عليه .. وكلما تقدم الإنسان فى مضمار العلم كلما ازداد اعتماد الإنسان على العلم، ليس فقط فى تسيير حركة حياته وإنما لإشباع جشعه ووحشيته ... وربما يأتى يوم يخاف فيه الإنسان على كبده وقلبه وكليتيه من متعطش لأسباب القوة، يغير كبده الهزيل بذلك اليافع الناضج، حتى ولو انتزعه بالقوة.

فالإنسان فعلا قد انبهر بالعلم، وهو فى غمرة انبهاره بالعلم قدسه واتخذ منه إلهه :

عن قصد كما فعلت من قبل الدول الشيوعية حين أنكرت الأديان تماما وعولت على التخطيط الاقتصادى والاجتماعى الذى قال به رموز من البشر.

وربما عن غير قصد حينما هامت بعض الدول بالعلم والتكنولوجيا وأقامت لهما قدس الأقداس وأشعلت لهما البروج من المشاعل الوضاءة، وإن كانت قد احتفظت ببعض الشموع الخافتة من رموز الأديان والعقائد السماوية لتنال بها الغفران عن ذنب ارتكبته ... فتحافظ بذلك على ميراثها من التاريخ القديم عن العقائد والأديان.

ثانيا – تمجيد الذات :

ويتأتى ذلك من نظرتهم للعلم باعتباره حصيلة الفكر الإنسانى الذى أبدع فخلق وابتكر وانتج واكتشف، وما كل ما وصل إليه الإنسان من رفاهية وقوة ومكنة فى الأرض إلا تراث ماضيه، ولكن وهو الأهم هو نتاج حاضره الذى تفوق فيه على نفسه.

ومن ثم إذا كان للإنسان كل هذه الصولة، فلماذا لا تكون ذاته هى محور فكره !! ألا تستحق هذه الذات الحمد والتمجيد !! أليست هى التى تحمل الشعلة فى سباق الحضارة !! أليست هى الوضاءة فى ظلام الجهل!! أليست هى القاهرة فى ميدان الحرب !! أليست هى الباسطة القابضة على صعيد السلم !!

وبالتالى ليس بغريب على معتنقى هذا الفكر أن يربطوا حياتهم بحدود ذاتهم، فطالما منهم العطاء فلهم كل الثناء .

ومن ثم لهم أن يستأثروا بالرفاهية ولو على أشلاء الكثرة من البشر. ولهم أن يستأثروا بالسيادة ولو على حساب استعباد غيرهم. ولهم أن ينعموا بحياتهم الخاصة دون ما حاجة لقيود من أسرة أو قيود دينية وهكذا.

ولا غبار فكل هذا زائل حين تتوارى هذه الذات إلى غياهب العدم والنسيان أى حيث تتوارى فى التراب، فالموت عندهم هو نهاية الذات، وليس هناك بداهة من جنة إلا تلك التى ينعم بها على الأرض حيث تحيا الذات إلى أن يطويها الفناء. وعليه أن ينعم بجنته الحالة فهى رضوان ذاته.

ثالثا – الانخراط فى الوجودية :

بديهى أن من آمن بالعلم وقدسه، وبالفرد وقدرته ، عليه أن يلتزم بالأسلوب العلمى فى التفكير وأن يربط فكره بحدود ذاته .

ولما كان الأسلوب العلمى فى التفكير يقوم على استنباط الحقائق العلمية مستخدما فى ذلك أدواته وآلياته ووسائله من تجارب ومشاهدات وتحليلات معملية ورياضية ... الخ، **وكانت هذه الوسائل العلمية تتعامل فقط مع المحسوسات من الأشياء** التى تحاول معرفة كنهها أو الكشف عن مدى طاقتها أو تفاعلها مع غيرها ... وهكذا، **لذا فإن دائرة العلم عند معتنقى هذا الفكر مرتبطة فقط بما هو موجود.**

ولما كانت حركة الفرد وطاقته الفكرية تدور فى محراب العلم فهو يلتزم فقط بالأسلوب العلمى والموجودات التى يتعامل معها. ومن ثم فهم مع الوجود ومن الوجود، وهكذا تدور أغلب نظرياتهم العلمية ...

فالإنسان نشأ من تطور الأجناس ... نظرية التطور، والإنسان وغيره من الكائنات من خلق الطبيعة .... النظرية المادية ... وهكذا.

وبالتالى ما وراء الوجود من حياة أخرى أبدية ليس فى الحسبان لأنه خارج نطاق آليات العلم، ومن ثم لا يمتد إليه فكرهم الذى انحصر فى الوجود المادى الملموس.

الجلســة الثــالثة

العلــم مـن منظـور دينــى

١ – أساس الفكر الدينــى

الواقـع أن المنظـور الدينــى للعلـم ليـس – كمـا يتصـوره دعـاة العقلانية – بالمنظور المغلق والموصد، وإنما هو أكثر انفتاحا على العلم والعقل، فهو بالإضافة عما قيل عـن أهميـة العلـم – وبـالذات فـى الوقـت الحاضر– قد ساير التحليـل العلمـى لـه ... ولكـن ربمـا مـن زاويـة أكـثر انفراجا .

فقد بينا من خلال تحليلنا للعلم أنه ومضات لا تصــدر عـن الإنســان وإنما هى تكمن فى الأشـياء المحيطـة بالإنسـان .. تنبعـث منهـا وتنعكـس على أجهزة فى الإنسان فيدركها .... الخ .

والحقيقة أن الفكر الدينى يسلم بهذه الحقيقة حين يقول "***وما أوتيتم من العلم إلا قليلا***" ، أى أن العلم يأتى إلى الإنسان وليس الإنسان مصــدر إشعاعه.

المهم أن الفكر الدينى قد تجاوز تحليلنا العلمى للعلم، حيث تســاءل وبحق ... إذا كان العلم لا يصدر عن الإنسان وإنما هو يأتى إليه ، فمـن أين أتى ؟ وبعبارة أخرى ما هو مصدره ؟

العلم كامن فى طبيعة الأشياء سواء اكتشفها الإنسـان أم لـم يكتشـفها بعد، **فمن هو الذى أودع فى كـل شـىء علمـه وسره** ؟ هـذا هـو السـؤال الذى يجب أن يطـرح نفسـه علـى الساحة، **لأن الإجابـة عليـه تـؤدى إلـى نتائج غاية فى الأهمية، وربما تكون مغايرة تماما لكل الأفكار التى تدعى العقلانية وهى ليست من العقلانية فى شىء.**

والواقع أن الإجابة على هذا السـؤال رغـم أهميتهـا البالغـة فإنهـا بالمنطق العلمى غاية فى البساطة، إذ طالمـا أننـا سلمنا بـأن هنـاك علـم فلابد أن يكون قد أتى عن عالم. أى أن مصدر العلم هو العالم الذى أودع فى كل شىء علمه، واحتفظ لنفسه بكل الأسرار، ولا يحيطون بشـىء مـن علمه إلا بما شاء.

وتلك بديهية علمية إذ طالما هناك شـعاع من ضـوء، أو تيـار مـن كهرباء أو تردد من صوت ... فلابد أن يكـون هنـاك مصـدر مشـعا لهذا الضوء ومولد للطاقة الكهربائية بالنسبة للكهرباء ... الخ، **وبالتالى طالمـا هنـاك وميض من علم ، فلابد لهذا الوميض مـن مصـدر يشـعه ... وهـو العالم.**

٢ – نتائج الفكر الدينى

والفكر الدينى بإدراكـه هـذه الحقيقـة قد تعدى حـدود وطاقـات مـا يسمى بـالفكر العقلانـى فى تحديد نظرتـه للعلم، إذ أن نظرتـه للأمور كـانت من زاوية أكثر انفراجا، أى تعدت حدود وميض العلـم إلـى حيث مصـدر هذا الوميض وهو العالم.

ومن ثم فقد انتهت إلى نتائج تجاوز ما انتهى إليه الفكر العقلانى المجرد، إذ نجدها وقد احترمت العلم وألهمت العالم، ثم هى حجمت الذات الإنسانية إلى حيث حجمها الطبيعى باعتبارها فقط متلقية للعلم بحسبان، وتخطت بالعلم حدود المتاح لتلتقى به على صعيد المستهدف، فكانت النظرة هى ابتغاء الأبدية.

وعلى ذلك يمكن أن نلتقى بنتائج المنظور الدينى للعلم على محاور ثلاث:

أولا - احترام العلم وتأليه العالم :

يسوقنا منطق العقل، أن نؤله العالم الذى وسع علمه كل شيء، بدلا من أن ندعى العقلانية ونقصر فكرنا على تأليه وميض العلم. حتى نساير منطق من سبقونا - مع الفارق فقط فى تحديد ماهية الإله - إذ أنهم عبدوا الشمس أو القمر مصدر الضوء ولم تتعلق عباداتهم بشعاع الشمس أو ضياء القمر... وهكذا.

فهم قد وجدوا فى شعاع الشمس أو ضياء القمر ما ساعدهم ومكنهم من حياتهم، حيث أمدهم بالحرارة والضوء اللازم للزرع والنبت، كما ساعد على البخر الذى يكون السحاب ويجعله ركاما فينزل منه المطر فتحيا به الأرض الميتة ... وهكذا. ولكنهم فى مجال العبادة عبدوا الشمس أو القمر ... ذلك أن العبادة هى لمن أعطى ومنح ... هى لمن بيده الأمر .. وليست أبدا للتوابع من ضياء وأشعة ووميض ... وهكذا.

واليوم وقد أدركت البشرية أنها تعيش عصر العلم الذى أخذ يتدفق مدرارا فشمل كافة مناحى الحياة، وبدأ الإنسان يحيط منه بالكثير ... أفقيا

ورأسيا ... حتى أصبح يغطى فى مساحته ما يفوق أشعة الشمس بمراحل وأصبح يمتد عمقا إلى داخل الذرة والنواة والخلية ...، بات على الإنسان أن يتحرك فكره وهو فى مجال العبادة إلى العالم الذى فاض علمه على الأشياء جميعها صغيرها وكبيرها ما أحطنا به وما لم نحط ... وإلا نكون قد تخلفنا حتى عمن سبقونا إلى إعمال المنطق العلمى فى التفكير.

ونحن فى عبادتنا للعالم العليم لا نصحح فقط خطأ قصور النظرة إلى تقديس وميض العلم، وإنما نتجاوز ذلك إلى تعديل مسار الفكر المنطقى والعقلى عن العلم، فتقديس العالم يؤدى إلى الآتى :

١ - أن العلم ليس كامن فقط فى طبيعة ما يحيط بالإنسان من أشياء، **وإنما هو يعمل داخل منظومة واحدة تجمع بين كل ما بداخل هذه الأشياء من أسرار علمية سواء توصلنا إليها أو لم نتوصل،** بمنتهى الدقة والإحكام لدرجة أن وحدات هذه المنظومة جميعها تعمل فى تناسق وإحكام، أو بالأصح فى توازن وإتقان، بحيث لو اختل هذا التوازن على أى مستوٍ كان، أدى ذلك إلى تدمير الكون كله ... فها هى أصغر الأشياء وهى الذرة التى لا ترى أو ما هو أقل منها وهى نواة الذرة، إذا اختل توازنها لأى سبب كان لأدى ذلك إلى انفجار ذرى أو نووى ... الخ وناهيك عن عواقبه.

ونفس الشىء بالنسبة لأكبر الأشياء كما لو اختل التوازن بين الأفلاك التى يعمل فيها كل من القمر والأرض، وكذا الشمس وغيرها من النجوم .... وهكذا، وما يؤدى إليه هذا الاختلال فى التوازن من تدمير للكون كله.

ألا يكفى هذا بالمنطق العلمى المجرد، أن نعلم أن ما وصل إلينا من علم فى كنه ما يحيط بنا من أشياء، إنما يرجع كله إلى مصدر واحد وهو العالم العليم بكل هذه الأسرار فى فلك هذه المنظومة الكبرى .

٢ - وضحنا - فيما سبق - أن وميض العلم كامن فى كنه ما يحيط بنا من أشياء، وبذا يمكن بالمشاهدة أو التجربة أو التحليل معرفته والإلمام به، وما هو أكثر توجيهه واستغلاله وتكثيفه لمضاعفة فاعليته، إذ أنه كما بينا يأخذ من صفات الأشياء التى يكمن فيها ... ومن ثم فهو يقبل التحيز والامتلاك والاستغلال. **إلا أن ما يخضع للملكية أو الاستغلال فى الحقيقة ، هو فقط دور الجانب الإنسانى منه وهو الاكتشاف أو الاختراع ...، أما الجانب الآخر الكامن فى الشىء فهو رابض فيه سواء تم اكتشافه أم لا ، ومن ثم فهو بالمنطق العلمى المجرد لا يخضع لقانون الأشياء ، وإنما هو من مصدر آخر فوق قانون الأشياء وطبيعتها لا يقبل التحيز أو الامتلاك أو الاستغلال ... أى من مصدر ليس كمثله شىء** ومن ثم فهو يعلو علو مصدره. **وهذا هو المصدر الحق الأولى بالعبادة، وإلا لو تعلق الإنسان باكتشافه يكون قد عبد ما صنعت يداه.**

٣ - وميض العلم كما بينا قد يكون ساطعا فتشاهده لتوه فى كنه الشىء ، وقد يكون باهتا يحتاج لتجارب ومعامل .... الخ، ولكنه فى النهاية يتحرك بتحرك الأشياء الكامن فيها عبر المكان والقدرة الإنسانية على تلقيها عبر الزمان ... أى أن ما يمكن اكتشافه من نظريات علمية تحكم موجودات أعماق البحار ليست بالضرورة هى ما تحكم الأفلاك فى السماء، كما أن ما تم اكتشافه فى عصر من العصور قد

لا يكون هو ذات ما يكتشف فى عصر آخر لاختلاف القدرات الإنسانية، وهذه ضرورة لاستمرار حركة الحياة.

أما مصدر العلم وهو العالم الذى ليس كمثله شىء، فهو بالتأكيد فوق قانون حركة الأشياء لأنه يحركها ولا يتحرك بها، ومن ثم فإن له مقوماته الذاتية التى ينفرد بها وهى الدوام والثبات. وبالتالى فى مجال العبادة على المدرك للمنطق العلمى أن يتعلق بالدائم الذى يغير ولا يتغير.

٤ - نلاحظ دائما أنه ما من معلومة علمية أدركها الإنسان إلا وتبعتها معلومة أخرى أكثر منها عمقا، وهذا هو ما نطلق عليه المنطق العلمى فى التحليل ، فكل مسلمة تؤدى إلى مسلمة ابعد منها عمقا، ونحن نطلق على كل معلومة مجازا ومضة علمية طالما كان هناك تلاحق بين المعلومات ... لأن الومضات - من شأنها حكم الترددات حكم الذبذبات - أن تتلاحق قربا من مصدرها .

وعلى ذلك فومضات العلم مهما تعددت وانتشرت ، لابد - بالمنطق العلمى - أن تنتهى فى تلاحقها وتموجها إلى حيث مصدر إشعاعها وهو العالم الذى وسع علمه كل شىء، فكيف بعد - بالمنطق العلمى المجرد - أن نشرك فى عبادته قبس من وميض علمه !! اللهم إلا إذا كنا قد خلطنا بين الفرض والنتيجة، وهو ما يرفضه منطق التحليل العلمى السليم.

ثانيا - تحجيم الذات

خلصنا إلى أن وميض العلم كشعاع الشمس لا يدرك بذاته (إذ أن شعاع الشمس لا يرى إلا إذا انعكس على شىء من الأشياء). ومن ثم

فالعلم لا يدرك مجردا عن البحث والتنقيب فيما يحيط بالإنسان من الأشياء، وكلما ازداد الإنسان بحثا وتنقيبا وتحليلا للأشياء كلما ازداد إدراكه، ودخل إلى دائرة من العلم تتلوها دوائر أكثر عمقاً - بمزيد من البحث والتنقيب - فى حركة تموجية متلاحقة. حتى يجد الإنسان نفسه بعد فترة قد توغل فى خضم من الأمواج العلمية العاتية هو دونها بكثير .. فطاقاته مهما بلغت لا تقوى على التوغل أو حتى الصمود فى مواجهة هذا التدفق الرهيب من ومضات العلم التى تتجلى فى كنه بما يحيط به من أشياء.

ولذا كان على الإنسان - بالمنطق العلمى - إزاء ضعف قدراته أن يسلم للعالم القادر على إصدار هذه الومضات إيمانا واحتسابا :

وإلا لو تعلق بهذه الومضات وسايرها مداها واغتر بذاته وسايرها هواها لكان هلاكه مؤكدا. وهو ما يمكن أن ينتظر البشرية فى غدها من دمار وهلاك نووى وذرى ... لأنه سيكون قد تجاوز بذاته التى اغتر بها، دائرة المقدر له من طاقات العلم .

أما لو التزم الإنسان حدود طاقاته ، وأدرك ضعف قدراته وحجم ذاته لقاده وميض العلم إلى ما هو أكثر من مجرد استخدامه أفقيا فى تفجير نووى أو ذرى أو الصعود للقمر أو غيره من الكواكب ... **إلى استخدامه رأسيا فى داخل أعماق نفسه للوصول إلى إله هذا الوميض وخالقه، وحينئذ يدرك الإنسان مصداقية تعلقه بالأصل.**

هذه المصداقية التى تضفى على الإنسان بريقها الخلاب فيما يستشعره من صور الجمال فى الأشياء : فهو حين يرى الفراشة

ويتفحصها، أو الزهرة ويستنشق عبيرها، أو الثمرة ويتذوق طعمها ... الخ ، فإنه ينعكس على ذاته من الجمال ما أودعه خالق هذه الأشياء من إبداع الجمال في الخلق ... ولا يجد تعبيرا عما يجول بوجدانه غير سبحان الخالق المبدع.

هذه المصداقية التي تفيض على الإنسان من صور الرحمة والحنان ما يطمئن له فؤاده، وذلك حين يلمس ما أودعه خالق الأشياء من أسرار الرحمة في مملكة الحيوان والطير :

فالأمومة بكل خصائصها من عطف ورعاية وإنكار للذات هي ذاتها التي تحكم كل فصائل الحيوان والطير مهما اختلفت الأنواع أو تعددت ... **ألا يوحي ذلك بأن من أودعها تلك القلوب الغلف هو إله واحد رحيم وسع علمه مستقرها ومنتهاها !!**

هذه المصداقية التي تهلع لها الذات الإنسانية حين ترى في كل يوم، بل في كل لحظة من صور : الحياة والموت، النوم واليقظة، الأحلام والحقيقة، الظاهر والباطن ... حتى نفس الإنسان التي بين جنبيه، ثم لا يجد لها تفسيرا ولا تبديلا ... وإنما علمها الحقيقي عند عالمها المتعال... وهنا تفنى الذات الإنسانية في ملكوت العالم بالأسرار.

هذه المصداقية التي تحول بين الإنسان والعبث في معطيات الخلق.. ففي النار الدفء والنور وفيها الحريق والدمار، وفي الماء الارتواء والحياة وفيه الغرق والموت، وفي الأرض الزرع والنبت وفيها القحل والدفن ... الخ . **ألا يوحي ذلك بأن رب الأشياء قد أودعها الأضداد** .... وللإنسان من بعد أن يكون محاذرا وإلا أدركه الفناء.

هذه المصداقية تحدد حجم الإنسان حين يرى ذاته داخل هذا الملكوت الذى يعيشه من نجوم وشموس وكواكب وأرضين، وجبال وبحار وأنهار كل فى قرار مكين، وما كان من الأولين والآخرين ... الخ ... **فأين هو من الذكر ؟ ... إلا كالهشيم !! .**

هذه المصداقية التى توجت الإنسان تاج الخلافة فى الأرض، حيث سخرت له الأرض بما عليها من بحار وهواء وحيوان ونبات وزرع، فكان عزيزا بما استخلف فيه قويا بما أوتى من العلم.

فها هو الإنسان المتذوق للجمال المفعم بالرحمة، المحاذر فى استخدام العلم، الذى ليس له من حجم الوجود إلا العدم، والذى له من قيمة الحياة حد الخلافة فى الأرض ... ذلك لأنه تعلق بعالم الأسرار، ففهم الحقيقة وأدركها وأدرك أن فوق كل ذى علم عليم.

ثالثا - ابتغاء الأبدية :

بينا أن من آمن بالعلم وقدسه، وبالفرد وقدرته، قد انخرط فى الوجودية بكل صورها المادية، وآمالها فى الرفاهية الاقتصادية ... الخ، وذلك لسبب بسيط وهو أنه التزم بالأسلوب العلمى فى التفكير ... ذلك الأسلوب الذى يتعامل فقط مع المحسوسات من الأشياء . ومن ثم ما وراء الوجود ليس فى الحسبان لأنه خارج نطاق آليات العلم.

أما تلك النظرة المتعدية التى تجاوز بها الفكر الدينى تقديس وميض العلم ... إلى حيث مصدره ... وهو العالم .. الذى تنعقد له الألوهية والتقديس. فإن هذا يفرض مغايرة فى النتائج خاصة إذا ما

التزمنا بالأسلوب العلمى فى التفكير .. فقط بما يتناسب والمدى الفسيح الذى امتد إليه إطار الفكر الدينى.

فالعالم الإله الذى أحاط علمه كل شىء، لا يخفى عليه بداهة أن النهج العلمى المصاحب للفطرة يقوم على مبدأ التخطيط الذى يربط بين المتاح من الفروض والمستهدف من النتائج.

وتختلف صور التخطيط ومداه، باختلاف القائم به، وإن ظل جوهره قائما فى عملية الربط هذه.

فها هو المزارع الذى يسوى الأرض ويسقى الزرع شهورا طويلة أملا فى محصول وفير قد يتحقق بعد عام، وهاهو التاجر الذى يشترى بالرخص أملا فى البيع بالغلاء فيحقق ربحا فى نهاية سنته المالية، وهاهى ربة البيت التى تدبر لإنفاقها فى حدود مواردها لتغطى حياتها خلال شهر، وهاهو العامل والموظف ... الخ. وهاهى الدولة التى تخطط لاقتصادياتها أملا فى التقدم بعد عشر سنوات، وهاهى الدول العظمى التى يتسع مدى التخطيط عندها ليشمل من هم داخل سلطانها أملا فى الرفاهية عند نهاية هذا القرن ... وهكذا.

وهكذا نجد أن هناك من يخطط ليومه، ومن يخطط لشهر من العام، وذلك الذى يخطط لعام كامل، وهناك من يخطط لعشرات الأعوام، بالإضافة إلى من يخطط لقرن من الزمان، وهناك من يخطط لآلاف من السنين كبرامج الفضاء التى تهدف الوصول إلى الكواكب المنتشرة فى الكون الفسيح ... وهكذا.

وإذا كان هذا هو شأن البشر الذى تعلم، فما بالنا بالإله المعلم ... هل نضن عليه انتهاج التخطيط فى الربط بين المتاح والمستهدف من النتائج ... وهل نستكثر عليه أن يكون تخطيطه لما هو بعد عالم الوجود والشهادة أى لبلايين البلايين من السنين.

لا جدال أن الإله المعلم الذى تعالت قدرته قد خلق هذا الوجود الفسيح – الذى نعجز تماما عن إدراك مداه من حيث الاتساع أو عمقه من حيث الزمان والذى يعايشه كل منا لفترة وجيزة من الزمان ويرحل عنه– لهدف يرجوه.

وبديهى أن هدف الوجود لا يتحقق فى الوجود ذاته بكل مقوماته من زمان ومكان، وإلا نكون قد خلطنا بين الفرض والنتيجة ... المتاح والمستهدف. وإنما يتحقق الهدف من الوجود – حسب أصول وقواعد التخطيط العلمى – فى الغاية التى ينشدها من الوجود وهى غاية تمتد بداهة إلى ما بعد الوجود ... حيث يكون فيها الوجود أحد فروضها أو على الأكثر أحد مراحلها.

ومعلوم انه عند تحقق الغاية النهائية من التخطيط يكون الاستقرار والثبات وتتوقف آليات حركة التخطيط. ومن ثم فإن الغاية التى تمتد إلى ما بعد عالم الوجود، لابد أن تلتقى بعالم يناسبها : يكون فيه الاستقرار والثبات، تتوقف فيه آليات حركة التخطيط من عناء وعمل وجهد، يخرج عن قوانين عالم الوجود التى تكبله بقوانين الزمان والمكان والجاذبية والضوء والحرارة .... الخ مما يحكم الأشياء ... **أى تلتقى بعالم يتسم بالديمومة والأبدية والمستهدف من الغايات** ... وهو ما يجب أن تتعلق به الآمال من الحياة فى عالم الوجود.

وهكذا نصل إلى أن التمسك بوميض العلم وتأليهه (الفكر العقلانى) يجرنا إلى الفناء في الوجود ، إما التعلق بذات العالم وتأليهه (الفكر الدينى) فإنه يسمو بنا فوق عالم الوجود إلى حيث عالم الديمومة والأبدية.

قال محدثى : سيقولون هناك – وأنت تعرفهم – ما دلك على هذا التحليل العلمى المنطقى – إلا اجتهاد أستاذك، **فهل لى أن ادعمه بكتابنا الهادى ..؟**

قلت : كتابنا ناطق فى كل آياته بالخسران لمن اتخذ من العلم إلهه، فاغتر بنفسه وقدس ذاته، وهو ذات الفكر المعاصر الذى يقول به دعاة العقلانية من قومك هناك ....

فحالهم مثل حال بعض من الأولين تمكنوا من العلم وصار لهم ديدنا فاغتروا به وألهوه ... وأنظر فى الكتاب – مثلا لذلك – **قارون** [١] إذ جمع مالا وعدده حتى أن مفاتيح خزائنه كانت تنوء عن حملها العصبة من ذوى القوة، وعندما سألوه أن اشكر لله نعمته ... قال "*إنما أوتيتُهُ على عِلم عندى*" [٢] فخسف ربك به الأرض [٣] وصار عبرة لمن أتخذ من العلم إله فقدس ذاته.

---

[١] " إنَّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة " سورة القصص ، آية ٧٦.

[٢] سورة القصص ، آية ٧٨.

[٣] " فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين " سورة القصص ، آية ٨١.

ويا ليت قومك هناك بلغوا ما بلغ قارون من أسباب القوة والعزة والجاه – متمثلة فيما جمعه من مال -- إذ مازالوا عند الأعتاب فى طريق الرفاهية والوفرة .

وبشرهم أن علمهم أو بالأصح إلههم سيأتى عليهم يوما بالدمار الشامل ... يوم يفلت فيه الزمام وتأخذهم العزة بالإثم ويغتروا بقوتهم الذرية والنووية ... كما خسف ربك بقارون الأرض .

أما أهل الشرائع ، أهل الإيمان بالإله العليم الذى وسع علمه كل شىء ... فإن دعواهم فى الكتاب أن "*قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم*" [1] فهم ينظرون إلى العلم على أنه من عند الله "*عالم الغيب والشهادة*" [2] و انهم "*لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء*" [3] وإن علمه وسع السموات والأرض وأن ما أوتوه من علم الله لا يعدو إلا النذر اليسير [4] .

هؤلاء كلما أتاهم من علم ازدادوا إيمانا بالإله العالم العليم، وكلما اكتشفوا بالعلم أسرار الكون كلما ازدادوا شكرا لأنعمه.... ولذا فهم

---

[1] " سورة البقرة ، آية ٣٢. ، " وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون " سورة يوسف ، آية ٦٨.

[2] " عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال " سورة الرعد ، آية ٩. وأيضا " عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون " سورة المؤمنون ، آية ٩٢.... " ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم " سورة السجدة، آية ٦ .... " هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم " سورة الحشر ، آية ٢٢.

[3] سورة البقرة آية ٢٥٥.

[4] "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " سورة الإسراء ، آية ٨٥.

مطالبون بالتدبر في خلق اللـه [1] .... والإلـه العـالم العليم من قبل ذلك ومن بعد يعلمهم ما لم يكونوا يعلمون [2] .

وهؤلاء - بإيمانهم بالإلـه عـالم الغيب والشـهادة - تعدوا حـدود الحياة الدنيا حيث المتاع ، وامتد أفقهم إلى الحياة الأخرى حيث المسـتقر والمقام ... فإلههم إله واحد فى الدارين.

وهكذا يبين يـا صديقـى مـن خـلال اسـتعراضنا لقضيـة العلـم بيـن المنظور العقلانى والمنظور الدينى أن منطق العلم المجـرد كمـا يجـب أن يكون قد انتهى بنا إلى حيث مـا هـو مسـتقر فـى المنظـور الدينـى، وهـو احترام العلم وتأليه العـالم. وأن تأليـه العـالم يسـوقنا لحـد تجـاوز الحيـاة الدنيـا حيث المتـاع، ويمتـد بنـا صـوب الحيـاة الأخـرى حيـث المسـتقر والمقام.

ومن ثم تكون رحلتنـا تجـاه الأبديـة آمنـة مستقرة حيث أن إلهنـا واحد فى الدارين، وفى ذلك يقول الحق *"هو الله الذى لا إله إلا هـو عـالم* ***الغيب*** *والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو اللـه الـذى لا إلـه إلا هـو الملـك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيـز الجبـار المتكـبر سـبحان الا ه عمـا يشركون* هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم* [3] .

---

[1] " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السـماء كيـف رفعـت ، وإلى الجبـال كيـف نصبـت، وإلى الأرض كيف سطحت " سورة الغاشية ، آية من ١٧ - ٢٠.

[2] "اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم " سورة العلق آية ٣ - ٥ .

[3] سورة الحشر، آية ٢٢ - ٢٤.

القضيــة الثـانيــــة

كيفيــة خلــق الوجود والهدف منــه

الجلسة الأولــى : كيفيــة خلــق الوجـــود.

الجلسة الثانيــة : الهدف من خلق الوجـــود.

الجلسة الثالثـــة : الأثر المترتب على كيفية خلق الوجود.

عـرض وتقسيــم :

قضية خلـق الوجود مـن أهـم القضـايا التـى شـغلت الفكـر لسـنوات وسنوات ومازال يدور حولها البحث حتى وقتنا الحالى، ذلـك أنهـا تتوغـل فـى القدم إلـى تـاريخ يجهلـه الإنسـان ومـن ثـم يجهـل مـا دار فيـه علـى وجـه القطـع. ولـذا فإنهـا أبحـاث تـدور كلهـا فـى إطـار الظـن والتخميـن، ومن ثم كانت النظريات تلـو النظريـات إلـى أن كـانت النظريـة الأخـيرة، التـى حـاول أصحابهـا التدليـل عليهـا بالمشـاهدة عـن طريـق الأجهـزة المتطورة: ومفادها أن هذا الكون قد تكون نتيجة انفجـار هـائل ربمـا بيـن جزئيات جسم صغير تولـدت عنـه هـذه الكوكبـة التـى لا حصـر لهـا مـن الأفـلاك والنجـوم والكواكـب .... الـخ . وقـد أمكـن رصـد صـورة لهـذا الانفجـار الأول عـن طريـق التلسكوبات بعيـدة المـدى المعلقـة بالأقمـار الصناعية وهكذا .. الخ.

وهذا القول علـى فـرض صحتـه علميـا لا يحـل قضيـة كيفيـة خلـق الوجود وإنما فقط ينقلنا إلى قضية أخرى وهى كيفية حدوث هذا الانفجـار الأول، وإذا أمكن الوصول إلى كيفية حدوث الانفجار الأول فإننـا سـننتقل إلى قضية ثالثة وهى البحث فيمـا وراء مسببات هـذا الانفجـار .. وهكـذا ندور فى حلقة مفرغة.

وتبقى قضية خلـق الوجـود معلقـة بـلا إجابـة يقينيـة قاطعـة، طالمـا اقتصر البحث فيها على مجرد نظرة علمية محدودة، تعتمـد علـى تقديـس العلم باعتباره الإله الذى ينعقد عليه تفسير كل شىء حتى ولو كان ضـاربا فى القدم .. حتى ولو كان متعلقا بكيفية خلق هذا الوجود فى ذاك المـاضـى السحيق الذى لا قبل لنا به .

فى حين لو أخذنا العلم على أنه مجرد وميض يصل إلينا من منبعه الإلهى ليكشف لنا عن الظواهر أيا كانت -- عن طريق ما حولنا -- لأمكن الوصول إلى كيفية خلق هذا الوجود، بالرجوع إلى مجرد ما يلامس حياتنا من ظواهر أودعها خالقها سر خلق هذا الوجود وكيفيته، بلا حاجة إلى التوغل فى الماضى الذى لا نملكه ولا نحيط من علمه شيئا على وجه القطع واليقين.

وبعبارة أخرى فإن التعلق بالعلم باعتباره نهاية المطاف تقودنا آلياته فى معرفة كيفية خلق الوجود، إلى ضرورة الرجوع إلى مراحل هذا الخلق حتى نصل إلى بداية هذه المراحل. ونتكهن ونتصور كيف كانت ... وهو تصور أيا كانت أسانيده ينقصه الدليل القطعى، طالما لم يكن لنا وجود فى تلك المرحلة الغابرة، وبالتالى لن تكون هناك نظرية ثابتة مؤكدة.

أما النظر إلى ما وراء العلم إلى حيث مصدره وهو العالم فإنه يقودنا فى معرفة كيفية خلق الوجود إلى أسلوب العالم فى الخلق، وهو أسلوب جد يسير على من يتدبر فى الخلق حيث أن هذا الأسلوب قد أودعه العالم كل مكونات هذا الخلق منذ نشأته وحتى تمام فنائه.

وكل المطلوب هو استنباط هذا الأسلوب والإلمام به والتعرف عليه، حتى نجد قضية كيفية الخلق وقد حسمت على وجه التأكيد واليقين بلا حاجة إلى الرجوع إلى الماضى السحيق.

كما أن التعرف على الغاية أو الهدف من الخلق، إنما هو بحث يمتد بدوره إلى حيث النظر إلى الخطة التى وضعها الخالق لما بعد

مرحلة الوجود، وهو أمر يدعونا للاتجاه بآليات العلم المحدودة صوب منبعها وهو العالم للتعرف على أبعاد هذه الخطة الإلهية ومقاصد الخالق منها.

وهكذا نرى أن أسلوب الخالق فى الخلق يقودنا إلى معرفة كيفية الخلق.

كما أن الإلمام بأبعاد الخطة الإلهية للخلق يقودنا إلى معرفة الغاية من الخلق.

وإذا ما تعرفنا على كيفية الخلق والغاية منه كان لابد من معرفة الأثر المترتب على ذلك حتى يكون تحليلنا هادفا.

وتيسيرا لنظر هذه القضية الكبرى المتعلقة بكيفية الخلق وهدفه، فإننا نطرحها فى جلسات ثلاثة: نخصص الأولى لمعرفة كيفية الخلق والثانية للهدف منه والثالثة لمعرفة الأثر المترتب على كيفية خلق الوجود.

وذلك على النحو التالى :

الجلسة الأولى : كيفية خلق الوجود.

الجلسة الثانية : الهدف من خلق الوجود.

الجلسة الثالثة : الأثر المترتب على كيفية خلق الوجود.

الجلســـة الأولـــى

كيفيــة الخلــق

استهل محدثى وقائع هذه الجلسة بقوله : لا داعى يا سيدى لتناول ما عرضه العلماء عن كيفية الخلق ومراحله، ولا ما تناولته الأديان أيضا عن مراحل هذا التكوين، فهذه وتلك يمكن الرجوع إليها من مصادرها، **وإنما إلى فقط بالجديد الذى أشرت إليه بقولك أن أسلوب الخالق فى الخلق هو الذى قادك إلى معرفة كيفية الخلق.**

قلت : وفرت على الكثير من الجهد ، **واليك ما عندى عن أسلوب الخالق الذى قادنى إلى معرفة كيفية الخلق.**

باختصار شديد يمكن إرجاع الكيفية التى خلق الخالق بها الخلق والوجود إلى القانون ....

قاطعنى محدثى : تحيز ما تقول عن القانون ؟ أم أن ما تقول عنه **يقين ؟**

قلت : بل هو عين اليقين ، وعودة معى إلى قاعة الدرس حيث رددت عليكم أن القانون فى ماهيته هو " مجموعة قواعد عامة مجردة منتظم العمل بها ولا يجوز مخالفتها وإلا تعرض المخالف للجزاء ".

وأن كلمة القانون قد تنصرف للنظام القانونى كله، وقد تنصرف لأية قاعدة من قواعده على انفراد ... وأن أهم خصائص القانون هو

الانتظام والاضطراد فى العمل به، بمعنى أنه يطبق بانتظام على كل حالة يتوافر فيها شروط انطباقه ....

وأن القانون إما أن تكون قواعده تقريرية وإما أن تكون تقويمية:

والقواعد التقريرية : مقصود بها أن القاعدة تطبق على كل حالة تتوافر فيها شروط انطباقها فى انتظام واضطراد بالغ الدقة بحيث لا نملك إلا تقنين هذه القاعدة كتقرير لواقع لاحظناه بالمشاهدة والتجربة، ومثل ذلك أن ما من شيء تتركه معلقا وإلا ويسقط إلى الأرض، ومن ثم كان تقرير هذه الظاهرة فى قانون أطلقنا عليه قانون الجاذبية. ويصدق هذا على أكبر الأشياء، كالقوانين التى تحكم العلاقة بين المجرات فى الكون وأصغر الأشياء كالقوانين التى تحكم الذرة والنواة ... الخ .

والقواعد التقويمية : هى تلك القواعد التى تبغى بالقانون تقويم واقع السلوك الإنسانى إلى حيث نريد ونبغى، ومن ذلك قاعدة الأخذ بالثأر كظاهرة منتشرة فى صعيد مصر يضطرد العمل بها، إذ لا يمكن أن نقررها فى إطار من قواعد قانونية تقريرية طالما أنها واقع، وإنما الصحيح أن نصدر من قواعد القانون ما يقوم هذه الظاهرة ويقتلعها من جذورها ومن ثم نعاقب مرتكبها بأقصى الجزاء وهو الأشغال الشاقة مثلا ..حتى نقوم هذا الواقع . ومن ثم نضع لها قاعدة تقويمية.

والمستقر عليه أن القواعد التقريرية هى التى تحكم الأشياء بينما القواعد التقويمية هى التى تحكم السلوك الإنسانى .

وفيما يلى تفصيل ما أجملنا :

أولا
القواعـد التقريريـة
هى التى تحكم الأشياء

وبيان ذلك أن الأشياء ما هى إلا حاصل تفاعل عدد من هذه القوانين :

فالحذاء مثلا حاصل تفاعل ذلك القانون الذى يحكم الجلود بعد دبغها الأمر الذى يعطيها مرونة وقوة احتمال، والخيوط بعد غزلها الأمر الذى يعطيها متانة فى الربط والشد .... الخ ، وبحيث يمكن من خلال استعمال هذه المواد التى يحكم كل منها قانونه، إنتاج ملايين من هذه السلعة .. تتماثل كل منها تماما فى الاستخدام طالما كانت على نفس النمط من الإنتاج.

والسيارة مثلا هى نتيجة تفاعل عدد أكثر من هذه القوانين: القانون الذى يحكم العجلة التى تتخذ شكل الدائرة ليمكنها من الدوران إلى مالا نهاية ، واستخدام الكاوتشوك فى غطاء غلافها الخارجى للاستفادة من القانون الذى يحكم الكاوتشوك إذا ما صنع على نمط معين فى التصدى للصدمات. والقانون الذى يحكم اشتعال الطاقة وقدرتها على التحول إلى قوة محركة إذا صنعت على نمط معين ووفق مقاييس وحدود محسوبة. والقانون الذى يحكم توليد الطاقة الكهربائية نتيجة الاحتكاك على نمط معين.... والقانون الذى يحكم الزجاج إذا ما صنع بطريقة معينة ... وقانون .. وقانون ..... الخ.

فكأن السيارة نتاج تفاعل ألف من القوانين المتداخلة والمنظمة

للحديد والزجاج والصلب والبترول والجلود ... كل ما هنالك استعمالها على نمط محسوب بحساب غاية فى الدقة وبتركيبة قمة فى الإتقان ... وفى النهاية نلتقى بسيارة يمكن إنتاج الملايين منها إذا ما تماثلت فى الصنع. والتى يمكن أن يتعطل استخدامها تماما إذا ما أصاب العطل أحد أجزائها ولو كان يسيرا كانسداد فى مسار البنزين أو قطع فى سلك كهرباء وهكذا.

وجسم الإنسان نجده نتيجة تفاعل وتضافر مئات الآلاف من القوانين : فذلك القانون الذى يحكم الخلية وأنواعها ووظيفة كل منهاء، وذلك القانون يحكم جهازه الهضمى وكيف يتم هضم الطعام خلال مساره داخل الجسم الإنسانى، وذلك القانون الذى يحكم الجهاز التنفسى، وكذلك العصبى والتناسلى ... ناهيك عن القانون الذى يحكم أعضاء الجسم من قلب وكبد وبنكرياس .... الخ.

وكلها قوانين قمة فى التماثل والتشابه بين كل أجسام الجنس البشرى .. بحيث أنه إذا اختل أحد هذه القوانين فى مصر بالنسبة لإنسان مصرى (لخطأ فى التشخيص) فإنه يمكن علاجه فى الصين مثلا إذا ما أمكن التعرف على هذا الخطأ هناك.

وما يقال عن جسم الإنسان يمكن أن يقال عن جسم الحيوان بكل أنواعه، والطيور بكل أشكالها، والنبات بكل صنوفه .... فكل منها نتيجة تفاعل وتضافر الملايين من القوانين التى تنتهى فى النهاية إلى هذه التركيبة التى يتكون منها هذا الحيوان أو ذاك الطير أو النبات، وكما قلنا هى قوانين قمة فى التماثل بالنسبة لكل نوع منها بحيث يمكن التعرف على هذا النوع فى أى بقعه من بقاع العالم.

والإلمام بهذه القوانين ومداها يحتاج إلى دراسات متخصصة قد تمتد إلى سبع أو عشرات سنوات فى كلية الطب البشرى أو البيطرى أو كليات العلوم والزراعة .... الخ ، ومع ذلك فهناك دائما الجديد من الخبايا التى لم نصل بعد إلى الكشف عنها.

وهناك القوانين التى تحكم أصغر الأشياء كالذرة والنواة وقطرة الماء والخلية .... الخ، **والتى من تفاعلها وتضافرها تتكون أكبر الأشياء** من بحار ومحيطات وجبال وأنهار وهواء .... وما هو أكثر الكرة الأرضية وما يتبعها من أقمار ، ثم فى النهاية النجوم والكواكب والمجرات وما قد يتكشف عنه المستقبل من جديد فى هذا الكون الفسيح الذى لا يعلم مداه إلا خالقه.

والمحصلة النهائية : أن الأشياء بكل أنواعها وصنوفها من الذرة وحتى المجرة تحكمها قوانين تقريرية - وإن اتخذت مسميات أخرى كخصائص أو وظائف .... الخ، إذ خصائص الذرة مثلا ما هى إلا قوانينها، ووظائف الكبد مثلا ما هى إلا قوانين.... وهكذا - **فقط كشفنا عنها وقررناها نظرا لما تتميز به من ثبات وانتظام واضطراد فى التطبيق يصل إلى حد الظاهرة أو القاعدة الثابتة المستقرة التى لا يجوز مخالفتها .. وإلا وقع الجزاء.**

ويلاحظ أن الجزاء هنا كامن فى الشىء نفسه، فمن استخف بأصغر الأشياء وهى الذرة أو النواة وأخل من تركيبتها المقررة أو فتتها تعرض لانفجار قد يودى بقارة بكاملها [١] .

---

[١] ولعل انفجار تشر نوبل النووى مازالت آثاره تعانى منها البشرية حتى الآن.

ومن قطع له وريدا من جسمه أو منع من التنفس لدقائق ... الخ، كانت نهاية هذا الجسم.

ناهيك عما يصيب الكون كله من الدمار الشامل إذا ما اختل قانون التوازن بين الأفلاك التى تسير فيها النجوم والكواكب .... وهكذا.

وتمشيا مع هذه الحقيقة المؤكدة التى لا يجوز معها وقف فاعلية قانون من القوانين، كانت الدراسات لمعالجة آثار قانون باكتشاف قانون آخر مضاد. فقد تم اكتشاف قانون الطفو مثلا لمقابلة قانون الجاذبية، وبالتالى أمكن للسفن المصنوعة من الخشب والمجوفة من الداخل أن تمخر عباب البحار والمحيطات والأنهار ... وهكذا.

ورغم وجود قانون الجاذبية، أمكن لسفن الفضاء والصواريخ أن تتغلب على قانون الجاذبية باستخدام أنواع من الطاقة تدفع بها إلى خارج نطاق الجاذبية ... وهكذا.

والملاحظ أن هذه القوانين التى تحكم الأشياء قد تكون مخالفة لمنطق العقل البشرى، ومع ذلك فإنه يقرها كواقع عملى لا يملك له إلا مجرد التفسير، وقد يصل إلى هذا التفسير وقد لا يصل.

ومن ذلك مثلا دفن حبة من تمر فى باطن الأرض، فإذا بها نبت يرتفع عن باطنها إلى عنان السماء فى صورة نخلة باسقة. فأين هو المنطق العقلى الذى يسمح لذلك الدفين فى الأرض أن يكون عملاقا فى السماء .... اللهم إلا إذا سلمنا بأن هذا واقع قانون النبات الذى استقر منذ بدء الخلق على هذا النمط فأخذ به العقل كمسلمة وقررها.

والواقع أن هذه القوانين – التى تحكم الأشياء – متكاملة رغم تفاوتها من شىء لآخر، بحيث يصل هذا التكامل فى النهاية إلى موسوعة

شاملة قمة فى الإتقان تنطق بقدرة واضعها على الخلق ، وتشهد بوحدانيته فى إطار هذا التناسق البديع، والتوازن العجيب بين مكونات الأشياء وخصائص الأنواع ووحدة الأجناس، والتقاء الكل فى موسوعة واحدة هى أساس وحدة الكون.

قال محدثى : أيقظتنى على حقيقة كانت غائبة عنى، وهى إن كل شئ من مفردات هذا الكون قد خلق فعلا بالقانون، **ولكن ما يقف عنه إدراكى بحق هو كيفية خلق الكون نفسه كبنيان متكامل إذ يتطلب ذلك معرفة مدى طلاقة القدرة التى عليها الإله الخالق ؟**

قلت : دعنى أهمس فى أذنك حتى لا يصيبها الصمم، أن الإله الذى أحدثك عنه ، يعتبر هذا الكون الذى يحيط بك ويطويك بأزمانه وسماواته وأرضينه، ذرة بالنسبة لفسيح ملكوته ... تماما كما ترى أنت ذرة من غبار يكاد يظهرها - وهى تسبح فى الجو - شعاع من الشمس **كل ما هنالك :**

أنك قد ترى هذه الذرة وقد لا تراها بنظرك المجرد لفرط ضآلتها.. وإن رأيتها وجال بفكرك أن تتفحصها بأحدث ما وصل إليه علمك من أجهزة حديثة ستدرك أن بمركزها نواة وأنها تنقسم إلى جزيئ سالب وآخر موجب ينجذبا إلى بعضهما بطاقة يستحيل معها فصلهما ... الخ، وأقصى ما يصل إليه مرادك أن تكشف عنها وتكشف عسى أن تسخرها لخدمة أغراضك، ولكن لا يصل خيالك المجنون - بحال من الأحوال - لأن تتساءل عن كيفية خلقها ولماذا كان بها جزيئ ونواة .... الخ. إذ أن هذه وتلك بعيدة تماما عن مجال الفكر الإنسانى لأنها فوق إدراكه مهما بلغ. ومن ثم ليس عليه إلا أن يسلم بأن هذه الذرة التى

عايشها ملايين السنيين هكذا وجدت وأن هذا خلقها، ويكفيه فقط أنه اكتشف بعض أسرارها على مر الأزمان.

أما الإله (الذى أحدثك عنه) فعنده هذه الذرة فى ميزان الخلق قد تعدل هذا الكون الفسيح الذى يحيط بك فيطبق على فكرك، فهو القائل *" وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين "* [1]، وأيضا *" لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين* [2]، وكذلك قوله *" يا بنى إنها أن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأتى بها الله إن الله لطيف خبير "* [3] .

ومن ثم فالإله الذى خلق الذرة وعلم مستقرها ومنتهاها، قد وضع لها أمرها أو بالأصح قانونها تماما كما وضع لهذا الكون الفسيح أمره أو قانونه، فكلاهما : الذرة والكون يجمعهما انهما من الأشياء التى تحكمها نفس القواعد التقريرية التى مصدرها الأمر الإلهى.

وبالتالى إن كنت لا تبحث عن كيفية خلق الذرة وإنما يقتصر بحثك على اكتشاف أسرارها، فأولى بك ألا تبحث فى كيفية خلق الوجود، وإنما يكفى أن تتدبر فيه وتكتشف من أسراره، وأن تسلم بأن الذرة والكون من حيث كيفية الخلق يحكمهما نفس القواعد التقريرية التى مصدرها الأمر الإلهى حيث أنهما يتعادلنا فى ميزان الخلق عند مليك مقتدر.

---

[1] سورة يونس ، آية ٦١.

[2] سورة سبأ ، آية ٣.

[3] سورة لقمان ، آية ١٦.

نعم مليك مقتدر- *إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون*- قالها للذرة .. كونى ذرة فكانت، وقالها للكون كن كونا فكان .... وقضى الأمر الذى كانا فيه يختلفان.

ثانــيا
القواعــد التقويميــة
هى التى تحكم السلوك الإنسانى

انفرد الإنسان عن باقى مخلوقات الله بالعقل والإرادة، ومن ثم كـان لابد من وضع قواعد تنظم سلوكه سواء فـى علاقتـه بخالقـه أو بنفسـه أو بغيره من باقى البشر ، هذه القواعد تبين ما هـو حـق لـه فيتبعـه ومـا هـو التزام عليه فينتهى عنه.

ولكن كيف نصل إلى هذه القواعد ؟

١ - وصلنا إلى هذه القواعد **فـى إطـار تنظيمنـا لعلاقـة الفـرد بـالآخرين** بالقدر اللازم لحماية المجتمع عن طريق القوانين الوضعية [(١)]، التى يصدرها المشرع فـى كل بلـد مـن بلـدان العـالم علـى حدة بحسـب ظروفه الخاصة، ومن ثم فهى تختلف من مكان إلى آخر، كمـا أنـها تختلف فى المكان الواحد باختلاف الزمان.

---

(١) وقد تكفل المشرع الوضعى بوضع هذه القواعد العامة التى تحكم السلوك الإنسـانى فى إطـار مجموعـة من القوانين بعضها ينظم معاملاته المدنية كالقانون المدنى وبعضها ينظم نشاطه التجارى كالقانون التجـارى وبعضها ينظم ما يتعلق بكل ما هو جريمة والعقاب عليها ويطلق عليه القانون الجنائى .... وفوق ذلك يضع قانونا قميا يتعلق بحقوق الإنسان وحرياته ويسمى بالقانون الدستور .... وهكذا.

٢ - **أما عن علاقة الفرد بنفسه** (كيف خلقت وأين مستقرها ومنتهاها، وما يدور داخلها وما هو مطلوب منها .... الخ)، **وعلاقته بربه** (الإيمان بوحدانيته، والرضا بقضائه وقدره، والتسليم بنعيمه وعذابه فى الآخرة .. الخ) فيستحيل على المشرع الوطنى إدراكها، **وإنما هى تصدر من خلال قواعد كلية مسطرة فى لوح محفوظ لا يعلم كنهها إلا خالق الوجود وما قبله وما بعده. وليس من سبيل لإدراكها بعقل بشرى أيا كان** ، (وإلا كان مثله كمن أراد البحث عن خبايا قارة بكاملها بعود من ثقاب اشتعل ليدركه ريح عاصف أتى على نوره وجعله رمادا فى لحظة من الزمن).

ولكن إن كان ليس لليقين من سبيل لإدراك هذه القواعد الكلية فلا أقل من الأخذ بالظن فهو اجتهاد فى حدود طاقات العقل البشرى، ومن ثم فإن نسبته لمن قال به، ولا جناح عليه إن أخطأ ... وشفاعته أن ابن آدم خطاء.

وهكذا - بالاجتهاد البشرى وبالقياس على ما وصل إليه العلم الحديث فى التخطيط والتشريع - **يمكن القول أن هناك خطة إلهية شاملة تناولت الوجود وما قبله وما بعده فى إطار تنظيم شامل وإتقان بديع أحكمت حلقاته وتوالت أسبابه ، تمهيدا لبلوغ نتائجه.**

ولما كان الإنسان أحد خلق الله الذى ميزه الله بالعقل والإرادة ، فإن له نصيبا فى هذه الخطة الإلهية الكبرى بقدر حجمه وأهميته عند خالقه. **وبالتالى له بالقطع ما يخصه من هذه القواعد الكلية فى حسابات الخالق الأعظم.**

وهذه القواعد الكلية تصل للإنسان تباعا بتوالى مراحل الخطة التى يعتبر الوجود أحد حلقاتها، وبالقدر الذى يناسب المرحلة وطبيعتها .... والأهم من ذلك كله بالطريقة التى يستسيغها العقل البشرى فى مرحلة الوجود التى يعيشها، والتى جبل فيها على أن يكون أكثر شىء جدلا.

وكان أفضل الطرق أن تتنزل هذه الأحكام الكلية، فى صورة وحى إلهى على قلب بشر، ينقلها إلى بنى جنسه فيلقنها إياهم نصا ويطبقها لهم عملا .. **وتلك هى القواعد التقويمية التى يبغى بها الخالق الوصول إلى مراده سواء فى علاقة الفرد بربه أو بنفسه أو بالآخرين،** ويترك للإنسان صلاحية الاختيار - التى وهبها الخالق إياه - ليهتدى بهذه الأحكام ويتمسك بها أو ينكرها ويبتعد عنها.

وكل ذلك مقصود فى قدر الخالق ، وإلا كان قد بث هذه الأحكام فى كنه الإنسان : بحيث صارت مسلكه وهداه أو فرضها عليه بقوة من لدنه بحيث لا يملك الإنسان إلا الطاعة والامتثال (شأن القواعد التقريرية المفروضة التى تحكم الأشياء) .

وهذه القواعد المنزلة هى تلك الرسالات التى تتابعت على الأنبياء والرسل، بحيث بلغ كل منهم ما شاء الخالق أن يصل منها إلى جموع من البشر، إلى أن كانت الرسالة الخاتمة التى تناولت الأحكام جميعها لتصل إلى كافة البشر.

وهكذا نجد أن الأديان وما تحمله من رسالات عن الخالق تجد مكانها داخل الموسوعة الإلهية عن الأحكام الكلية التى تنظم

السلوك الإنسانى فى الخطة الإلهية الشاملة التى يعتبر الوجود أحد مراحلها.

وبذا تكتمل دائرة القانون بشقية من قواعد تقريرية تحكم الأشياء والموجودات، وقواعد تقويمية تحكم السلوك الإنسانى، وذلك فيما يتعلق بكيفية خلق الوجود.

قاطعنى محدثى : وهل لى فى انعطافه عن النهج الذى يدور فى إطاره النقاش، **وأسألك ما دليلك على ذلك من الأديان ؟**

قلت : هناك الكثير ولكنى اكتفى بما جاء فى كتابنا الهادى فى أواخر سورة القمر .... " *إن كل شيء خلقناه بقدر، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر، ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر وكل شيء فعلوه فى الزبر، وكل صغير وكبير مستطر، إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر* " .

أليس فى الآية التى تقول " ***إن كل شيء خلقناه بقدر*** " إجابة على سؤال مفاده : **كيف تم خلق الأشياء ؟**

والأشياء هنا تنصرف إلى كل الموجودات كبيرها وصغيرها، من أكبر المجرات فى الكون إلى أصغر الذرات فى الأرض. فإن جميعها قد تم خلقها بقدر، أى بحساب قمة فى الدقة أى بانتظام بالغ فى الإتقان، أى باضطراد متناه فى التقدير .... أى بقانون ثابت مستقر مضطرد العمل به لا نملك إلا تقريره كقانون يحكم الأشياء . ومن هنا كانت القواعد القانونية التقريرية التى تحكم الأشياء، كل الأشياء بما فيها الكون نفسه.

" ***وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر*** " أليس فيه إجابة على سؤال مفاده ، **ولكن كيف لك يارب أن تحصى كل شىء قانونه** : والأشياء فى الأرض والسماء من الكثرة والتعدد والتنوع بحيث لا يمكن حصرها أو عدها ؟

وجاءت الإجابة بالغة فى الإيجاز ولكنها مفعمة بالقدرة .... لقد تم ذلك بالأمر الإلهى .... " ***وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر*** " أى أن هذا قد تم بالأمر الإلهى الذى يستقر بين الكاف والنون .... وتلك هى القدرة الإلهية التى تفوق كل طاقات التصور البشرى.

ثم كانت النقلة فى الخطاب إلى البشر حين قال " ***ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر، وكل شىء فعلوه فى الزبر، وكل صغير وكبير مستطر إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر*** " أليس فى ذلك بيان للإنسان وتذكرة له بأن من كان يشايعه بالأمس قد هلك عنه اليوم، وكل ما فعله فى كتاب معلوم، وأن ما من صغير فعله أو كبير إلا مدون عليه.

وبالتالى يكون استكمال البيان بمنطق العقل، أن على الإنسان الالتزام بالنهج القويم الذى دله عليه الخالق ... إذ أن المتقين الذين راعوه حق رعايته – فى انتهاج هذه القواعد – لهم مقامهم المتميز عند رب القدرة الذى وصف ذاته فى نهاية الآية بالمليك المقتدر لتساير بدايتها إن كل شىء خلقناه بقدر. **ألا يدل ذلك أنه حيث ينتقل الخطاب إلى البشر، يكون بتذكرته لانتهاج قواعد حاصلها أوامر ونواهى بهدف تقويم سلوك الأفراد تجاه أنفسهم وخالقهم وغيرهم، أى بمجموعة قواعد تقويمية.**

وتكون المحصلة أن الكون قد خلقه الخالق بقوانين : منها ما هو تقريرى يحكم الأشياء، ومنها ما هو تقويمى ينظم السلوك الإنسانى. وأن النوع الأول لا سبيل للخروج عليه أو مخالفته لأنه أمر إلهى فى كنه الأشياء، والثانى يجوز مخالفته مع التعرض للجزاء ، لأنه فقط لتنظيم السلوك الإنسانى الذى يقع الاختيار فيه للإنسان ، ومن ثم كان الثواب والعقاب حسب ما تقضى به الأديان .... الخ.

أما عن مضمون هذه القواعد التقويمية فهو يرتبط بالغاية من الخلق على نحو ما سيبين فى الجلسة القادمة.

الجلســـة الثـــانية

الغـاية من الخـلق

أدركنا العلم فزادنا يقينا بأن وراءه عالم، وعشنا فى الخلـق فأدركنـا أنه وراءه خالق ... **وأن الخلاق العليم الذى قدر كل شىء فأحسن تقديره لا يمكن بأى منطق أن يكون قـد خلـق هذا الخلـق العظيـم بـلا هـدف ولا هوية** [1] كما قال السفهاء من قبل، **وإنما بالقطع له غاية ينشدها** ... هـذه الغاية لابد أن تكون على قدر ملكوته وعند حدود علمه وقدرته.

وقد بينا **أن الوجود مرحلة فى خطة إلهية لها مـا قبلهـا وتتواصـل مع ما بعدها.**

وليس لنا من منطق الضعف البشرى أن نصـل إلـى أهداف الخطـة الإلهية التى لا يحيط بعلمها إلا خالقها ... ولكن هذا لا يمنع من أن نستدل على بعض ما يخصنا منها ونتبينه من خلال ما نعايشه من مرحلة الوجود التى نحياها، والتى علينا بالتأكيد أن نساهم بتحقيق ما تقتضيه طبيعـة هـذه المرحلة منا.

وحتى نصل بالمفهوم العملى المحدود لإدراك هـذه الغايـة الكـبرى، علينا أن نتفهم حقيقة الوجود الذى نعايشه وذلك كله فيمـا يخصنـا نحـن معشر الإنس.

---

[1] " افحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق لا إلـه إلا هـو رب العرش الكريم " سورة المؤمنون ، آية ١١٥، ١١٦.

فالوجود مرحلة قائمة بذاتها لها أهدافها الخاصة بها والتى تتسم بطابعها، كما أن الوجود فى نفس الوقت جزء من خطة إلهية كبرى تمتد فى الماضى إلى ما قبل الوجود وفى المستقبل إلى ما بعده، والواقع أن الغاية ترتبط هنا باختلاف النظرة إلى الوجود، وذلك على النحو التالى :

أولا - الوجود كمرحلة قائمة بذاتها

يعتبر الوجود فى ذاته وحدة متكاملة متناسقة قمة فى الإبداع والخلق، تحكمها قوانينها الكامنة فى الأشياء، وتضم كل ما وصل إليه إدراكنا بالحواس ومضاعفاتها - من مخترعات حديثة - من أشياء سواء فى الأرض أو السماء ... والإنسان أحد مكونات هذا الوجود (أو ما نطلق عليه الطبيعة).

وقد خضع الإنسان لسيطرة الطبيعة الكاملة - على نحو ما سبق لنا بيانه - حقبة طويلة من الزمن، إلى أن تعايش معها فى فترة أخرى، إلى أن تمكن من السيطرة على الكثير من عناصرها ومقدراتها تحقيقا لرفاهيته وسعادته على الأرض: فهو قد جاب فى السماء وغاص فى البحار وزرع الأرض وأخرج ما فى باطنها .... الخ.

فالإنسان كجنس بشرى منذ خلق فى صراع مع الطبيعة، تارة تصرعه وأخرى يصرعها، والغلبة فى النهاية لمن سيطر. المهم أن هذا الصراع بين الإنسان والطبيعة لن تنتهى حلقاته طالما الإنسان يعيش على ظهر البسيطة إذ سيحدوه انتصاره إلى انتصار آخر وهكذا .

وإذا ما انتقلنا من الإنسان كجنس بشرى إلى الإنسان كفرد أو

كجماعات، وجدنا أن حلبة الصراع قد انتقلت من الصراع مع الطبيعة إلى الصراع بين بنى الإنسان أنفسهم ....

فالفرد – إزاء قلة الموارد التى تفى حاجة الجميع – فى صراع دائم مع غيره من الأفراد، بهدف توسيع دائرة ما يملكه ويسيطر عليه حتى ولو كان على حساب مقدرات لآخرين، ولو أدى به الأمر إلى القتل والسرقة والنصب .... الخ.

ونفس الشىء بالنسبة لجماعات الأفراد سواء اتخذت شكل دول أو أمم : إذ هى فى صراع مع غيرها لبسط سيطرتها وملكيتها لمقدراتها أو بمعنى أصح لاستعمارها وغزوها حتى لو أدى الأمر لإشعال نار الحروب واستعمال أسلحة الدمار الشامل .

وإزاء هذه الحقيقة لم يجد الإنسان بدا للحد من اندفاعه نحو التملك بغير حق والسيطرة عن ظلم والاستعمار عن قهر، **إلا أن يضع الإنسان نفسه القوانين التى تنظم تعامله مع الآخرين ، ويلتزم بها، سواء كانت هذه القوانين على المستوى الوطنى أو كانت على المستوى الدولى** .... وإلا كان هلاكه مؤكدا .... إذ أن أعدى عدو للإنسان هو الإنسان نفسه .

وهكذا نجد أن القضية فى مرحلة الوجود تكمن فى سيطرة الإنسان على الطبيعة، وهو من قبل ومن بعد، فى صراع مع غيره من بنى جنسه أيضا بهدف السيطرة وتملك مقدراتهم.

وبمعنى أصح يعيش الإنسان حاضرة فى هذه المرحلة يناضل

ويحارب ويصارع من أجل ترسيخ ذاته فى هذا الوجود، وترسيخ الذات يكون بقدر ما تملك وسيطر، وضعف الذات يكون بقدر الحرمان والخضوع .

فالقضية إذا فى هذا الوجود المادى هى قضية غنى أو فقر.. وذلك بحسبان أن الغنى هو قدرة الامتلاك والسيطرة والفقر هو مذلة الحاجة والعوذ، والإنسان فى صراع دائم من أجل تحقيق الذات.

ثانيا - الوجود كجزء من الخطة الإلهية

إذا ما تجاوزنا عن النظر للوجود كمرحلة قائمة بذاتها إلى حيث النظر إليه كجزء من خطة إلهية كبرى تناولت ما قبل الوجود وتمتد إلى ما بعده، **لأمكن تصوره مسرحا يحده الزمان والمكان أعد تصميمه وتزينه بطريقة معينة تناسب الدور الذى يؤديه كل مخلوق تجاه خالقه فى هذه الخطة الإلهية الكبرى** التى لا يعلم كنهها إلا هو.

ويدور بحثنا فقط عن نصيب الإنسان المقدر فى هذه الخطة الإلهية بحسبان أن لنا علم بملكاته من واقع إنسانيتنا.

فالإنسان منحه الخالق العقل وعلمه البيان ومنحه الجسد وسواه البنان، فكان مزيجا بين ذات عاقلة مدركه لا يعلم كنهها، وجسم مادى ملموس هو من طبيعة الأشياء فى عالم الموجودات التى تقبل التحيز والامتلاك.

وقد بينا أن النظرة للوجود كمرحلة قائمة بذاتها، دفعت الإنسان لتأكيد كيانه بالاستحواذ من عالم الموجودات ما يؤكد لهذا البنيان

الجسدى المنعة والقوة، أى الغنى فى عالم تقاس فيه القوة بالغنى والضعف بالفقر.

أما النظر للوجود كجزء من الخطة الإلهية الكبرى، فلابد أن يتعلق بذات الإنسان أو إن صح القول بنفسه، أى هو بحث فى الذات أو النفس وليس فى الجسد والبنيان الذى هو جزء من الوجود.

والذات أو النفس الإنسانية المدركة العاقلة لغز إلهى أعظم لا يقل فى أهميته عن لغز الوجود ذاته ..... ومع ذلك يمكن البحث فيها عند حدود الإدراك أو الفهم البشرى .... وسوف نتناول الكثير عن ماهية النفس وخصائصها فى موقع آخر مقبل.

إلا أنه يكفى فى هذا المقام أن ندرك أن ما من إنسان إلا وبين جنبيه نفس قمة فى التناقض والتصارع : بين كل معانى الخير من رحمة وتعاطف ومودة وكرم ولطف .... وكل معانى الشر من غلظة وعنف وانتقام وجشع ... الخ . وأن الإنسان أسير هذه الصراعات الدائبة فى نفسه، وليس له من سبيل للتحكم فيها أو الحد من اندفاعاتها إلا بما وهبه الخالق للإنسان من عقل وإدراك.

وهذه الصراعات لا يقتصر أثرها على ما يدور داخل النفس الإنسانية، وإنما تتجاوزها إلى العالم المحيط بالإنسان، بحيث تصل إلى أن تكون قوة مدمرة إذا ما انتصرت قوى الشر ... وخير مثل على ذلك تلك الحروب الدامية التى تأتى على ملايين البشر لمجرد إشباع شهوة انتقامية جامحة من شهوات الشر فى الإنسان.

وهذه الحقيقة أدركها الإنسان بعقله منذ القدم حينما تخيل أن هناك إلهاً للانتقام وآخر للجمال وثالث ... والحقيقة أن هذه الآلهة جميعا كامنة فى نفس الإنسان. المهم كيف يحركها صوب الجمال أو صوب الانتقام. وكلاهما يلقى فى النفس هوى جامح لا يقوى الإنسان على السيطرة عليه بعقله إلا بجهد جهيد ... بل قد يستهويه أكثر الميل نحو الشر لأن فيه رضا أكثر للنفس، وقد يجد على مسرح الواقع الذى يعيشه من يوسوس له به من بنى جنسه من البشر أو ممن يحاصر فكره ويحاجيه من غير بنى جنسه (الشيطان) رغم عدم المواجهة الصريحة الواضحة.

المهم أن قوى الخير موجودة، وقوى الشر بدورها موجودة والصراع دائر بين هذه القوى، وهو صراع ينطلق من داخل النفس الإنسانية وينعكس صداه خارجها.

ولما كانت النفس الإنسانية ليست من قبيل الأشياء التى يتكون منها الوجود، وما يدور فيها ليس إلا معان وقيم سواء كانت عن الخير أم الشر. لذا فإن فيها وحدها ما يمكن أن يحمل ذلك النصيب من الخطة الإلهية التى يعتبر الوجود أحد مراحلها ... ذلك النصيب الذى يحسم قضية الصراع بين الخير والشر.

ومن ثم كان لابد من توجيه الخطاب لتلك النفس البشرية، ليذكرها حقيقة دورها فى هذا الوجود العابر خلال مسيرتها للأبدية .. أين كانت فى حياة الذر، وما سينتهى إليه وضعها فى الوجود فى البرزخ والآخرة ... ليذكرها بقصتها مع الوجود – على نحو ما سيبين فى حينه– وكيف أنها نتيجة غل ومكر الشيطان ، ذلك المكر الذى انتقل بها من حياتها الأولى المستقرة إلى حياة تلتقى فيها مواجهة مع الشيطان بكل دهائه ليحرمها نعيمها فى حياتها الأبدية المقبلة .

كان لابد أن تتفهم هذه النفس طريق الخير ومسالكه من تقوى الخالق والامتثال لأوامره ونواهيه، وإتباع نهجه الذى ارتضى.
كان لابد أن تتجنب طريق الشر ومسالكه من فعل السوء والفحشاء والوقوع فى براثن الشيطان.

كان لابد أن تحيط علما بعاقبة أمرها ومستقرها فى حياتها الآخرة.... وما تلاقيه من نعيم مقيم فى جنات عالية أو عذاب اليم فى نار وقودها الناس والحجارة.

وهذا الخطاب للنفس هو ما حملته الرسالات السماوية على أيدى الأنبياء والرسل فيما يعرف باسم الأديان السماوية التى تنزلت على البشرية تبعا لمراحل تطورها.

وكأن مضمون الأديان السماوية جميعها هو تبصير النفس الإنسانية بالدور المقدر لها فى الخطة الإلهية الكبرى فى مرحلة الوجود.
حتى تكون النفس على بينة من أمرها، وهى مازالت تلامسه، فلا يغمرها هذا الوجود الذى تعيشه بمتطلباته وتطلعاته الدنيوية فتضل وتشقى، وإنما تتخذ منه سلما -طالما كان رائدها أحكام التشريع السماوية - تصعد به إلى حيث الدرجات العلا فى الحياة المقبلة التى إليها ميعادها.

وربما يكون ذلك هو الهدف من خلق كل هذا الوجود، عند مليك له فى خلقه شئون، لا يسأل عما يفعل وهو يسألون.

الجلسـة الثالثـة

الأثر المترتب على كيفية خلق الكون

انتهينا إلى أن الكون قد خلق بالقانون، وأهم أثر للقانون هو فى وجوب احترام قواعده، وتوقيع الجزاء على المخالف من قبل السلطة القائمة على تنفيذه، ونعرض لكل منها فيما يلى :

١ - احترام القانـون

بينا أن الكون بكل ما فيه مخلوق بالقانون .. كل ما هنالك أن مكونات الخلق من الأشياء تحكمها قواعد قانونية تقريرية لا سبيل للخروج عليها، وأن السلوك الإنسانى تحكمه قواعد قانونية تقويمية وردت بها الرسالات السماوية على الأنبياء والرسل فى صورة الأديان، وأن مضمون هذه القواعد التقويمية إنما كان بهدف تحقيق ذلك النصيب الذى يخص الإنسان فى هذا الوجود باعتبار انه جزء من الخطة الإلهية الكبرى.

ومعرفة تلك الحقيقة - وهى أن الكون تم خلقه بالقانون سواء كانت قواعده تقريرية بالنسبة للأشياء أو تقويمية بالنسبة للسلوك الإنسانى- **يجرنا إلى استكمال هذه الحقيقة باعمال أهم أثر للقانون وهو وجوب احترامه وإلا تعرض المخالف للجزاء .**

ومعروف أن الجزاء يكون على قدر المخالفة وطبيعة القاعدة المطبقة وعلى ذلك فإنه يجب :

أولا – احترام ما تفرضه القواعد التقريرية التى تحكم الأشياء :

يجب احترام مضمون هذه القواعد – وإن اتخذت مسمى خصائص أو وظائف أو مهام – وإلا تعرض المخالف للجزاء. وعموما تلك ليست مشكلة ، إذ أن الجزاء كامن فى الشيء نفسه. وبالتالى فإن من لا يحترم وظائف جسمه من الأعضاء بأن يحملها أكثر ما طاقتها أو يغير من وظائفها أو يعطل طبيعتها، فإنه يصاب بالوهن وقد يؤدى ذلك إلى الوفاة حسب قدر المخالفة وهكذا، ومن ثم فهو احترام مفروض.

وما يقال عن جسم الإنسان يقال عن غيره من الأشياء إذ تحكمها نفس القاعدة.

ثانيا – احترام القواعد التقويمية التى تحكم السلوك الإنسانى :

يجب احترام القواعد التقويمية التى تنزلت بها الرسالات السماوية فى صورة الأديان وإلا تعرض المخالف للجزاء.

والجزاء هنا يساير بداهة طبيعة القاعدة القانونية ومضمونها ومن ثم فهو :

١ – جزاء مضاف إلى ما بعد الموت :

لما كانت القاعدة القانونية قد تنزلت بها أحكام السماء فى صورة رسالة سماوية. ولما كان مضمون القاعدة يتعلق بعمل يرتكب فى هذا الوجود ليجازى عنه فيما بعد الوجود فى الحياة الآخرة.

لذا فإنه جزاء إلهى مضاف إلى ما بعد الموت لا سبيل إلى إنكاره أو تجاهله، إلا إذا أنكرنا أن هذا الوجود قد خلق بالقانون وأن ما نراه يحكم الأشياء ليس له من رابط ولا ضابط .... إلا إذا أنكرنا أن الإنسان

قد خلق ليحقق فى الوجود ما يخصه من نصيب فى الخطة الإلهية الكبرى التى تمتد إلى ما بعد الوجود .. أى بمعنى آخر إلا إذا تصورنا أن الإنسان إنما خلق عبثا.

٢ - جزاء يتناسب وجلال القانون الإلهى :

والحقيقة أنه لا يمكن بحال أن ننكر ذلك القانون التقريرى القمى الذى يحكم الأشياء كل الأشياء فى إتقان عجيب لا يصل إلى كنهه ومداه إلا خالق واحد أمره "*إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون*" [١].

لا يمكن بحال أن ننكر أن الإنسان قد صدق عليه وعد الخلافة فى الأرض فى تحدٍ بالغ لكل الخلائق وأن قدره فى ميزان الخلق يتجاوز رفاته العالقة بالأرض، إلى حيث مسيرة فى الأبدية تناسب جلال خلقه وحقيقة الدور المعقود عليه على النحو الذى نظمته القواعد التقويمية التى تنزلت بها أحكام السماء. **ومن ثم كان حسابه على قدر جلال خلقه : إما نار السعير التى لا تبقى ولا تذر، وإما جنات فيها ما لم يخطر على قلب بشر.**

٢ - السلطة القائمة على تنفيذ القانون

القواعد التقريرية :

حقا إن قانون الأشياء مفروض على الإنسان احترامه ومجبر على الخضوع له، ذلك **أن السلطة القائمة على توقيع الجزاء كامنة فى الشىء**

---

[١] سورة النحل ، آية ٤٠.

نفسه لأنها ليست موضع اختبار الإنسان، وإلا لما رأيت الإنسان يصرخ ويستغيث وقد اختلت قوانين أحد أعضائه : كمن أصاب جهازه البولى عائق فانسد مجرى البول فتعطلت وظائفه أو بمعنى أصح قوانينه. وتظاهرت مع هذا العضو الذى اختل قانونه كل الأعضاء الأخرى فى الجسم.

وهنا يجد الإنسان نفسه مضطرا لأن يلقى بجسده تحت يد جراح يعيد لهذا العضو توازنه، وذلك بإصلاح الخلل الذى اعترى قانون هذا العضو أو الجهاز.

أما القواعد التقويمية :

التى تحكم السلوك الإنسانى فإنها تختص " بالأنا " التى هى نفخة الروح الإلهية، ولما كانت الأنا تتميز بالإرادة الذاتية فقد أرشدها خالقها إلى قانونها من خلال تلك القواعد التقويمية التى نزلت بدورها من لدنه، وترك لها حرية إتباعها احتراما منه لحرية الإرادة لهذه الذات الإنسانية خلال الفترة موضع الاختبار فى هذا الوجود، ليقوم رب العزة بتوقيع الجزاء - إن جنة أو عذاب النار - فيما بعد مرحلة الاختبار أى فى الحياة الآخرة .

وعلى الإنسان أن يدرك احترامه لقانون الخلق فيه ، إذ لا يعقل أن تكون حصوة فى مجرى البول أكبر فى ميزان قانون الخلق من تلك الذات الإنسانية التى هى نفخة من روح الله، بحيث يستغيث ويصرخ إذا ألمت به الأولى، ويضحك ويمرح ويلعب وهو يتلاعب بتلك القواعد التقويمية التى خص الخالق بها الذات الإنسانية وترك له حرية إعمالها .... بالتأكيد سيلقى الإنسان جزاءه إذا أنكرها أو أهملها،

وإنما بدلا من أن يستغيث ويصرخ يكوى بنار لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر. جزاء وفاقا لاستهتاره وإنكاره واستهانته بتلك القواعد التقويمية.

وهكذا يا صديقى : يتبين من استعراض قضية كيفية الخلق والهدف منه :

أن القضية ليست كما يدعى أصحابك مجرد انفجار هائل قد تم بين مكونات جسم صغير تولدت عنه هذه الكوكبة من الأفلاك والكواكب .... الخ، إذ مفاد ذلك أن هذا الكون قد نشأ مصادفة عشوائية وبلا تخطيط ولا هوية .. وهذا لا يعقل بمنطق العقل.

كما لا يعقل بمنطق العقل أن نسوى بين الإنسان وغيره من الموجودات الأخرى فى الكون، ونحن نراه يتميز عنها بالعقل والإرادة.

وإنما ما يقبله منطق العقل أن **هناك إلها قد خلق هذا الكون بكل ما فيه كمرحلة من مراحل الأبدية بمجرد أمر منه حيث كانت القواعد التقريرية التى حكمت الأشياء كلها بما فيها خلق الكون نفسه.**

وأن هذا الإله هو الذى خص الإنسان من بين المخلوقات ببعض القواعد التقويمية التى تنزلت بها الأديان حيث تحدد له هذه القواعد معالم الطريق نحو الحياة الأبدية هناك.

وأن هذه القوانين سواء التقريرية أم التقويمية ملزمة للإنسان وتقترن بجزاء يوقع على من يخالفها. كل ما هنالك أن :

القواعد التقريرية (التى تحكم الأشياء) **ملزمة ذاتيا** حيث أن الجزاء كامن فيها ، ومن ثم لا سبيل لمخالفته وإلا تعرض المخالف للجزاء الفورى فى الحال .

القواعد التقويمية (التى تنظم السلوك الإنسانى) **ملزمة إراديا** بمعنى أن الإنسان يلتزم بها بإرادته ومحض اختياره، ومن ثم يجوز له أن يخالفها وينكرها بل ويقاومها ويدعو لضدها ولا جناح عليه، إذ أن الجزاء مضاف إلى مرحلة مقبلة من مراحل الأبدية وهى الحياة الآخرة التى قد ينكرها بدورها.

والسبب أن هذه القواعد حتى يدركها ويحيط بمصدرها عليه أن يتدبر ويتدبر فى الخلق حتى يستقر لديه اليقين بأن هناك **خطة إلهية كبرى تضم هذه الحياة الدنيا التى نحياها، والحياة الآخرة التى إليها معادنا**، وأن مصدرها هو إله واحد له الأمر والخلق فى الحياة الدنيا، والحكم والقضاء فى الحياة الآخرة .... وهذه وتلك عسيرة إلا على من تمسك بأحكام رسالة السماء فتفهمها وأدركها ولم يتغافل عنها وينكرها.

أما لماذا انفرد الإنسان بهذه القواعد القانونية التقويمية، فتلك قضية أخرى نعرض لها استقلالا فى الجلسة المقبلة .

ولكن يكفى فى هذا المقام أن نطمئن إلى أن رحلتنا تجاه الحياة الأبدية آمنة مستقرة، حيث سنلقى إلهنا الخالق هناك وقد صدق وعده .. ونصر عبده .. عبده الذى أدرك قانون الخلق فأمن واتقى .. ولم يؤثر حياته الدنيا وإنما سلم بالحياة الآخرة على أنها خير وابقى ، كقانون تقويمى ورد فى الصحف الأولى .. وفى ذلك يقول الحق

*" قد افلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى *بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وابقى * إن هذا لفى الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى "* [١] .

ويا ليتك يا صديقى .. تذكر قومك هناك بأن خلق السموات والأرض لم يكن مصادفة ولا لهوا ... وإنما كان عن بينة وقصد، وفى ذلك يقول الحق *" وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون "* [٢] .

ويا ليتك أيضا تذكر قومك هناك الذين تناسوا الهدف من خلقهم واختصروا الطريق واتخذوا من دنيا المال والملذات والتعلق بالماديات إلههم، بتلك الآية الكريمة التى تقول " ***أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا***، *وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم * ومن يَدعُ مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون * وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين "* [٣] .

وياليتك يا صديقى تذكر قومك – فى النهاية – أن الإله الخالق رحمة بعباده، قد كشف عن كيفية الخلق والبعث والنشور، بما لا يحتاج إلى تلك الدراسات الرأسية التى تمتد فى الماضى إلا بلايين السنيين، وإنما اكتفى فقط بمجرد دراسات افقية – يستشفها الانسان من مجرد ملامسة ما يحكمه والكون كله من قوانين – آتاه فيها بالخبر اليقين عن كيفية الخلق والبعث وذلك فيما ورد عن الحق " *أو لم ير الإنسان انا خلقناه من نطفة*

---

[١] سورة الأعلى ، آية ١٤ – ١٩.

[٢] سورة الدخان ، آية ٣٨، ٣٩

[٣] سورة المؤمنون، آية ١١٥ – ١١٨.

*فإذا هم خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قال يحييها الذى انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون، أو ليس* ***الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، إنما امره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون*** "[1] .

وهكـذا :

فالذى خلق هذا الكون بالقانون ، يعلم أن **القانون - كما سبق أن بينا - هو أمر من الحاكم** ، ومن ثم كان سبيل الخالق فى الخلق بما نظمه من قوانين هـو :

الأمر الإلهى "***إنما امره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون***"، أيا كانت صورة الخلق (الكون، السموات ، الأرض، الذرة، الإنسان .... الخ)، وأيا كان زمانه (الحياة الدنيا حيث الخلق أم الحياة الآخرة حيث البعث والنشور) .

" **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء** " .. أى تعالت قدرة الذى بيده زمام كل شىء وأمره ونظامه وعلمه ومصيره .. **وبالجملة قانون كل شئ.**

" **وإليه ترجعون** " .. حتى تستكمل الرحلة مسيرتها صوب الأبدية التى إليها معادنا ، **حيث الخالق الذى كشف عن وجوده هناك ، بما نظمه من قوانين تحكم مسيرة الوجود ها هنا .**

---

[1] سورة يس ، آية ٧٧ - ٨٣.

القضية الثالثة

قصة خلق الإنسان

الجلسة الأولى : وقائع القصة .

الجلسة الثانية : الهدف من خلق الإنسان (وتحقيق الحكمة الإلهية).

الجلسة الثالثة : أبعاد الصراع بين الإنسان والشيطان.

الجلســة الأولــى

وقــائع القصــة

استهل محدثى الحديث: (بعد أن تناول فنجان القهوة من عم صالح) **إلىّ بالجديد عن قصة خلق الإنسان** .... دون ما ترديد لما جاء فى الكتب السماوية ، إذ أنى عرضتها لهم كما جاءت فى هذه الكتب السماوية ، وكانت المحصلة إعراضهم عن قبولها لأنى فى نظرهم انقلها لهم من خلال إيمانى بما جاء فى هذه الكتب .... ثم أنه فى نظرهم ليس هناك من منطق علمى مقبول يدفعهم إلى قبول هذه القصة طالما ليس هناك من شاهد عليها.

وإنما القصة فى حقيقتها عندهم نتيجة تطور الأجناس التى كانت نهايتها ظهور الإنسان بصورته الحالية.

قلت : ليس العيب فيهم ولا فى القصة ... **وإنما العيب أنك لم تعرضها بمنطقهم العلمى** .. وذلك دون افتئات على الجانب الدينى من القصة كما وردت فى الكتب السماوية.

ولذا فالجديد الذى أتناوله ليس فى القصة، وإنما فقط فى كيفية عرضها من خلال منظور علمى وتحليل منطقى ..حتى يتبين أن قصة خلق الإنسان كانت أكبر بكثير من نظرية تطور الأجناس.

ومعى نستعرض حلقات هذه القصة كما وردت فى القرآن الكريم (باعتباره التقنين الإلهى الخاتم) نحللها بمنظور علمى ومنطقى معاصر

.. حتى إذا ما اتفق هذا التحليل مع المنطق الفكرى كان التسليم بالقصة كواقع علمي ملموس، وليس من خلال نسيج تاريخى مطموس.

بدأت القصة كما جاء فى القرآن الكريم بالنص التالى :

" إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين " [1] .

وهذا النص يقوم على فرضين : خلق بشر من طين، حتى إذا ما سواه الخالق ونفخ فيه من روحه، كان هناك أمر بالسجود له.

ونحن فيما يلى نتناول كل من هذين الفرضين على النحو الآتى :

الفـرض الأول
خلق بشر من طيـن

١ – خلـق بشـر :

المقصود بالبشر – بداهة – هو آدم عليه السلام. ولكن هل كان آدم وبنوه :

أ – بداية البشر.. وذريته من بعده هم الجنس البشرى ؟

ب – أم كان آدم **امتدادا لجنس بشرى سابق عليه**، وكان هذا الجنس البشرى معروفا بغرائزه الحيوانية وشهواته الدنيوية وحبه لسفك

---

[1] سورة ص آية ٧١،٧٢.

الدماء .. شأنه فى ذلك شأن الأجناس الأخرى من الحيوان والطير وغيرها ؟

الواقع أن النص يمكن أن يحتمل التفسير الثانى .. رغم أن الأول له الغلبة .

وربما سند الرأى الثانى - فى رأيى - أن الخالق سبحانه قد خلق بشراً له خصوصية ما بين البشر قبله وهى تسويته من لدنه ثم نفخة الروح التى نفخها إياه.

وهكذا يكون آدم وذريته من بعده (بنى آدم أو الإنسان) بشراً ولكنه متفرد بما وهبه الله إياه من تسوية .. ونفخة روح .

وربما يرجح هذا الاتجاه علم الملائكة - سلفاً - بخصائص البشر *" وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة* ***قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء*** *ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون "*[1] ، والمقصود هنا بالطبع هو آدم وذريته من بعده .. وعلم الملائكة المسبق أن البشر يميلون إلى الإفساد فى الأرض وسفك الدماء.

ولكن أياً كان الأمر بالنسبة لآدم - أى سواء كان هو بداية الجنس البشرى أو أحد أفراده الذين إختصهم الله - **فالخطب جلل** ، ذلك أن هناك أمراً إلهيا بالسجود لآدم ... وفيه كل غرائز البشر وشهواته .. وهذا الأمر موجه إلى الملائكة الذين يدينون للخالق بالعبادة الخالصة والطاعة الكاملة ... وفيهم ملائكة غلاظ شداد .. وذلك على نحو ما سيبين فى حينه.

---

[1] سورة البقرة أية ٣٠.

٢ - من طيـــن :

لعل المقصود بالطين من حيث أنه مادة للخلق أنه أدنى المواد مـن حيث شفافيتها ودرجة حساسيتها لتلقى أحكـام السـماء، ذلـك أن الطيـن يتسم أنه من طبيعة مادية صماء معتمة.. فى حين تعلـوه النـار باعتبارهـا من تكوينات متوهجة نفاذة .... وفى القمـة النـور باعتبـاره مـن تكوينـات وضـاءة شفافة .

ونظرة إلى الطين إذا ما صادف نارا فإنه يرتقى إلى تكوين مشـتعل نفاذ .... وإذا زادت درجة نقاء هذا التكوين النـارى، فإنـه يصـير مضيئـاً شفافاً .... والعكس صحيح.

وهكذا فدرجة تلقى التكوينـات النورانيـة ، لتلك الأحكـام النورانيـة الإلـهية العليا التى ليـس كمثلهـا شـىء ، أكـثر استجابة .... بـل الأصـح أكثر تقديساً لهذه الأحكام، لأنها تذوب فـى الأنوار الإلهية العليا.

بينما التكوينات النارية أقل حساسية من الأجسـام النورانيـة لتلقـى هذه الأنوار الإلـهيـة، حيـث أن النـار درجـة بيـن النـور والطيـن: فهـى لا تصل إلى درجات النور ونقائه .. ذلك أنها مشتعلة ومتوهجة، كما أنهـا لا تصل لدرجة الطين المادى المعتم الذى تكاد لا تنعكس عليه أحكام الأنـوار العليا حيث أنه من مادة معتمة صماء، ومن ثم فدرجة تلقيها لهـذه الأنـوار أقل - بداهة - من التكوينات النورانية .

أما التكوينات الطينية ، فهى ليست شفافة ولا نفاذة، وإنمـا صلبـة معتمـة... ومن ثم لا تنعكس عليها أضواء الأنـوار الإلـهيـة إلا إذا تـأهلت تأهيلاً خاصاً (على نحو ما سيبين فى الفرض المقبل) .

الفرض الثانى

الأمر الإلهى للملائكة بالسجود لآدم

" إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين "[١] .

وهذا الأمر الإلهى للملائكة بالسجود لآدم (وإن كان أختص به الخالق الملائكة بالخطاب ... باعتبارها من أجسام نورانية قمة فى الشفافية والارتقاء، فبالأولى يتناول ما عداها من تكوينات نارية هى أقل من ذلك بكثير.. من حيث درجة الشفافية والارتقاء .. والتى منها خلق الشيطان) [٢] معلق على شرطين فى غاية الأهمية وهما : التسوية .. ونفخة الروح.

وفيما يلى نعرض لهذين الشرطين ثم نعرض لأثر هذا الأمر الإلهى، على النحو التالى :

---

[١] سورة ص ، آية ٧١ - ٧٢.

[٢] وهكذا يكون الخطاب الذى وجه للملائكة قد خضع له الشيطان، ليس لأن الشيطان من جنس الملائكة (كما ذهب إلى ذلك البعض)، ولكن لأن ما يأتمر به الأعلى من حيث مادة التكوين (الملائكة) يخضع له بالأولى الأدنى من حيث مادة التكوين (الشيطان) ، وفى ذلك حسم لما أثير حول هذا الموضوع.

١ - الشرطان المعلق عليها الأمر

الشـرط الأول - التسويـة

يجب أن تتجاوز التسوية هنا تلك التسوية البدنية التى استقر عليها الإجماع .... ذلك أننا فى مقام البشر بكل غرائزه الحيوانية وفطرته التى تقوده إلى الفساد وسفك الدماء ، **ومن ثم يجب النظر إلى التسوية على أنها المقابل لهذه الفطرة المتأججة.**

ومن ثم فهى تتوافر بمكنة الاعتدال والتحكم فى هذه الفطرة والغرائز، هذه المكنة هى تلك الطاقات العقلية التى منحها الخالق للإنسان دون سواه لتكون أداة تقواه فى مواجهة شهواته *"ونفس وما سواها* فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها *وقد خاب من دساها "*[1] .

وفى عرف التعامل نقول .. (رجل سوى) أى أنه رجل يحكم عقله فى انفعالاته وشهواته فيكبحها ويخرج بالرأى السليم والتصرف القويم. والتسوية معناها التعادلية بين الأضداد.

وهكذا فالطاقات العقلية التى تستطيع أن تتعرف على قدرة الله وجلال شأنه، وتتأمل فى ملكوته وبديع صنعه ، وتحيط بالأسماء وتدركها وتنظمها فى لغة للتفاهم، وهى من بعد ومن قبل تفقه رسالات السماء وتعملها، هى القادرة على أن تكبح الشهوات البشرية بكل قوتها وتتحكم

---

[1] سورة الشمس الآية من ٧ - ١٠.

فيها . ومـن ثـم فهـى طاقـات لهـا جلالهـا وخصوصيتهـا بالنسبة للإنسـان **بحيث تجعله كائناً متفرداً بين الخلق.**

أى هى تلك التسوية التـى وازن بهـا الخـالق بيـن طبيعـة الإنسـان البشرية الحيوانية التى هى من الطين (أدنـى المـواد مـن حيـث التكويـن) وبين ملكات وقدرات التحكم التى تنبعث من الطاقات العقليـة التـى يتفـرد بها الإنسان على سائر المخلوقات الأخرى.

الشرط الثانى - نفخـة الروح

المقصـود بنفخة الروح التـى اختـص الخـالق بهـا الإنسـان هـى تلـك الذات أو " الأنا " التى يحملها الإنسان بين جنباته دون أن يدركها بأى مـن حواسه (ولنا معها لقاء آخر عند الحديث عن النفس).

وهذه النفخة الروحية يحق لمن نالها أن يعلـوا فـى قدره ومقامـه حتى على الملائكة المقربين :-

فهـى نفخـة لهـا قداستها وقوتهـا وعلوهـا ، إذ هـى تحمـل فـى طياتها سر الصنعة التى تكون منها الخلق وهى القدرة والمشيئة:

القـدرة بمعنـى قـدرة العقـل الأعظـم علـى الموازنـة بيـن البدائـل والأضداد بهدف الوصول إلى التوازن الأمثل وهو قمة الإبداع فى الخلق.

والمشـيئة بمعنـى الإرادة علـى إعمـال محصلـة هـذه الاختيـارات موضع التنفيذ بمجرد القول للشىء كن فيكون.

ويتشكل إطارها فى حدود الذات التى اختص الخالق بها الإنسان، فكانت صلب وجدانه وعمق أعماقه .. ينطق بها ويسير على هديها وإن كان لا يدركها بأية حاسة من حواسه .... فهى تعلو علو مصدرها، وتقترب قرب نبضه.

نعم إنها " الأنا " أو الذات فى الإنسان التى خرج بها عن دائرة حدود قانون الطاعة المفروضة التى تحكم الخلق أجمعين فى مسيرة الوجود، ليسن هو لنفسه قانونه الذى اهتدى أى قانون الطاعة المرغوبة أو الإرادية .... بعد أن منحه الخالق سر الصنعة فى الموازنة بين البدائل والأضداد فى خيارات تتلوها خيارات تلزمه المسيرة بلا انقطاع، كما منحه إرادة إعمال محصلة هذه الاختيارات موضع التنفيذ أو العدول عنها.

وهكذا استحق الإنسان بهذه النفخة الروحية أن يكون خليفة الله فى الأرض، وأن يعلو – كما ذكرنا – حتى على الملائكة ولو التقت هذه النفخة بحفنة من تراب الأرض. ذلك أن السمو هو فى هبة الصانع وقدرته وليس فى مادة الصنع. وكم وجدنا أن قيمة الأشياء وندرتها تكمن فى دقة الصنع التى تدل على قدرة الصانع، وليس فى مادته.

ومن ثم ليست العبرة فى خلق الملائكة من نور حيث الشفافية المطلقة، ولا الشيطان من النار حيث الصفاء النسبى، وإنما القيمة فى العطاء الإلهى حتى ولو التقى بما تخلف عن هذه التكوينات النورانية والنارية من تراب وطين.

٢ - أثر الأمر الإلهى للملائكة بالسجود

أدركت الملائكة ذلك الأمر الإلهى وتفهمته والتزمت قانون الطاعة الذى يحكمها فى علاقتها بخالقها بعد *" وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون* ****وعلم آدم الأسماء كلها*** *ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك* ***لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون "*** [١] .

وهنا أيقنت الملائكة قدر عطاء الله لآدم .... **بتلك النفخة الروحية التى جعلته يسمو عليهم بما أحاطه الله من علم هم دونه**، وسجدوا فى طاعة وامتثال لأمر الخالق حيث أنهم قد تفهموا الحكمة الإلهية من وراء هذا الأمر بالسجود.

ولم يخرج على قانون الطاعة *" إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه "* [٢] **حيث تصور أن العبرة هى بمادة الصنع وليس بعطاء الخالق** .... فأخذته العزة بأصل خلقته وتكوينه ليبرر عصيانه للأمر الإلهى بالسجود لآدم، حينما *"قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين "* [٣] .

---

[١] سورة البقرة آية من ٣٠ - ٣٣ .

[٢] سورة الكهف آية ٥٠ .

[٣] سورة ص آية ٧٦.

فأسرها الشيطان لآدم بعد أن أصبح من الكافرين .... حتى إذا ما صدر الأمر الإلهى لآدم فيما ورد عن الحق *" وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * **فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه** "* [١] .

وهكذا نجح الشيطان فى إغواء آدم على الخروج بدوره على قانون الطاعة ليتماثل وضعهما عند الخالق، إلا أنه فاته (أى الشيطان) أن خروجه على قانون الطاعة كان عن كبرياء وغرور بمادة تكوينه ، بينما خروج آدم على قانون الطاعة كان عن غفلة من مكر الشيطان .

ومن ثم كان لابد من المواجهة الصريحة بين آدم والشيطان – بعد أن تكشف لآدم مكر الشيطان وإغوائه له – فى صراع حقيقى وعداوة سافرة هدفها :

إما أن يؤكد الشيطان أنه الأعز بأصل تكوينه من النار مع ما يعطيه ذلك من صلاحيات وطاقات أكثر.

وإما أن يقدر آدم تلك النفخة الإلهية فيه .... فيكدح ويتغلب على فطرته البشرية وشهواته الحيوانية .. ويتدارك ذلة الشيطان له.... بحيث يعلوا ويتغلب فى النهاية بتلك النفخة الروحية حتى على الخلق المقربين.

وقد اختار الخالق حلبة للصراع تلك الأرض التى خلق آدم من ترابها، فى حياة دنيا تناسب دنيا مادته فى الصنع حيث تظهر كل كوامن

---

[١] سورة البقرة آية ٣٥، ٣٦ .

الشهوة والفطرة البشرية .... بحيث تكون الغلبة فى النهاية إن قدر لها أن تكون هى لتلك النفخة الإلهية فيه. وهكذا يقول الحق " *وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو* ***ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين*** " [١] .

وهكذا بدأت مسيرة الإنسان - ذلك الكائن المتميز المتفرد - فى الخلق، بتلك التركيبة المعقدة .. جسم من مكونات الأرض له مطالبه وغرائزه وشهواته وأطماعه وجنوحه، تم تزويده بكل أجهزة التحكم التى تحد من اندفاع هذه الغرائز والشهوات (وهى تلك الطاقات العقلية فى إطار تسوية وتعادلية محكمة)، يغمره ذات هى نفخة إلهية لها استقلالية الإرادة فى الخضوع لقانون الطاعة الذى يحكم الخلق من عدمه.... فى إطار من اختيارات بين البدائل والأضداد لتكون هى نهجها الذى قد يلتزم قانون الطاعة أو يخرج عنه .

والإنسان بهذه التركيبة عقد عليه ربه الخلافة فى الأرض وصدر الأمر الإلهى بالسجود لآدم، فاستجاب له الملائكة، واعترض عليه الشيطان .. فكانت المعركة بينهما فى الأرض إلى حين : فيها يؤكد الشيطان بأنه الأعز بأصل تكوينه من نار، أو يعلو الإنسان بتلك النفخة الإلهية فيه.

وفى الجلسات المقبلة وما دار فيها من نقاش، نتابع أحداث هذه المعركة وما ستنتهى إليه.

---

[١] سورة البقرة آية ٣٦.

الجلســة الثــانيــة

الهدف من خلق الإنسان

﴿ تحقيق الحكمة الإلهية ﴾

إستهل محدثى هذه الجلسة بقوله : " لقد اعتمدت في سياقك لهذه القصة الأزلية - قصة خلق الإنسان - على ما ورد من آيات الكتاب المبين لتبين مدى كفر الشيطان لخروجه عن أمر ربه، وتحديه للإنسان فى الالتزام بقانون الطاعة الإرادية بعد طلبه منازلته فى الحياة الدنيا ليؤكد الشيطان لخالقه أن له الغلبة .... **ألا ترى أنها تحتاج إلى بعض التدليل الذى يستند إلى المنطق العلمى المجرد ؟**

فسياق القصة على هذا النحو الدينى قد لا يقنعهم (وأنت تعرفهم). خاصة وأن الشيطان وقد اغتر بأصل خلقته من النار لم يرتكب ذلة كبيرة طالما أنه يقر أنه والنار من خلق الله، كما وأن عدم سجوده لآدم كان عن يقين منه بعلو منزلته عند خالقه القادر على فرض مشيئته سواء قبل الشيطان السجود لآدم أم رفض.... وفى ذلك اعتراف بقدر الله وجلاله .

فهل إلى محاولة للتأصيل العلمى من سبيل عسى أن أجد فيها ما يعيننى على مواجهتهم بمنطقهم ؟

قلت : القصة فى الحقيقة أعمق بكثير من خروج الشيطان عن أمر ربه، ذلك أن الخالق جل شأنه قادر على أن يعمل مشيئته، " *وهو الذى إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون* ": وبالتالى فقهر الشيطان على الطاعة وسجوده لآدم طواعية لله لم يخرج عن قدرة الخالق.

وإنما القصة تكمن فى الاعتراض علــى حكمـة اللـه وعدم التسليم بها وتحديه لها، وتلك تمثل فى قانون الخلق إحدى الكبـائر التـى تحتـاج إلى تدليل قد يكون منه خلق هذا الكون وما يجاوزه.

وبيان ذلك من واقع ما يجرى عليه العمل فى قانون البشر، أنه إذا صدر قانون (وهو أمر من الحاكم) فإن لهذا القانون حكمة وعلة :

حكمة يقدرها واضع النص وهو المشرع ، ومثـال ذلـك .. صـدور قانون يجرم تعاطى المخدرات ويفرض على مرتكبها عقوبة قاسية، فإنمـا ذلك بعد أن يكون المشرع قد وازن بين اعتبـار هـذا المتعـاطى مريضـاً ومن ثم يجب أخذه بالرعاية وربما علاجه بالمجان فى المستشفيات، وبيـن أن هذا المتعاطى إذا ما أخذناه بالرحمة قد يكـون ذلـك حـافزاً لغيره علـى التعـاطى وبالتـالى يفسد المجتمـع. ومـن ثم نجده ضحـى بـالأولى ليـأخذ بالثانية حرصاً على كيان المجتمع وحمايته .... وذلك كله فى إطار حكمة قدرها المشرع عند إصدار النص.

علـة : يلتزم بها القاضى عند تطبيقه للقانون، إذ يكفى عنـد تطبيـق القـانون أن يكـون هنـاك تشـريع مستوفياً لأركانـه صـادرا عـن المجلـس التشريعى يقضى بهذا النص، حتى ولو كـان هـذا النـص ظالمـاً فـى نظـر القاضى أو لا يسايره فى حكمته .

وبالتالى ليس هناك من اعتراض من القاضى على إعمال النص أو حتى مجرد الامتناع عن إعماله بدعوى أن حكمة النص لا تساير منطقــه، وإلا نكون قد نصبنا من القاضى سلطة أعلى من المشرع، والأصل- على آخر ما وصل إليه الفقه والعمل القانونى- هـو مبدأ الفصـل بيـن سـلطات

الدولة الثلاث : التشريعية والقضائية والتنفيذية .. ومفاده أنه لا يجوز لسلطة أن تتدخل فى صميم اختصاص الأخرى، أى لا يجوز لغير السلطة التشريعية تقدير حكمة النص القانونى والامتناع عن تطبيق النص بدعوى أن الحكمة منه لا تساير منطقها.

وإذا كان هذا هو شأن القاضى .. فما بالك بالمحكومين، فالقوانين بالأولى عند تطبيقها عليهم ترتبط بالعلة منها وليس بالحكمة.

وما يقال عن السائد فى النظام القانونى الوضعى ، يقال بدوره عن المستقر عليه فى أحكام الشريعة : فالصلاة مثلا وغيرها من الفرائض الأخرى ترتبط فى أدائها بالعلة (وهى مجرد فرضها من الخالق) وليس بالحكمة من فرضها .... إذ أن هذه الحكمة قد نعيها وقد لا نعيها ، إذ أمرها معقود على الخالق .... وما علينا إلا أن نسلم بهذه الحكمة حتى ولو لم نعيها، ذلك أن تقديرها بيد العزيز الحكيم.

والحقيقة أن التسليم بحكمة الخالق فى تصريف أمور الخلق – بما يستلزمه ذلك من وضع الأوامر والنواهى – هو قمة الإيمان بالخالق وقدره، والرضا بقضاء الخالق فى السراء والضراء هو قمة الحب والعبادة الخالصة لله .... ذلك أن التسليم والرضا بقدر الله ومكتوبه إنما يكون عن إيمان بأن وراءهما حكمة بالغة هى قدس أقداس الذات الإلهية.

ولما كانت الحكمة – خاصة فى مجال الخلق – لا تكون إلا عن حكيم ، لذا فإن الخالق سبحانه وصف نفسه بالحكيم فى كتابه المنزل فى العديد من الآيات [١] .

---

[١] وردت كلمة الحكيم فى ٤٢ مرة فى القرآن الكريم منها ما ورد فى سورة البقرة " قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم " آية ٣٢، " ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم =

ودلل على حكمته فى العديد من الآيات الأخرى *"وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون "* [١] ، *" يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب "* [٢] ، *" فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً "* [٣] .

وليس لمخلوق مهما علا قدره أن يدخل إلى حيث محراب حكمة الله، إذ أنها قاعدة أصولية فى قانون الخلق، وفى ذلك يقول الحق *" لا يُسئلُ عما يفعل وهم يُسئلوُن "* [٤] .

ومن محصلة ما سبق يمكن أن يفسر اقتحام الشيطان لمحراب الحكمة الإلهية باعتراضه على منطق الأمر الإلهى له بالسجود لآدم، على **أنه إخلال بالقانون الإلهى السرمدى الذى يحكم الخلق فى علاقتهم بالخالق،** وهى كما قلنا سلفاً إحدى الكُبر.

والحكمة الإلهية ذاتها تقتضى **أن يكون علاج الاعتراض عليها بمنطق الحكمة ذاته،** حتى يعود قانون الخلق إلى حيث ناموسه الطبيعى المتوازن.

= يتلو عليهم أياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم" آية ١٢٩. وفى سورة آل عمران " هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم " آية ٦ ، " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم " آية ١٨، وفى سورة الأنعام " وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير " آية ١٨.

[١] سورة البقرة ، آية ٢١٦.

[٢] سورة البقرة ، آية ٢٦٩.

[٣] سورة النساء ، آية ١٩.

[٤] سورة الأنبياء ، آية ٢٣.

ولما كان الشيطان : قد عصى أولا أمر ربه فى السجود لأدم، ثم إنه ثانياً تحدى الحكمة الإلهية بدعوى أنها لا تستند إلى أساس من المنطق، إذ كيف يسجد لمن خلقه الله من طين، وهو قد خلق أساسا من النار.

فقد شاءت الحكمة الإلهية أن يكون علاج ما إرتكبه الشيطان فى الحالتين فى إطار ما يحكم الله به الخلق من قوانين، وذلك على النحو التالى :

أولا - عصيان الشيطان لأمر ربه

يبين من استعراض آيات الكتاب المنزل أن الشيطان لم ينكر ألوهية الخالق ولا قدرته ولا جبروته ولا عزته .... بل إنه أقسم بعزة الله حينما طلب أن ينظره إلى يوم يبعثون [1] .

وإنما خالف الشيطان أمر ربه وعصاه فى السجود لآدم، وهذا العصيان فى ذاته جرم ما بعده جرم ، **ولكنه يخضع فى الحساب عليه للعقاب** : شأن الشيطان فى ذلك شأن باقى المخلوقات.

وما أدل على ذلك مما جاء فى الكتاب المنزل فى العديد من القصص القرآنى عن قوم نوح وصالح وموسى وعاد وثمود .... حينما أنكروا ولم يمتثلوا لرسالات ربهم، إذ نزل بهم العذاب والعقاب سواء تمثل فى طوفان من الماء أو ريح صرصر أو برق ورعد من السماء .... الخ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

---

[1] " قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين " سورة ص آية ٨٢،٨٣

فالعقاب أو الجزاء أساساً من أهم خصائص القانون الوضعى لحفظ كيان المجتمع، ومن ثم فهو أولى بالأمر الإلهى لحفظ كيان الخلق.

وإعمالاً لهذا المبدأ القانونى ، فقد خضع الشيطان للجزاء عن مخالفته أمر ربه، وهو جزاء يناسب طبيعة تكوينه، حيث كان العقاب عذاب الحريق فى نار جهنم خالداً فيها أبداً... كل ما هنالك أن طلب الشيطان وقف تنفيذ الحكم إلى يوم يبعثون حيث أجابه الخالق [١].

ثانيا – تحدى الشيطان للحكمة الإلهية

اعترض الشيطان على الحكمة الإلهية بدعوى أنها لا تستند إلى المنطق ، إذ كيف له وقد خلقه الله من نار أن يسجد لآدم وقد خلقه الله من طين.

وهذا الاعتراض على الحكمة الإلهية يعتبر أحد الكبائر ولكن لا يخضع مرتكبها للعقاب، وإنما يجب أن تخضع هذه الحكمة للتدليل والبيان .... وما هو أكثر للنزال (خاصة وقد طلبه الشيطان)[٢] ، حتى يكون الرد والجواب العملى القاطع.

ولما كان المبدأ الذى يحكم الخلق هو الأخذ بالأسباب .. فالأولى إعماله عند إجلاء حقيقة هذه الحكمة الإلهية وبيانها.

---

(١) " قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين قال ربى فأنظرنى إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين " سورة ص، أية ٧٧ – ٨٥.

(٢) " قالى ربى فانظرنى إلى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ". سورة ص آية ٧٩ – ٨٣.

ومن ثم كان سياق هذه الحكمة أن يلتقى الشيطان بالإنسان فى حياته الدنيا، حيث تتأجج فى الإنسان كل غرائز البشر وأطماعه وجنوحه وحيوانيته .... يزكيها الشيطان بكل ما أوتى من وسائل خداعه ومكره ودهائه .... لينتهى هذا الصراع بما يؤكد علو النفخة الروحية فى الإنسان على مكونات الخلق أجمعين حتى ولو كانت من نور ونار.

وإجلاء هذه الحكمة الإلهية لم يكن فقط للشيطان، وإنما هو لكل من يعتبر من خلق الرحمن، ومن ثم فهو للملائكة والشيطان والإنسان .... وإن كان وقعه وصداه بالنسبة لكل منهم يختلف على النحو التالى :

الملائكـــة :

ليؤكد لهم ما سبق أن سلموا به عندما أنبأهم آدم بأسمائهم وقالوا لله " *سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الخبير*". ومن ثم كان نصرهم لأمر الله للإنسان ، ما بين كاتب وحافظ وسائق وشهيد " *وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون* " [١]، " *إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد* " [٢] " *وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد* " [٣] .... الخ.

الشيطـــان :

ليزداد خسارا على خسار، فتلحقه الذلة وتأخذه الحسرة، وينقلب على عقبيه من تيه وغرور لفرط غيظ وثبور، وهو يلاحق بنى الإنسان

---

[١] سورة الإنفطار ، الآية من ١٠ – ١٢.

[٢] سورة ق ، الآية ١٧.

[٣] سورة ق ، الآية ٢١.

عسى أن يتخلف عن الركب ضعيف الإيمان .... غبى قاصر البيـان .... شـحيح .. دهل ... مفتـون بجنـان، فيوسـوس إليـه فـى مكـر وخـداع .. ويقصيه عن المسيرة شأن الضباع من الحيوان. وهو يطمع أن يزيد عدد العصاه ، فيلقى معهم – بمنطقه المقلوب – الشفاعة يوم الحساب .

ولكن هيهات أن ينال من عباد الرحمن المخلصين، الذين استقاموا على الصراط واتبعوا الهدى وقالوا حسبنا اللـه .... ألا إنهم هـم الغـالبون .. وعد من الله .. ونصر قريب .. وبشر المؤمنين.

الإنســان :

يتجاوز الإنسان بالإيمان بالله وترقية الـروح والتـدرج نحـو منـازل الكمال، حد غلبة الشيطان وقهره، إلى مراتب الخلافة فـى الأرض إعمـالاً للحكمة الإلهية من خلقه.

ومن ثم فكل ما يقوم به الإنسان من أعمال البر والخـير .. والبعد عن الفواحش ما ظهـر منهـا ومـا بطـن .. وإتبـاع رسـالات السـماء .. والالـتزام بـالنهج القويـم .. **ليس فقـط لفـوزه علـى عـدوه اللـدود وهـو الشيطان، وإنما لإعلاء الحكمـة الإلهيـة مـن وراء خلقـه** .. وهـى تميزه بنفخة الروح الإلهية حتى على الشيطان الذى خلقه الله من نار السموم .

ولـذا فـإن آيـات الكتـاب المبيـن تشـير جميعهـا إلـى مسـاندة الـذات الإلهية للإنسان فى مسيرته ومجاهدته نحو إعمال هذه الحكمة حين قـال الحق " *إن الله يدافع عن الذين آمنوا* " [١] ، " *إن الله مع الصابرين* " [٢] ،

---

[١] سورة الحج آية ٣٨.

[٢] سورة البقرة آية ١٥٣.

" إن الله مع المتقين " [١] ، *" وإن الله مع المؤمنين "* [٢] ، *" إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون "* [٣] .

قال محدثى : لقد أوضحت لى ما سبق أن غاب عنى فعلاً – رغم قراءاتى المتعددة والهادفة إلى بيان الهدف من وراء خلق الإنسان وسعيه فى الأرض ومعاناته ثم موافاته المنية وكأن حياته صفحة من كتاب طواها الزمان بما لها وما عليها.

أما الآن فقد أدركت بيقين أبعاد القصة الحقيقية من وراء خلق الإنسان، سواء فى إطار ما يقبله المنطق العلمى أو النصوص الدينية وهى تحقيق الحكمة الإلهية كأحد القوانين السرمدية التى تحكم الخلق.

وإن كان مازال عندى استفسار : وهو لماذا يريد الشيطان أن يثبت أن الإنسان لا يستحق هذه المكانة الرفيعة التى خصه بها الخالق – علما بأن الملائكة بدورها تساءلت عن السبب فى هذه المكانة ؟ عندما قالت *" أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك "* [٤] .

قلت: الفرق أن الشيطان حينما تساءل إنما كان سؤاله **سؤالا استنكاريا** يعترض فيه على الحكمة الإلهية .. أأسجد لمن خلقته من طين وقد خلقتنى من نار .... فى حين أن تساؤل الملائكة كان **تساؤلا**

---

[١] سورة البقرة آية ١٩٤.

[٢] سورة الأنفال آية ١٩.

[٣] سورة النحل آية ١٢٨.

[٤] سورة البقرة ، آية ٣٠.

استفهاميا تريد به فقط أن تتعرف على الحكمة الإلهية حتى إذا ما انتهت إليها كان السجود .... الخ.

وهكذا انتهى الأمر بالنسبة للملائكة، ومـا زال الأمـر بالنسـبة للشيطان متوقفا على نجاح معركته مع الإنسان فى الأرض .

الجلسـة الثـالثـة

أبعاد الصراع بين الإنسان والشيطان

بعد الانتهاء من تناول فنجان القهوة .... وشكر عم صالح ... الخ.

قال محدثى: منطقى تحليل الموقف على هذا النحو :

خروج إبليس على قانون الطاعة وعصيانه للأمر الإلهى : وهو ما استحق عليه عقاب - شأن غيره من الخلق - حيث كان مقامه نـار جهنم خالداً فيها أبدا.

واعتراضه على الحكمة الإلهيـة : إذ كيف يسجد لبشر خلقه الله من طين وهو قد خلقه الله من نار السموم ، ومن ثم كان المنطق الفكرى والعلمى السليم هو فى جلاء الحكمة الإلهية من وراء هذا الأمر الإلهى... وكان لابد من المواجهة بين الإنسان والشيطان فى صراع تكون الغلبة فيه للإنسان لتتجلى الحكمة الإلهية .

وأريد فقط أن استوضح بعض النقاط، أهمها :
لماذا كانت الأرض التى نحيا عليها هى حلبة الصراع ؟
ومن هم أطراف الصراع ؟
ثم كيف تدور المعركة ؟
ثم ما هى نتيجة هذا الصراع ؟

قلت : دعنا نحاول، وذلك على النحو التالى :

أولا
مكـان الصـراع
﴿ الأرض ﴾

اختـارت المشـيئة الإلهيـة الأرض مكانـا للصـراع بيـن الإنسـان والشيطان، حينما قال الحق *"ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين"* [١] .

ولذا فقد تم إعدادها لتكون مسـرحا للأحداث : فهـى مـن طيـن منـه خلق الإنسان، وهى متاع عارض فقط بـالقدر الـلازم لحاجـة السفر وأداء الصراع، وهى موقوتة حيث أنها مستقر إلى حين، وفى النهايـة فهـى آيـة لمن يعتبر فيزكى نفسه فى قضية الصراع.

ونعرض فيما يلى لهذه السمات باختصار .

أولا – الأرض من طين :

وذلك لتساير الأرض خلق الإنسان الذى خلق بدوره من الطين .... **والملاحظ أن كل المخلوقات الحية التى تعيش أرضنا لهـا خصـائص مشتركة.** ذلك أنها جميعا – مهما كان شكلها أو حجمها أو نوعها أو جنسها – تتحد فى أنها مخلوقة من طين، أى من تراب ممزوج بالماء.

ومـن ثم هنـاك ارتبـاط بين مـادة الصنـع (وهـى الطيـن) وبيـن خصائص هذه المخلوقات .... وبيان ذلك يتضح إذا علمنـا أن جميـع هـذه المخلوقات تتحد فى الآتـــى :

---

[١] سورة البقرة ، آية ٣٦.

١ – حب البقاء :

حتى ولو أدى ذلك إلى الاعتداء على غيرها من المخلوقات، وإن كان الاعتداء يتخذ صوراً مختلفة بحسب نوع الكائن : فهو عند الإنسان والحيوان والحشرات قد يصل لحد القتل وسفك الدماء. وعند النبات قد يصل لحد التسلق على جذوع وفروع الأشجار (كالنباتات المتسلقة)، والاستئثار بمصادر الخصوبة والنمو كما هو الحال بالنسبة للأعشاب البرية المتوحشة .... وهكذا.

ونظرة إلى ما يجرى فى غابة مثلا لترى هذه المخلوقات جميعها مهما كان نوعها، وهى تتصارع من أجل البقاء فى كوكبة من المظاهر التى لا تدخل تحت حصر.

٢ – تسلط الغرائز والشهوات :

نكاد لا نجد كائناً على وجه هذه البرية ينبض بالحياة، إلا وتراه أسير شهواته وغرائزه. ونظرة إلى الطيور فى موسم التزاوج، والحيوان والإنسان حين تتأجج فيه غريزة الجنس. ويكفى لذلك مثلا النحل من الحشرات حين يموت الذكر بعد اللقاح.

وما يقال عن الجنس يقال أيضا ويزيد عن العطش والجوع، إذ فى سبيل إشباعهما تهلك ممالك وتستعبد دول وتستذل أعناق وتفنى حضارات.

وعن الحيوان والطير فحدث ولا حرج .... إذ يبتلع كبير السمك صغيره، وتأكل الحيوانات وليدها .. إذا استبد بها الجوع، ناهيك عن العطش فهو أشد وبالاً وأكثر قيلاً.

ثانيا - الأرض متاع عارض يكفى بالكاد لحاجة السفر وأداء الصراع :

تتميز الأرض بأن مواردها لا تكفى احتياجات ممالكها الحية (أى أن فيها دائما ندرة) ، وإلا لو كانت هذه الموارد من الوفرة لكنا فى جنة من جنات الله.

والندرة حيث يزيد الطلب على العرض دوما، هى التى تسبب الصراع سواء على مستوى الفرد أو الجماعة .... حيث تتأجج الغرائز والشهوات.

ومن ثم فتركيبة الحياة الدنيا التى نحياها على الأرض بهذه الصورة التى لا تفى بها الموارد المحدودة لاحتياجات الأفراد التى لا تنتهى .... هى أصلح تركيبه لاختبار غرائز الإنسان وشهواته، ومن ثم تكون خير حلبة للصراع بين الإنسان والشيطان.

أما لو أن الإنسان وجد فى جنات وارفة حيث يزيد المعروض دوماً على المطلوب، ما كان هناك أبداً من حاجة للصراع من أجل الاستئثار بالمال .... ولا كانت هناك شهوات تتأجج طالما هناك حور عين رهن المطلوب ويزيد .... الخ . وبالتالى كان الإنسان فى حالة إشباع دائم. ومن ثم يتجرد وقتها عن نزعاته وشهواته وحبه لسفك الدماء .... وهى أهم خصائص البشر، ومن ثم يفقد الصراع مع الشطان مصداقيته.

وخير دليل على ذلك أن آدم عليه السلام كان يعيش حياة الجنة مع زوجته حيث كانا لهما فيها ما تشتهى الأنفس ، **جرهما الشيطان إلى حيث الندرة** : حيث وسوس إليهما بشجرة الخلد وملك لا يبلى .... فتحركت

الغرائز ومالت الشهوات للاستئثار بهذه الشجرة حتى ولو كلفتهما الخروج على قانون الطاعة الإلهية فأكلا منها... ولو كانت هذه الشجرة من الكثرة .. ما كانت قد تحركت الغرائز والشهوات وما وجد الشيطان مجالا لإغوائهما .. وما كان هناك صراع تدور حلقاته.

ثالثا – الأرض موقوتة :

ذلك أنها مستقر ومتاع إلى حين، ومن ثم يجرى عليها الزمن إلى يوم الوقت المعلوم. وبالتالى كان لابد أن تعد بحيث تتكامل لها كل وسائل قياس الزمن.. من شموس وأقمار لها مسارات محددة بدقة فى السماء [١].

فالمعروف أن من دورة الأرض حول نفسها يتعاقب الليل والنهار، ومن دورتها حول الشمس تتعاقب الفصول والسنون .... وهكذا.

ولابد أيضا من النجوم والكواكب ليهتدى بها الإنسان فى ظلمات البر والبحر، ويتعرف بها أيضا على موقعه من الزمن

رابعا – الأرض آية من آيات الخلق :

ذلك أن فى خلقها وما يحكمها من قوانين وما عليها من ظواهر، وما بداخلها من كنوز وما فيها من مسالك وشعب وجبال، وما ينبت منها من زرع، وما يجرى عليها من ممالك حية، وما تحتضنه من بحار وأنهار .... كل ذلك آيات لقوم يعقلون [٢] .. بهدف أن يزداد إيمانهم

---

[١] " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذ هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولاالليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون " سورة يس آية ٣٧ – ٤٠.

[٢] " إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب " سورة آل عمران آية ١٩٠. " إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى =

بخالقهم الذى خلق كل شىء فأحسن تقديره .... وخير سلاح لمواجهة الشيطان فى قضية الصراع هو الإيمان بالخالق، على نحو ما سيبين فى حينه.

ثانيا
طرفا الصراع
﴿ الإنسان والشيطان ﴾

الصراع الدائر هو بين الإنسان والشيطان، وحاشى لله أن يظن البعض أن الصراع هو بين الإله الخالق والشيطان.

فالإله قاهر فوق عباده له الأمر وله الحكم، وما الشيطان إلا خلق ضعيف من خلقه، يقر للإله بالعزة والجبروت وذلك عندما " *قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين*"[1] .... وحين نزل عليه العقاب طلب من رب العزة أن ينظره إلى يوم يبعثون، وكان فصل

= فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون " سورة البقرة، آية ١٦٤، " أفلا لا ينظرون إلى الآبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت " سورة الغاشية ، الآيات من ١٧-٢٠، " والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها " سورة النازعات ، آية ٣٠-٣١، " ثم فقنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غُلبا وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولإنعامكم " سورة عبس ، آية من ٢٦ -٣٢

[1] سورة ص ، آية ٨٢، ٨٣.

الخطاب أن " *قال فأخرج منها فإنك رجيم *وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين * قال ربى فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين* " [١] وهذا لا يتأتى إلا عن إله قوى متين لا يدانيه فى القدرة أى من خلقه .... حتى ولو تضافر الخلق أجمعين.

وعلى الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة، ذلك أنه ليس هو الحكم الذى ينتصر لله على الشيطان أو العكس، وإنما الحكم فى الحقيقة هو الإله الذى يفصل بقضائه بين الإنسان والشيطان ... بحسب ما إذا كان الإنسان قد دخل حظيرة الشيطان واتبع طريقه فى الغواية وسلم له القيادة، أم أنه صد الشيطان عن اقتدار وقهره عن يقين وانتصر عليه عن إيمان.

ومن ثم فالعداء بين الإنسان والشيطان عداء مباشر أى أن المواجهة محتدمة بينهما رأسا [٢] . وبالتالى فالهزيمة والنصر هى جزاء أيهما فى قضاء الله.

وهكذا نجد أن طرفى الصراع هما الإنسان والشيطان والمواجهة مباشرة بينهما، ومن ثم فالهزيمة أو النصر هى لأيهما.... والإله من بعد ومن قبل هو الرقيب الحسيب والحكم العدل.

ومعرفة العدو الحقيقى فى أى صراع : هو الذى يحقق الفوز ذلك أن الاهتمام يتركز على هذا العدو فتحيط بقدراته وتتعرف على وسائله فى

---

[١] سورة ص ، آية ٧٧ – ٨٢.

[٢] وفى ذلك يقول الحق " إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير " سورة فاطر ، آية ٦.

الهجوم والدفاع .... وهكذا ، ثم تؤهل نفسك لاقتناص الفوز بتطوير ذاتك وإعداد قدراتك .... وهكذا.

قاطعنى محدثى : ملاحظة أخشى أن تفوتنى مفادها .... إذا كان الصراع أساساً بين الإنسان والشيطان، **فإنى أعلم أن أى صراع يتطلب الندية** – خاصة إذا كان النصر ليس محققاً لأى من طرفيه ....

فأين هى الندية بين شيطان خلق من نار وإنسان خلق من طين، والشيطان بحكم خلقه من نار له قدرات تفوق قدرات الإنسان بكثير، ويكفى أنه يرى الإنسان هو وقبيله من حيث لا يراه الإنسان؟

قلت : الندية مطلوبة بالقطع فى أى صراع، ولكن ليس بالضرورة أن تكون ندية تكوين، وإنما يكفى أن تكون ندية إمكانيات. وهو ما يتحقق فى فرضنا هذا، وبيان ذلك يتضح من الآتى :

١ – ندية التكوين

علينا أن نسلم بأن الشيطان يتفوق على الإنسان من حيث التكوين:

إذ هو مخلوق من نار بينما الإنسان من طين، والنار معروفة بأنها من تردد أعلى من الطين ومن ثم يمكن أن تخترق المادة وتنتقل بسرعة أكبر، والعكس يقال بالنسبة للطين حيث الجمود والثبات، ومن ثم فهو من تردد أدنى.

وهذا الاختلاف فى التكوين يفرض اختلافا فى الطبيعة:

ومن ثم نجد طبيعة الشيطان تتفق وخصائص تكوينه، **ومن ثم فهو من طبيعة نارية** .... والطبيعة النارية فى علم الفلك حيث دراسة الأبراج

- والقياس مع الفارق - نجدها شديدة التأثر والانفعال، نافذة الصبر، سريعة الحكم على الأشياء، تطيح بمن يعاندها، كثيرة التقلب، تحكمها الأهواء ولا تغلب المنطق .... الخ.

فى حين نجد أن طبيعة الإنسان المخلوق من الطين تتفق وخصائص تكوينه، **ومن ثم فهو من طبيعة ترابية** .... والطبيعة الترابية، حيث دراسة الأبراج - والقياس هنا مع الفارق أيضا - نجدها تميل إلى السكينة والهدوء ، هادئة الطبع، مستقرة الفكر، يحكمها المنطق فى تصريف الأمور .... وإن كان يؤخذ عليها تحكم الغرائز والشهوات بدرجة أكبر .... إذ تتأجج فيها العواطف نتيجة حبها وارتباطها بالأرض وما هو مستقر عليها.

ومعلوم أن الطبيعة النارية، عندما يكون المطلوب سفك الدماء والحرب والدمار ،وإشعال الغرائز والشهوات، والكره والانتقام، أقوى بكثير من الطبيعة الترابية التى تميل إلى السكينة والهدوء .... ومن ثم فالشيطان أقوى من حيث ندية التكوين.

٢ - ندية الإمكانيات

قد تختلف ندية التكوين كما بينا، ومع ذلك تتحقق الندية فى الإمكانيات، فليس بالضرورة أن يصارع أسد أسداً وإنما يمكن للأسد أن يصارع الثعبان .... فرغم اختلاف التكوين بينهما إلا أن هناك ندية فى الإمكانيات، فعند الثعبان من الأسلحة ما قد يتساوى به مع الأسد وهكذا، ومن ثم يحتدم الصراع وتكون الغلبة لأكثرهما إمكانيات .

وهكذا الإنسان فى صراعه مع الشيطان، تختلف بينهما ندية التكوين، ومع ذلك قد تتساوى بينهما ندية الإمكانيات، وذلك على النحو التالى :-

١ - الشيطان :

كلنا يعرف إمكانيات الشيطان وأسلحته، فطبيعة تكوينه من تردد أعلى يجعله - كما بينا - قادرا على اختراق المادة، ينفذ إلى حيث أعماق الإنسان، بحيث يسرى منه مسرى الدم فى العروق .. يوسوس له ويغويه ويزين له الباطل ويطريه .... وقد يصل لحد تقمصه فى حالات كثيرة بحيث يصير الإنسان إنساناً فى ظاهره، شيطانا فى باطنه.

والإنسان عن ذلك غافل، ذلك أنه لا يرى الشيطان ولا يتحسسه ... وقد يصل لحد إنكاره تماما عند من يبنى علمه على المشاهدة والحس. وقد يصل لحد حبه ومصادقته، عند من ينظر إلى العلم من زاوية أكثر انفراجاً، إذ الشيطان يخفى كوامنه ولا يظهر منه إلا الصديق الحميم والناصح الأمين والخل الوفى. فهو دائما يساير الإنسان هواه، ويزين له الغرائز والشهوات ومجالسها، ولا يظهر له أبداً بوجهه القبيح المرعب، ولا يفصح له عما يكنه له من سوء وما يريده له من شر.... وذلك هو مكر الشيطان.

٢ - الإنســـان

وأيضا كلنا يعرف إمكانيات الإنسان المرتبطة بتكوينه، إذ تكاد تكون معدومة، فهو لا مخلب له ولا ناب، وليس له من وسائل الدفاع ما

يدفع به أذى بعوضة ولا لدغة ثعبان، ولا ناب أسد أو فك تمساح أو حتى عضة كلب.

فهو الكائن الوحيد الذى يكاد يخلو من وسائل الدفاع الطبيعية التى وهبها الخالق لغيره من المخلوقات.... ونظرة فى الطبيعة من حولنا نجد أن النحلة والنملة والبعوضة والبكتريا والحشرات والحيوانات والزرع قد وهبها الخالق وسائلها فى الدفاع عن نفسها .. لحد أن الأسد لا يملك قهر السلحفاة وقد خصها الخالق بهذا الدرع الواقى .. الخ.

والإنسان بحسب تكوينه هو الفريسة السهلة والصيد الثمين لغيره من المخلوقات .... وما عليك إلا أن تلقى به فى غابة من الغابات لتجده أثرا بعد عين فى دقائق معدودة.

وعلى ذلك فإن إمكانيات الإنسان لا ترتبط أبداً بأصل تكوينه أى بقدراته البدنية .... وإنما هى فى الواقع ترتبط بقدراته العقلية.

والقدرات العقلية عند الإنسان تفوق كل القدرات البدنية التى وهبها الخالق لكل المخلوقات.. بحيث يمكن أن يقال أن له وضعا متميزا بين الخلائق .

وربما هذا هو التفسير الصحيح للشرط الذى علق عليه الخالق سبحانه السجود للإنسان - كما بينا سلفاً - امتثالاً للأمر الإلهى *" إنى خالق بشراً من طين **فإذا سويته** ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين "* .

إذ المقصود بالتسوية هنا ، لا يمكن أن تكون مجرد التسوية البدنية.. أى الوقوف على رجلين، شأن العصفورة أو غيرها من الطيور أو العديد من القرود الراقية .

إنما المقصود هو التسوية العقلية، ذلك أن هذه التسوية هى التى تميز الإنسان على غيره من المخلوقات. ويكفى أن نراقبه الآن وقد ساد كوكب الأرض بما فيه، وجاب الفضاء تطلعاً للكواكب الأخرى. نعم لقد توارت المخلوقات صغيرها وكبيرها حيث ظهر الإنسان عليها بمظهر السيد الذى يأمر فيطاع وذلك بما وهبه الخالق من قدرات عقلية.

وفى هذا ما يقطع بصدق القائل " *إنى جاعل فى الأرض خليفة* "[1] **.. إذ أتحدى أن يكون هناك خليفة فى الأرض من بين المخلوقات جميعا سوى الإنسان .**

وهذه المكنات العقلية المتفردة هى سلاح الإنسان فى حربه مع الشيطان .... إذ هى التى تجعل المعركة سجالا بين شيطان متميز بقدرات خلقية وبين إنسان ينفرد بهذه الطاقات العقلية .

وربما سلاح الإنسان أقوى، ذلك أن تخفى الشيطان وعدم ظهوره عياناً قد يقال أنها أهم أسلحته فى حربه مع الإنسان، والحقيقة أنها قد تكون أهم وسائل دفاعه، إذ ربما لو ظهر الشيطان بكل طاقاته عياناً لقهره الإنسان، وربما سخره شأنه فى ذلك شأن العديد من عمالقة المخلوقات، وذلك بفضل طاقاته العقلية المتفردة.

---

[1] سورة البقرة ، آية ٣٠.

ثالثـا

كيف تدور المعركـة

والسؤال الآن هو فى كيف تدور المعركة .... هكذا بادرت محدثى الذى كان قد فرغ من تناول قهوة عم صالح وقال .. هاتها.

إن أهم دعائم النجاح فى أى معركة هى الإلمام بشخصية الخصم، وطاقاته وقدراته، وطريقته فى التفكير وتخير الوقت المناسب للهجوم... وهكذا.

ونحن فيما يلى نعرض لكيفية إدارة المعركة بالنسبة لكل من الشيطان والإنسان على النحو التالى :

أولا – الشيطان

والحق أن الشيطان بارع فى دراسته للإنسان.... والإنسان عن دراسة الشيطان غافل ... إلا القليل من الناس.

وربما السبب هو أن الشيطان هو الذى خرج فى الأصل على قانون الطاعة واعترض على الحكمة الإلهية .... إذ كيف يسجد لمن خلقه الله من طين وهو مخلوق من نار.

أى أن الشيطان هو الطرف الإيجابى فى هذه المعركة، ومن ثم كان عليه أن يثبت لخالقه قدرته على أن يخرج هذا الإنسان بدوره على قانون الطاعة، ومن ثم لا يستحق هذا الإنسان أن تنعقد له الخلافة، وتسجد له

الملائكة إعمالا للأمر الإلهى .... وهو ما سبق أن اعترض عليه الشيطان.

ولما كانت البينة على من ادعى حسب ما تقضى به النصوص القانونية الوضعية، **كان على الشيطان أن يثبت حقيقة ما يدعيه** وهو أن الإنسان دون هذه المكانة التى منحها الخالق إياه .... وأنه محل للغواية وتسلط الغرائز والشهوات .... الخ.

ومن ثم فإن الشيطان يضع الإنسان تحت مجهر، يتعرف من خلاله بوضوح تام عن أبعاد خصمه اللدود وهو الإنسان، الذى كان سبباً فى إخراجه من رضوان الله .... **وربما ما يكشفه هذا المجهر عن الإنسان فى خطوطه العريضة، هو تسلط الغرائز والشهوات عليه بحكم أصل خلقته وتكوينه، ثم انفراده بطاقات عقلية هى من تسوية الخالق له وهى التى ينفرد بها عن غيره من المخلوقات.**

ومن ثم فإن الشيطان فى حربه مع الإنسان يلعب على هذين الوترين .... ويكاد لا يتخطاهما أو يتجاوزهما إلا بالنسبة للقلة من الناس.

الوتر الأول – تسلط الغرائز والشهوات :

معلوم أن الإنسان بحكم تكوينه من التراب تتسلط عليه الغرائز والشهوات التى تتسلط على غيره من المخلوقات التى تشاركه الخلق من طين.... فهو يسفك الدماء إشباعاً لغريزة حب البقاء ، ويحارب ويصارع من أجل إشباع غريزة الجنس. وما يقال عن الجنس يقال عن الجوع والعطش. ناهيك عن حبه للانتقام وما يداخله من حقد وكراهية... الخ.

الوتر الثانى – التسوية العقلية :

وهى التى تجعل الإنسان يتحكم فى غرائزه وشهواته ويعمل على إشباعها بغير طريق سفك الدماء، وتحد من انفعالاته فتقيد من شهوة الانتقام والحقد والجشع .... الخ، وقد تحولها إلى تسامح ورضا وقناعة.

وسبيل الشيطان على الإنسان للايقاع على هذين الوترين هو :

أولا : تأجيج الغرائز والشهوات: بحيث يضعف فى الإنسان قدراته العقلية، ولا يجد مفراً من الوقوع فى الذلة وارتكاب الخطأ. فهو يوسوس للإنسان ليل نهار بما يحرك فيه هذه الغرائز والشهوات ، فلا يقوى الإنسان على دفعها.

ثانيا : تغييب العقل : بحيث يصير الإنسان بوهيميا شأن الدواب من الحيوان، لأن الشيطان يكون قد حرمه من أهم سلاح اختصه به الخالق .... إذ متى غاب عقل الإنسان فقد السيطرة على شهواته وغرائزه وتمادى فى انفعالاته .... وهكذا.

والإنسان يغيب عقله وبالتالى يفقد السيطرة على انفعالاته على الأخص فى الحالات الآتيــة :

١- السُكْــر :

يترتب على السُكر، أيا كان المادة الموصلة إليه – سواء الخمر بأنواعها أو غيرها من المخدرات أيضا بأنواعها – أن يعيش الإنسان فى عالم غير واقعه بحيث لا يلتزم حدود الواقع الذى يعيشه أو قيوده، وإنما هو فى عالم خيالى يتصوره بحسب ما يريد ويشتهى . ومن ثم فالعقل

الذى يضع القيود على واقعه يتعطل ويفقد فاعليته طيلة فترة السكر هذه. وهنا يتصيد الشيطان الإنسان ويجد فيه مأربه ، إذ أنه يتعامل مع إنسان فاقد السيطرة على تصرفاته ، ومن ثم فهو طوع بنانه يوجهه حيث يشاء ويرضى.

خاصة وأن تأثير السكر على الغرائز والشهوات كالنار على الهشيم، تجعلها متأججة ملتهبة ، ومن ثم يكون الإنسان قمة فى البوهيمية أو الحيوانية. وهنا يجد الشيطان ضالته المنشودة بعد أن تجرد الإنسان من تسويته العقلية، وتحكمت فيه الغرائز والشهوات وتدنى إلى حيث نشأته من التراب، وخلع عن نفسه عرش الخلافة فى الأرض.

وربما هنا تكمن الحكمة من تحريم الخمر واقتلاع جذورها فى الإسلام حتى لا يجد الشيطان على الإنسان سبيلا .

٢ – الغضب :

إن أكثر الأوقات التى يفقد فيها الإنسان السيطرة على تصرفاته، والتى يكاد أن يغيب عقله تماما عن إدراك واقعه، هو وقت أن يتملكه الغضب .... ولذا فإن الشيطان يعمل جاهدا على إشعال نار الفتنة ويزكى الحقد والحسد والانتقام ونفاذ الصبر ليصل بالإنسان لمرحلة الغضب .... وعندها حدث ولا حرج فقد تملكه الشيطان . ويقول البعض – علماء النفس – أن الشيطان قد تقمصه للحد الذى تنطبع صورته على شكل الإنسان وهيئته، ومن ثم يجول به الشيطان ويصول حيث يريد الشيطان ويشتهى.

٣ - الفـزع :

الفزع هو شدة الخـوف، بحيث يتصـرف الإنسـان بـرد الفعـل، بعـد أن يكون قد فقد التعامل مع الموقف بالفعل المبنى على حسابات العقل. أى أن الفزع وهو الخوف الشديد المفـاجئ الـذى يكـاد يشل طاقـات الإنسـان العقلية عن التصرف، ومن ثم يتصرف الإنسـان بغرائـزه وفطرتـه. وهنـا يجد الشيطان فرصته فى تصيد الإنسان، بـل ويكـاد يجمـع مـن لهـم صلـة بدراسة علاقة الجان بالإنسان أن هذه هى إحدى حـالات المـس الشـيطانى للإنسان .

٤ - الجــزع :

والجـزع بـدوره هـو شـدة الحـزن الـذى يفقـد الإنسـان قدرتـه علــى التحكـم فـى انفعالاتـه ، فتنطلـق هـذه الانفعــالات بـلا قيـد وقـد تعصــف بصاحبها. وكثيرا ما نجد حـالات الانتحـار - وفيهـا يصـل الإنسـان لقمـة فقدانـه السيطرة بمنطـق العقـل - إنمـا تكـون فـى أعقـاب مصيبــة ألمــت بالإنسان فولدت عنده حالة من الحـزن الشـديد، لا تحتملهـا طاقاتـه العقليـة .... وهنا يكون الشيطان قد وجد ضالتـه إذ يتقـابل مـع الإنسـان وقـد فقـد سلاحه.

وحتــى لا يفقــد الإنســان ســلاحه وهــو قدراتـــه العقليــة إزاء هذه المواقـف، فقد حرم الديـن علـى الإنسـان شـرب الخمـر وكـل مـا مـن شأنه أن يصل به إلى حالة السـكر، كمـا انـه نهـاه عن الغضـب، وعلمـه كيف يواجه حالات الفزع بالأنس بالله، والجـزع بـالصبر والسـلوان .... وهكذا.

ثانيا - الإنســــان

يقف الإنسان من الصراع الدائر بينه وبين الشيطان فى موقف الدفاع، أى أن دوره مدعى عليه يعفى من شرط الإثبات.

وإنما كما بينا يقع على الشيطان عبء إثبات أن الإنسان خرج على قانون الطاعة وأفسد في الأرض وسفك الدماء، وبالتالى لا يستحق تلك المكانة الرفيعة التى خصه بها الخالق وكانت محل اعتراض الشيطان.

وعلى ذلك فالصراع مفروض على الإنسان، وليس من سبيل للإنسان لدفعه، إلا بإعمال تلك الطاقة العقلية التى زوده بها خالقه كسلاح يقيه مكر الشيطان.

وبنظرة عقلانية فاحصة إلى عدوه الشيطان يجد أن الشيطان من تكوين أقوى منه، حيث يحيط به من كل جانب دون أن يراه الإنسان .. والأهم من كل ذلك أنه عدو محكوم عليه بالنار خالداً فيها أبد الآبدين. وهذا أخطر عدو، إذ لك أن تتصور أن هناك إنسانا محكوم عليه بالإعدام فر من سجنه ليتوعدك بالقتل حيث أنت الذى كنت السبب فى هذا الحكم.

وهكذا نجد الشيطان من تكوين أقوى من الإنسان، ومن طبيعة نارية متأججة متسرعة ، محكوم عليه بالنار خالداً فيها أبدا، يسرى من الإنسان مسرى الدم فى العروق، ومنظر إلى يوم يبعثون، فى مهمة محددة وهى إغواء الإنسان وإخراجه من رضوان الخالق.

وللشيطان أساليبه وطرقه أو بالأصح أسلحته المتعددة يفاضل أو يجمع بينها لإخضاع الإنسان لسلطانه وتوجيهه إلى حيث مراده .. من

فسوق وعصيان ، تشفيا من هذا الإنسان الذى أخرجه يوما من رضوان الله، وكتب عليه الرجم إلى أبد الآبدين.

والسؤال الآن هو هل تكفى هذه التسوية العقلية التى اختص بها الخالق الإنسان، لأن يدافع الإنسان - رغم ضعف تكوينه وطبيعته المادية والحيوانية وغرائزه وشهواته البوهيمية - ضد عدوه العاتى وهو الشيطان الذى يقف له بالمرصاد ؟

وللإجابة على هذا التساؤل يجب أن نشير إلى ما سبق وهو أن الإنسان قد اختصه الخالق بالإضافة إلى التسوية العقلية بنفخة الروح التى تجعل من الإنسان الكائن الوحيد الذى ينفرد بالإرادة الذاتية فى الاختيار والمفاضلة بين البدائل.

والحقيقة أن أسلحة الإنسان ليست من طبيعته ولا داخلة فى تكوينه المادى؛ فليس هناك من عضو فى جسم الإنسان يسمى العقل وليس هناك آخر يسمى الأنا، وإنما الإنسان يفكر ويختار بين البدائل دون أن يتعرف حتى على الكيفية التى يتم بها ذلك .... والأصح أن هذه الأسلحة ليست إلا طاقات أو مكنات وهبها الخالق للإنسان.

وهذه الطاقات أو المكنات يمكن أن تظل هامدة، اللهم إلا إذا كان هناك من يحركها وينميها ويوجهها ويحدد لها هدفها، وعندئذ تصير قدرات وطاقات هائلة دونها كل أسلحة الشيطان وقبيله .

والأولى بخالق الإنسان أن يعرفه قدر هذه الطاقات التى اختصه بها وكيف ينميها .... والأهم كيف يستعملها فى قضية صراعه مع الشيطان .... ويترك للإنسان سبيل الاختيار .

وقد استهل الخالق بيانه فى رسالته السماوية الخاتمة، فيا يتعلق بقضية الصراع بين الإنسان والشيطان، بالآتــى :

أولا – التعريف بطاقات الإنسان (أسلحته) وقضيته مع الشيطان :

١ – **تعريف الإنسان بقدر ذاته وحدود مكانته** وسموه على الخلائق – بما وهبه إياه من تلك التسوية العقلية والنفخة الروحية التى بعثت فيه الإرادة الذاتية المختارة – وحقيقة دوره فى الوجود.

٢ – **إحاطة الإنسان بما دار فى الملأ الأعلى** بين الخالق وملائكته عن قصة خلقه كخليفة فى الأرض .... وهى واقعة تسبق وجوده. وليس من سبيل إلى إدراكها بمنطق العقل. وليس هناك من واقعة أخرى تفوقها من حيث المنطق العلمى المجرد بحيث يمكن قبولها، ومن ثم يجب التسليم بها إيمانا بصدق القائل.

٣ – **تحذير الإنسان من عدوه الشيطان،** ولما كان الشيطان بطبيعة تكوينه غير ظاهر للإنسان بحيث لا يمكن أن يتعرف عليه من خلال واقع ملموس. لذا كان لابد من التعريف به من خلال كلام مكتوب، تنزل من علام الغيوب .... ليكشف للناس ماهية هذا الخصم اللدود، الذى قاده عناده أن يحتنك الإنسان فى صراع فى الدنيا، فى صراع لن يجنى منه ثمرة، وقد قضى عليه بنار جهنم

خالدا فيها ... وإنما فقط ليغوى معه من الناس من يشـاركه العذاب المهين فيشفى غريزة الانتقام ، خاصة وأنه عدو لعين.

ثانيا – كيفية استعمال تلك الطاقات (الأسلحة) :

يتعين على الإنسان فى استعمال سلاحه الذى يقيه مكر الشيطان **أن يستعمل مكنتيه العقلية والإرادية، بمفهوم أن يدرك أبعاد الصراع بفكره وعقله .... الأهم أن يعمل بإرادته ما انتهى إليه فكره.** إذ كثير من الناس من يقدح فكره لتفهم أمر من أمور دينه أو دنياه ويعتقد أنه وصل المراد، فى حين أنه يحاسب على ما انتهى إليه فكره طالما لم يقرن ذلك بعمل إرادى من جانبه.

فالفكر مناطه العقل، والعمل مناطه الإرادة ولابد من الجمع بين العقل والإرادة فى مواجهة الشيطان ومكره..

قاطعنى محدثى : وكيف أعمل لمواجهة الشيطان ؟ وكيف أشهر ضده سلاحى ؟ وكيف أصيب منه مقتلا وأنا عنه عمى وهو عنى قصى ؟

قلت ؟ الأمر فعلا مشكلة لو كان المطلوب منك أن تهاجمه وتقضى عليه .. ولكن إذا كان دورك أن تدفع عنك مكر الشيطان فالأمر فى المتناول ، وقد أمدك الخالق بوسائل دفاعية تمنع عنك كيد الشيطان وتحميك من سلطانه .

وهذه الوسائل الدفاعية فى حقيقتها تحصينات للإنسان من عدوه الشيطان، أو كما يقولون فى لغة القانون دفوع يدفع بها الإنسان دعوى الشيطان.

ومن هذه الوسائل الدفاعية أو التحصينات أو الدفوع ما يلى:

١ - أداء الفرائـض :

تعتبر الفرائـض بالإضافـة إلـى مـا تحملـه مـن طاعـة الخـالق، أهـم التحصينات ضد الشيطان :

أ - الصلاة :

حجـاب بيـن الإنســان وبيـن الشـيطان، إذ فيهـا يكـون الإنســان فــى محراب الخالق.. وبعدا للشيطان أن يقترب منه .. دعه يوسوس من بعيد .. ولا تعجب فإن كيد الشيطان ضعيف.

ناهيك عن أن الصلاة بما فيهــا مـن تركـيز فـى الـذات العليـا تقـوى الإرادة فى الإنسان وتجعله قاب قوسين أو أدنى من مصـدر تلـك الإرادة، فتنجلى حجب وتصدح أنوار من فوقها أنوار هيهـات أن يدانيهـا الشـيطان وإلا احترق .. **أد الصلاة بحقها** واتبعها بـالنوافل عندهـا سـتعلم مكـانتك ، وقدر سلاحك .. أيها الخليفة فى الأرض.

ب - الصـــــوم :

كبح للشهوات وقيد على الغرائز ورفعة بالإنسان من درك الحيوانية البوهيمية حيث التكوين من طين ، إلــى حيـث درجـات عاليـة مـن النـور، فيصادف الشيطان تكوينا جديدا لا يتأثر بأسلحته الموجهة دوما نحو إنسان مكبل بالشهوات والغرائز.

ج - الحــج

معراج إلى الله حيـث فيـه تلبيـة للنـداء، وهـو رجـم للشـيطان الـذى

وصفه رب العزة بأنه رجيم حين قال : *" فاخرج منها فإنك رجيم "* [1] ، ذلك أن الشيطان سيظل يرجم على كل من أذن له الله بالحج إلى يوم يبعثون.

حقا إن الرجم حصوات من بعدها حصوات، والله وحده يعلم وقعها على الشيطان فقد تكون قذائف من نار .. ولكن حتى لو كانت بردا وسلاما فإنها دلالة الخلاص الروحى من براثن الشيطان لبنى الإنسان.

د - الزكـــاة

مع كل زكاة مؤداه يظل الإنسان يتزكى ويتزكى حتى يصير رفيع الدرجات، وهنا تبعد الشقة بينه وبين الشيطان الذى يتصيد فقط من هم فى الدرك الأسفل طامعين قابعين على أموالهم ممسكين حتى على السائل والمحروم.

هـ - شهادة أن لا إله إلا الله :

يعتبر النطق بالشهادة والعمل بها قدس الأقداس، حصن الذات، نور الأنوار حيث لا شيطان ولا جان.... حين يكون يقين عقلك واردة عملك لا إله إلا الله .... ماذا تخشى من مخلوق مثلك فى مملكة الرحمن، لا يملك لنفسه دفع عذاب يوم الدين، أخذته العزة بالإثم إلا أن يغوى من كان عن الذكر من الغافلين.

أتحسب أن من كان يقينه بالله أنه لا إله إلا هو سيتركه فى قضية الصراع مع الشيطان بلا ناصر ولا معين .. كلا. أليس هو القائل

---

[1] سورة الحجر، آية ٣٤، وسورة ص ، الآية ٧٧.

" إن الله مع المتقين "[١] *" إن الله مع الصابرين "*[٢] *" ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز "* [٣] ، *" فينسخ الله ما يلقى الشيطان "*[٤] *" والله يرزق من يشاء بغير حساب "* [٥] *" وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء "* [٦] *" وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم "* [٧] *" وعلى الله فليتوكل المؤمنون "* [٨] ، أليس هو الله الذى يحاسب على الحسنة بعشرة أمثالها ويضاعف لمن يشاء.... آيات وآيات وغيرها مزيد كلها تبين مدى نصرة الله للذين آمنوا بوحدانية الله واتقوا وعملوا الصالحات طمعا فى مرضاته.

وطوبى لمن كان الله ناصره .. فالله خير الناصرين. وذلك بحسبان أن الإنسان فى قضية الصراع مع الشيطان يحتاج إلى دعم وسند، حتى تكون هناك ندية الإمكانيات بين طرفى النزاع .

٢ - قراءة القرآن

" فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم "[٩] ، حتى لا يكون للشيطان عليك سلطان فتسمع رسالة ربك بأذن واعية وقلب مفتوح .. فيصلك المدد مدراراً وترى من آيات ربك ما يكشف لك ستر الشيطان: عدو مبين، ماكر لعين، فلا تنخدع بمكره ولا تلين

---

[١] سورة البقرة ، آية ١٩٤، سورة التوبة آية ٣٦، آية ١٢٣.

[٢] سورة البقرة آية ١٥٣، سورة الانفال آية ٤٦، آية ٦٦.

[٣] سورة الحج ، آية ٤٠

[٤] سورة الحج ، آية ٥٢.

[٥] سورة النور ، آية ٣٨.

[٦] سورة الزمر ، أية ٦١.

[٧] سورة الحديد ،أية ٢٩.

[٨] سورة المجادلة ، آية ١٠

[٩] سورة النحل ، آية ٩٨.

لجنبه وقد علمت بمراده وأحطت بمكنونه .... وعندئذ تشهر سلاحك فى وجه عدو معلوم لك .. فإن لم تصبه بلوعة، فعلى الأقل تأمن شره ودهاءه.

٣ - الإخلاص فى العبادة :

والواقع أن الإخلاص فى العبادة هى لمن تقرب وتقرب وأخلص وأخلص .. حتى صارا عبدا ربانيا، أو عبدا من عباد الله المخلصين. وهؤلاء لا سلطان للشيطان عليهم مصداقا للآية الكريمة " *قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * **إلا عبادك منهم المخلصين*** " [١] .

فالإخلاص فى العبادة هو أهم التحصينات ضد الشيطان أو هو فى لغة القانون **دفع بعدم قبول الدعوى** التى أقامها الشيطان ضد الإنسان.

وهكذا يمكن للإنسان إذا ما استعمل هذه الوسائل الدفاعية بإدراك عقلى وعمل إيمانى يكون أمضى سلاحا فى قهر مكر الشيطان .. وهكذا تدور المعركة بين الإنسان والشيطان.

رابعا
محل الصراع

" *قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء* " [٢] فالأصل أن الإنسان بحكم بشريته المفروض فيه أنه يفسد فى الأرض ويسفك الدماء،

---

[١] سورة ص آية ٨٢، ٨٣.

[٢] سورة البقرة ، أية ٣٠.

ولكن إذا تمت تسويته بتلك الطاقات العقلية والذات المختارة التى هى نفخة من روح الله فالعكس ما يتم .

ولما كان عكس الفساد هو الصلاح ، فإن الصالح من الأعمال هو ما يجب أن يقوم به الإنسان بقدر تحقق هذين الشرطين فيه.

وكذا عكس سفك الدماء - وهو قمة العدوان - هو السلام ، فإن السلام هو ما يجب أن يسود فى العلاقات بين الناس ليحل محل العدوان وسفك الدماء .. وذلك أيضا بقدر تحقق هذين الشرطين فى الإنسان.

وقد بينت أحكام الرسالات السماوية، وبالأخص الرسالة الخاتمة : الأعمال الصالحة وعددتها. وكذلك نظمت العلاقات بين الناس بعضهم البعض فى إطار من السلام، وبين الناس والخالق فى إطار من التسليم، وجمعت بين السلام والتسليم فى إطار أحكام جامعة تضمنتها شريعة الإسلام (وسوف نتناول تفصيل تلك الأحكام فى موقع آخر ونحن نتعرض للأديان).

بقى أن نتعرف فى هذا المجال على أهم المحاور التى يدور حولها الصراع.

ولما كان الشيطان فى علاقته بالخالق قد ارتكب ذلة العصيان والخروج على الطاعة، كما ارتكب ذلة الاعتراض على الحكمة الإلهية وعدم التسليم بها.

لذا فإنه يمكن حصر هذه المحاور فى أثنين فقط، على الأول تدور ذلة العصيان، وعلى الثانى الاعتراض على الحكمة الإلهية. وفيهما يسعى الشيطان لجر الإنسان لأن يشاركه الوقوع فى هاتين الذلتين، وذلك على النحو التالى :-

المحور الأول - العصيان والخروج على الطاعة :

إن أهم ما يسعى إليه الشيطان فى صراعه مع الإنسان، هو جره بدوره للخروج على طاعة الخالق وعصيان أوامره ونواهيه ومن ثم يتدرج معه على النحو التالى :

- ❖ التشكيك فى وجود الخالق ذاته كإله واحد له الخلق والأمر، وإحلال ذلك بالعلم الذى قاده إلى التقدم والارتقاء دون ما حاجة إلى الدخول فى غيبيات يأباها منطق العلم المجرد.

- ❖ إن لم يفلح هذا الزعم وآمن الإنسان بوجود الخالق فليكن هذا الخالق عند حد بعض العبادات، أما مسائل المعاملات وأمور الدنيا فينظمها العلم.

- ❖ وإن آمن الإنسان بإله له الخلق والحكم فى أمور الدنيا والدين، فهذا الإله فى غنى عن طاعة أوامره ونواهيه فهو فوق طاعة عباده ، ومن ثم يكون التهاون والتراخى والقعود كلية عن إتباع هذه الأوامر والنواهى .... الخ.

وهكذا يتدرج الشيطان مع الإنسان، يحاوره ويداوره حسب المرحلة التى وصل إليها إيمانه بالخالق، ليقعده عن طاعته وإتباع

أوامره ونواهيه ويجره فى النهاية - مستخدما كل أساليب الخداع والمكر والدهاء - إلى العصيان والفسوق .

المحور الثانى : الاعتراض على الحكمة :

الرضا بقضاء الله هو قمة التسليم بحكمته، والتسليم بالحكمة الإلهية هو قمة الإيمان. والمؤمن هو من آمن بأن وراء القضاء أيا كان، حكمة بالغة هى أخص خصوصيات الذات الإلهية ... ومن ثم فهو يقبلها بحلاوة الإيمان وطلاوة التسليم " *الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون* "[1]، ومن ثم يكون الإنسان السمح العفو القانع الراضى.... الخ.

والطبيعة النارية للشيطان بما فيها من تسرع ونفاذ صبر جرته للاعتراض على الحكمة الإلهية - على نحو ما سبق أن بينا- ومن ثم فهو يسعى ويجاهد لأن يجر الإنسان بدوره لعدم التسليم بقضاء الله وأوامره والاعتراض على حكمته.

والمحصلة أن يجره إلى عدم الإيمان بالله والتسليم بالقضاء، ويجعله الإنسان الجاحد الحقود الحسود ، الطماع الجشع ، المعتدى الأثيم ... وهكذا.

---

[1] سورة البقرة ، آية ١٥٦.

خامسا

نتيجة الصراع

تختلف نتيجة الصراع بالنسبة للشيطان عنها بالنسبة للإنسان، وذلك على النحو التالى :

أولا – بالنسبة للشيطان :

سواء نجح الشيطان فى تحديه وإغوائه للإنسان أم لم ينجح فهو محكوم عليه سلفا بنار جهنم خالدا فيها أبدا، ومن ثم فنتيجة الصراع لن تغير من الحكم شيئا، كل ما هنالك أنها تشبع فيه شهوة الانتقام والتشفى من ذلك الإنسان الذى كان سببا فى إخراجه من رضوان الرحمن.

هذه الشهوة العارمة التى تتأجج نارا هى التى طلب الشيطان لإشباعها أن ينظره الخالق إلى يوم يبعثون حتى يشبع غله ضد هذا الإنسان، ولو كان سويا هذا الشيطان لطلب العفو والمغفرة .. ولكنها نار الحقد والكراهية التى لا تبقى ولا تذر.

فالشيطان فى كل الفروض خاسر خسرانا مبينا، ليس له من هدف إلا ويأتى يوم يبعثون حيث الأجل المضروب وقد غوى ما غوى من الناس، ليثبت عدم جدارة الإنسان بالخلافة فى الأرض وأن اعتراضه على الحكمة كان له محله.

ناهيك عن بصمته فى هذه الحياة الدنيا على الناس من إشعال الفتنه والحروب والقتل وسفك الدماء .... وهكذا، سواء على مستوى الفرد أو الجماعات .. لأن له سلطانا على الإنسان .

ثانيا - بالنسبة للإنســان :

نتيجـة الصـراع بالنسبة للإنسـان أهـم بكثـير إذ هـى تعنـى إعـلاء حكمة الله فيه، وعليها يتوقف مقعده من النعيم المقيم أو العذاب المهيـن فى الحياة الآخرة، وكذا التحرر والمنعـة أو الاسـتعباد والذلـة فـى الحياة الدنيا.

فإذا تملك الشيطان من الإنسان بحيث صار تابعه فقد خسر الإنســان دنياه وآخرته وصار من الضالين، وإذا تمكن الإنسان من رد كيد الشيطان فنعما هو فى الحياة الدنيا وهو فى الآخرة من الفائزين.

وإن كان لنا فى الحياة الدنيا بعض المؤشرات على استقراء نتيجـة المعركة بما يحقق الحكمة الإلـهيـة مـن وراء خلـق الإنسـان كخليفـة فـى الأرض : فإن الشيطان مهما تمكن فى بعض المواقف مـن بعضنـا إلا أنـه فى الكثير منها ما يعجـز عـن إدراك غايتـه، وإذا تمكـن مـن الإنسـان فـى بعض مراحل عمره، فغالبا ما يسيطر الإنسان علــى معظـم هـذه المراحـل بعد ذلك. ونحن نعبر عن ذلك دائما بقولنا إن الخير ينتصــر فـى النهايـة ، وما وجدنا أكثرنا إلا وينتهى به العمر وقد استقام علـى الطريـق رغـم مـا يكون عليه فى شبابه من نزق وطيش.

ودلالة ذلك أن الحكمة الإلهية من وراء خلق الإنســان كخليفـة فـى الأرض، رغم خلقه من طين ورغم كيد الشيطان له، قـد تحققت وأصبـح الإنسان خليفة فـى الأرض ، عـابداً للخـالق، شـاكرا لأنعمـه .. ولـو كـره الشيطان ومن والاه.

فمن كان فيه نفخة من روح الله وسواه ربه وصــان العطيـة وعمـل بها ولها، فقد فاز فى الدنيا وهو فى الآخرة من العالين.

وهكذا يا صديقى : يتضح لنا من استعراض قصة خلق الإنسان ، وصراعه مع الشيطان، أن وراءها حكمة إلهية حركت أحداثها فى الحياة الدنيا لتظهر ثمرتها فى الحياة الآخرة :

ففى الحياة الدنيا دارت حلقات فى صورة صراع ابدى بين الشيطان الذى اعترض على الحكمة وأراد أن يدحضها بانتصاره على الإنسان، وبين الإنسان الذى يكدح ويناضل حتى يكون أهلا للخلافة فى الأرض.

وفى الحياة الآخرة تتحقق ثمرتها التى لا تخرج عن نار جهنم للشيطان وأتباعه من البشر، والنعيم المقيم لمن استقام على الطريق وتغلب على عدوه الشيطان.

ويظل الأمر - من قبل ومن بعد - لمن بيده الأمر فى الدنيا والحكم فى الآخرة وهو الإله الواحد القهار.

وفى النهاية :

كانت تلك هى قصة خلق الإنسان، وصراعه مع الشيطان استنتاجا علميا من أحكام الدين، فهل إلى غيرها من سبيل ؟

أرونى قوم تبع وعاد وثمود - ومن بعدهم قومك يا صديقى الذين ينكرون - ماذا عندكم غيرها إن كنتم للغيب عالمين ؟

ودعنا يا صديقى نكمل مسيرتنا نحو الأبدية، فإلهنا الرحمن الرحيم، هو الملك يوم الدين.

القضيــة الــرابعــة

اعتناق الأديان وتخير إحداها على أساس علمى

الجلسة الافتتاحية : اعتناق الأديان ضرورة إنسانية.

الجلســة الأولــى : التحليل العلمى للأديان.

الجلســة الثانيــة : اختيار أحد الأديان من خلال منظور علمى.

الجلســة الثالثــة : الأثر المترتب على اختيار الدين الأمثل.

الجلســة الافتتاحــية

اعتناق الأديان ضرورة إنسانية

تقـــديم :

اعتناق الأديان ضرورة إنسانية فرضتها الطبيعة على الإنسان وقت أن كان لها السيادة ، والمنطق العقلى المتطور وقت أن تعالى الإنسان على واقعه ، وبيان ذلك :

أولا
سلطــان الطبيــعة
وأثره على اعتناق الأديان

كانت الطبيعة منذ الأزل محور الفكر الإنسانى حول اعتناق الأديان، ذلك أنها وقت أن كان الإنسان فى بداية عهده بالحياة محروما من عناصر القوة والمنعة الذاتية المبنية على العلم، **كانت الطبيعة تفرض سلطانها على الإنسان**، وكانت تواجهه بكل تحدياتها من الفيضانات والسيول الجارفة، والرياح والأعاصير المدمرة، ووعورة جبالها وظلمة ليلها، وشراسة وحوشها، وتشابك غاباتها، وقحل صحاريها، وقلة مواردها .... الخ.

ولم يجد الإنسان أمام تلك التحديات التـى لا يملك لهـا دفعـا، إلا أن يتضرع :

تارة لقوة أعظم من قوته (Super Power) يتلمسها النجاة ويقدم لها القرابين والتعاويذ، عسى أن يجد فيها من العون والمدد مـا يقـوى بـه على مواجهة تحديات الطبيعة.

ومن ثم كانت عبادتـه للنـار أو الشـمس أو القمـر أو النجـم أو حتـى البقرة والأفعى، بحسبان أن لهـذه السيطرة علـى مقـدرات رزقـه وحياتـه، وأن فيها من القوة ما يدفع بها ما يواجهه من تحديات .... وهكذا.

وتارة أخرى كان يستسلم لهذه التحديات، ويسلم للطبيعـة بـالقوة والعظمة ويتخذ منها إلهه، ومن ثم فهى مناط عبادته وما على الإنسان إلا أن يرجع لفطرته التى جبل عليها فى الطبيعة .... الخ.

وفى تارة أخيرة كان يسوقه إدراكه الجدلى والفلسفى إلـى أنهـا هـى الطبيعة بقوانينها التى تحكمه كما تحكم باقى الأشـياء والموجـودات، ومـن ثم فهو منها وإليها وليس له من قبل أو بعد إلا الطبيعة فهى "أمنا الطبيعة" " Mother Nature ".

وهذه الأفكار وتلك عايشت الإنسان على مراحل حياتـه علـى الأرض، وما زال منها ما هو معاصر ليومنـا فـى كثير مـن بلـدان العـالم حتى المتحضر منها كإنجلترا وأمريكا.

ثـانيـــا
تسخيـر الطبيعــة
وأثره على اعتناق الأديان

تمكـن الإنسـان بفضـل مـا وصـل إليـه من علـم وتكنولوجيـا لقهـر الطبيعة وتسخيرها لتحقيق أغراضه، فنجده وقد تغلب علـى الفضـاء الشاسع بما اخترعه من أقمار وصواريخ ومراكب فضائية، ونجده وقد تفوق على ممالك الحيوان والنبات، ونجده وقد تحكم فى الحر والبرد، كما أحاط بالبراكين والزلازل، وتغلب على ندرة الموارد.. وسيطر على مصادر الطاقة بكل أنواعها.

باختصار يمكن القول أن الإنسان قد تغلب علـى كـل تحديـات الطبيعة، بل وما هو أكثر سخرها لتحقيق رفاهيته ولم يعد أسيرا لها بل سيدا عليها.

وبالتالى لم يعد فى حاجة إلى إله (Super power) يستلهمه القـوة للتغلب على تحدياتها بما يقدمه له من قرابين، ولا الاستسلام لها والتسليم بقدرتها، ولا الرجوع إليها إلى حيث الفطرة، وإنما الصحيح فى نظره هو المزيد فى قهرها والتحكم فى مقدرتها ... فهى الساحة التى يجول فيها ويصول، بفضل قدراته العلمية التى تتنامى كل يوم وبالأصح كل ساعة .

ومن ثم فترت حاجته إلى الأديان التى لم تعد تؤمنه من شر مستطير يحيط به، أو تدفع عنه غوائل الدهر أو تمنيه بما لا يحسه ولا يدركه ، وإنما يقينه فيما أوتى من العلم فهو رصيد يكفيه .... **وإن كان لابد من إله فليكن إلهه العلم .**

وباتت هذه الحقيقة تسود أغلب دول العالم المتقدم فى هذا الزمان.

ثـالثـا
تعالى الإنسان علـى واقعـه
وأثره على اعتناق الأديان

لقد اصبح الواقع الإنسانى المعاصر فى مرحلـة تدعـو إلـى الحـيرة، فهو فعلا قد تمكن من الطبيعة وسخرها لتحقيق أطماعـه، وتنـامت قدراتـه إلـى حيـث آفـاق مـا كـان يتصورهـا حتـى فـى أحلامـه ، فـانبهر بالعاجلـة واستغنى عن الآجلـة .... **ولكـن مـا يدعـو إلـى الحـيرة بحـق، هـل يقـف المنطق العلمى والإدراك العقلى عند هذه المرحلة الساذجة ؟ أم يتجاوزها إلى حيث الوعى الصحيح بمنطق الأمور؟**

بالتأكيد سيندفع الإنسان إلى حيث منطق الأمور، ذلك المنطق الذى قاده إلى اعتناق الأديان وقت أن تعـالت عليـه الطبيعـة بقوتهـا وجبروتهـا عسى أن يجد فيه الملاذ لضعفه وهوانه، والذى قاده إلى إهمالهـا وقـت أن تحكم فى الطبيعة وسخرها بعلمه وفهمه. **هذا المنطق ذاته هو الذى يقوده إلى اعتنـاق الأديان ولكن هذه المرة ليس عن ضعـف وهـوان وإنمـا عـن إدراك وفهم.**

فالإنسان هذه المرة لم يعد يسير **فـى الطبيعـة** ليسـخرها لأغراضـه وما عاد شـاغله أن يتوغـل فـى مناكبهـا ليسـتخرج منهـا زرعـاً أو طاقـة، وإنما هو فى الحقيقة يسير **بالطبيعة** هذه المرة لتقوده إلى ما بعد الطبيعة.

نعم لقد تنامت قدرات الإنسان العقلية التى فاقت البحث فى فتات الأشياء إلى حيث البحث عن كنه الأشياء مستقرها ومنتهاها.

فالطبيعة كانت فى وقت هى كل عالم الإنسان، لا يتصور نفسه خارجها، ومن ثم لا غرابة إن ذاب فيها بفكره.

أما الآن فقد أدرك الإنسان أن الطبيعة مثله، خلق كخلقه يسرى عليها نفس قوانين الوجود والعدم والزمان والمكان .... الخ، فتعلق فكره فيما هو أبعد وأبعد .... تعلق فكره بخالق الطبيعة وليس بخلقتها، **وشتان بين خلقة الطبيعة وخالقها من حيث التحليل العلمى :**

فخلقة الطبيعة : تتناول البحث فى :

١ - **المادة التى تتكون منها** ، وخصائص هذه المادة وعلاقتها بالعناصر الأخرى، وعما إذا كانت تتكون من عنصر واحد أو جملة عناصر، وهل هى ثابتة أم متحركة، وما هى عناصر الربط بينها، وعما إذا كانت هى واحدة فى كوكب الأرض وغيرها من الكواكب الأخرى .... الخ.

٢ - **الصور والأشكال التى تتكون منها الطبيعة،** وهى غير متناهية ولا تدخل تحت حصر، ومنها الأرض والسماء والكواكب، وممالك النبات والحيوان، والطير والبحار والأنهار والهواء، وتصنيفات كل نوع من الأنواع السابقة .... الخ .

٣ - **تطور الطبيعة بتطور الزمن،** وصدى هذا التطور على الأجناس من الطير والحيوان والنبات ، والتضاريس والجو .... الخ.

٤ - **إمكانية تسخير الطبيعة** لخدمة الأغراض الإنسانية، ومدى قابليتها للتغيير والتعديل .... الخ.

وقد شغل الإنسان نفسه منذ كان بالبحث فى هذه الموضوعات وغيرها مما لا يدخل تحت حصر . وإن كانت كلها تدور حول محور واحد وهو البحث **داخل أسوار الطبيعة وإطارها.** وقد كان هذا مناسبا لمدى طاقاته وإمكانياته الفكرية التى تكاد لا تتعدى حدود تلك الأسوار، ومن ثم كان بحثه فى الطبيعة ، عالمه الذى يعيشه والذى لا يكاد يتصور نفسه خارجه.

خالق الطبيعة : البحث عن خالق الطبيعة، يجرنا للتفكير فى هذا الخالق وقدرته والكيفية التى خلق بها الطبيعة والغاية المنشودة من هذا الخلق، وهو بحث يرفعنا إلى حيث مستوى المقام الذى نتحدث عنه.

ومن ثم كان علينا أن نتجاوز حدود بحثنا داخل أسوار الطبيعة للتفكير فيما هو خارج هذه الأسوار. وبالتأكيد لن يصل علمنا لهذا المدى، ولكن هذا لا يمنع من المحاولة بطاقاتنا العقلية المحدودة وفقط فى حدود المتصور والمتاح، أملا فى أن نتعرف على الإله الحق الذى يجب أن تتجه إليه العبادة .... الإله الذى تساير قدرته قدر خلقه.

ويمكن أن نتصور ذلك إذ علمنا أن قدرة الخالق تتناسب أو تزيد مع قدر الخلق، فإذا كان ما نتكلم عنه هو خلق الطبيعة بكل أشكالها وصورها من أرض وسماء ونجوم وكواكب وبحار وأنهار وأمطار وسحاب وحيوان ونبات وجماد وليل ونهار ، فلابد أن تكون قدرة خالقها على قدر هذا الخلق.

ومن ثم فهى القدرة التى تجعل الأرض والسماء بكل ما فيها مطويات بيمين خالقها... القدرة التى تجعل الأرض جميعا قبضته ..القدرة

التى تعالت على التصور لابد أن تصدر عن خالق متعال .... القدرة التى شملت كل شيء فى الأرض أو السماء لابد أن تكون صادرة عن واحد أحد .... القدرة التى سيرت ونظمت المجرات والنجوم لابد أن تكون صادرة عن قوى جبار قاهر .... لابد أن تكون صادرة عن رحمن رحيم .... الخ.

هذه القدرة التى خلقت الأشياء .. لابد أن تتعالى على الأشياء ومن ثم تصدر عن مصدر ليس كمثله شيء ....

ولنا مع جلال الخالق وقدرته رجعة فى موقع آخر عند بحثنا للأديان فى الجلسات المقبلة.

والمحصلة أن تعالى الإنسان على واقعة، وبحثه فيما يجاوز الطبيعة، يفرض عليه النظر إلى حيث خالق الطبيعة .... إلى ما وراء الوجود .... أى إلى تعلقه بالمنطق العلمى الصحيح فى بحث حقيقة الأديان.

تقسيم

بعد أن بينا أن اعتناق الأديان ضرورة إنسانية فرضتها الطبيعة على الإنسان وقت أن كان لها السيادة، والمنطق العلمى المتطور وقت أن تعالى الإنسان على واقعة.

بقى أن نساير المنطق العلمى مداه فى الإجابة على هذا السؤال الحساس الذى يقول أن الأديان جميعها تدعوا إلى عبادة الخالق بالطاعة والامتثال لأوامره ونواهيه، وتدعوا جميعا إلى مكارم الأخلاق، وتنهى

عن العصيان والفسوق، وتعد وتتوعد بجنة عالية أو نار حارقة فى الحياة الأخرى.

وإذا كان هذا هو جوهر الأديان فلماذا التعصب لهذا الدين أو ذاك؟ ولماذا التشيع لهذه العقيدة دون سواها ؟ .... هذا التعصب والتشيع الذى يصل فى الكثير من الأحيان إلى الحروب سواء بالكلمة أو السلاح .

وللإجابة على هذا السؤال الحساس يجب التجرد لحين عن المعتقدات الشخصية ، والتقيد فقط بالتحليل العلمى أيا كان ما يقودنا إليه .... فذلك أدعى للإيمان بهذا الدين أو ذاك عن فهم وإدراك، وليس عن تقليد أو إتباع مفروض .

وانطلاقا من هذا الفرض، فإننا نبدأ بالتحليل العلمى للأديان ثم نعقب على اختيار إحداها على أساس من هذا المنطق العلمى، وفى النهاية نتناول الأثر المترتب على اختيار أحد الأديان . وقد خصصنا لبحث كل منها جلسة مستقلة وذلك على النحو التالى :

الجلسة الأولى : التحليل العلمى للأديان.

الجلسة الثانية : اختيار الدين الأمثل من خلال منظور علمى.

الجلسة الثالثة : الأثر المترتب على اختيار الدين الأمثل.

الجلســة الأولــى

التحليل العلمي للأديـان

تشترك الأديان جميعها فى أن إلها تعـالت قدرتـه، عن طريـق نبـى مرسـل، بعث برسـالة إلـى عبـاده، يدعوهـم فيهـا إلـى إتبـاع النهـج الــذى ارتضى.

وهكذا فإن دعـائم الأديـان ثلاثـة : إلـه ورسـول ورسـالة ... وهـذه الدعائم الثلاث ليست محل خـلاف بيـن الأديـان، **وإنمـا الخـلاف هـو فـى المدى الذى يصل إليه التصور عن كـل منهـا**، ومـا يرتبـط بـه مـن هـدف إجمالى عن هذا الدين.

ومن ثم فإن بحثنا لا يتناول تأصيل هذه العناصر الثلاث من خـلال منظور دينى محض نعتمد فيه على أصولها الدينية، وإنما هو بحث يسـتند إلى تحليل هذه العناصر الثلاث تحليلا علميا محضا.

وإن كنا نشير إلى بعض ما جاء فى الأديان مـن أحكـام، فإنمـا فقـط لتأكيد ما ينتهى إليه المنطق العلمى أو يجافيه.

ونحن مع هذه الدعـائم الثـلاث بمنطـق العلـم المجـرد وبعيـدا عـن التشيع والتعصـب، نبحـث ما يجـب أن يكـون عليـه كـل منهـا .... وعندئـذ يكون اختيار أحد الأديان أمرا ميسوراً، إذ أنه يكون أقربها إلى مـا ينتهـى إليه البحث العلمى المنطقى، بالنسبة لكل من هذه الدعائم الثلاثة مجتمعة .

الدعامة الأولى

﴿ الإلـــه ﴾

١ - مفهوم الإله

يختلف مفهوم الإله المعبود بالنسبة للإنسان باختلاف الزمان والمكان، وفى النهاية باختلاف ما وصل إليه من فكر وعلم وحضارة .. وخير مفهوم للإله هو ذلك الذى يستقيم والحديث من العلم والفكر ، حيث يدور محور بحثنا.

وقد تناولنا من قبل تطور الفكر حول مفهوم الإله، منذ أن كانت الطبيعة هى المسيطرة على الإنسان، إلى أن تعالى الإنسان على الطبيعة وسخرها له، بل وما هو أكثر بعد أن امتد الفكر الإنسانى إلى اعتبار الوجود مرحلة فى خطة إلهية تمتد إلى ما بعدها .... إذ انتقل مفهوم الإله من بقرة يعبدها لتدر عليه لبنا، هو كل حياته. إلى ذلك المفهوم الذى يتناسب وهذه القدرة البالغة من القوة والاقتدار فى خلق هذا الكون الفسيح، بكل ما فيه من مخلوقات وكائنات، وكل ما يحكمه من قوانين، وكل ما يشع فيه من نور العلم والهداية.

٢ - قدرة الإلـــه

وكما سبق القول أن قدرة الخالق تتناسب أو تزيد مع قدر الخلق ... وعلى ذلك **فكلما زاد علمنا بالخلق كلما أدركنا جلال الخالق وقدره .**

وهكذا نرى ضرورة النظر للخلق والسير فيه والتنقيب عن خباياه، وتذوق جماله .... وذلك بما وهبنا الخالق من عقل وإدراك وحس. وهذه وتلك تحتاج إلى مؤلفات ومؤلفات تناولها غيرى.

ولذا اكتفى فقط ببعضها على سبيل المثال : وهى أولا النظر لساحة الخلق لمعرفة قدر جلال الخالق. وثانيا كيف أن الإحاطة باليسير من قدرته، يكفى لحل أكبر المشاكل التى تواجه الفكر الإنسانى بالنسبة للكثيرين على مر الأزمان وهى مشكلة أو قضية التسيير والتخيير. ونعرض لكل منها على النحو التالى :

أ - القدرة .. على قدر ساحة الخلق

ذكرنا أن قدرة الخالق تتناسب مع قدر الخلق :

فوقت أن كان النظر للخلق قمة فى المحدودية : كهف فى جبل تحيطه صحراء جرداء ليس له من مقومات الحياة غير ناقة تكفله ، **كانت هذه الناقة إلهه ومعبوده** .. ففيها الفكر والأمل والرجاء .. بل وما هو أكثر فيها الحياة كل الحياة .. ومن ثم فهى إلهه الرزاق.

وكلما اتسعت رقعة الخلق كلما ارتقى الإله حتى صار **نجما وقمرا وشمسا.**

وكلما ترامى النظر للخلق بحيث شمل الكون بكل ما فيه من كائنات على اختلاف أنواعها وأشياء على اختلاف درجاتها .. وباختصار كل ما تضمه الأرض أو تحتويه السماء .. كانت النظرة الشمولية للإله على أنه الإله الواحد الذى فطر هذه الأشياء والموجودات جميعا فطرتها وطبيعتها فكانت هكذا .... **ومن ثم كان الإله هو الطبيعة أو الفطرة التى جبلت**

عليها كل الموجودات فى الوجود، وكان ذلك من قبيل التقرير بالواقع الذى هو محدود بالوجود ككيان قائم بذاته .

وكلما ترامى النظر وترامى أكثر كانت النظرة للوجود بكل ما فيه والطبيعة بكل قوانينها التقريرية هى داخل ملكوت أعظم يمتد إلى ما قبل الوجود ويستمر إلى ما بعده، فى إطار من خطة إلهية يعتبر الوجود أحد مراحلها .. **ومن ثم كانت النظرة للإله هى للإله الأعظم الذى تجاوز الوجود بعلمه إلى ما بعد الوجود، والذى امتدت قدرته لتشمل ساحة الملكوت :** المكانية حيث تتناول عالم الوجود الذى نعيشه والحياة الآخرة، والزمانية حيث تغطى الزمان بكل عصوره السابقة والحاضرة والمستقبلة.

ب - القدرة .. وقضية التسيير والتخيير

١ - نطاقها :

بديهى أن قضية التسيير والتخيير، إنما تقع فقط فى إطار ما يحكم السلوك الإنسانى من قواعد تقويمية، حيث تلعب الإرادة الإنسانية دورها فى العمل أو الامتناع عن العمل.

أما فى إطار ما يحكم الأشياء - ومنها جسم الإنسان - من قواعد تقريرية، فهى خارج نطاق قضية التسيير والتخيير، إذ أن هذه القواعد ملزمة ذاتيا من لدن خالقها ولا دخل للإرادة الإنسانية فيها.

وأيضا إذا كان الأمر متعلقا بالدور الذى قدره الخالق للإنسان أن يؤديه على مسرح الحياة، إذ هو مفروض عليه ولا دخل لإرادة الإنسان فيه.

وبيان ذلك :

أنـك قـد تضـرب آخـر أو لا تضربـه حيـث تكـون إرادة الاختيـار، ومـن ثـم تكـون قضيـة التسـيير والتخيير. حيث يثـور التسـاؤل عمـا إذا كنت مجبرا على ضربـه (مسيرا) أم أن لـك حريـة الاختيـار فـى ضربـه (مخيرا).

ولكنك لا تستطيع أن توقـف القلـب عـن النبـض، لأن القلـب يعمـل بقانون آخر لا دخل لإرادتك فيه، ومن ثم لا مجـال لبحـث قضيـة التسـيير والتخيير.

كما لا تستطيع تعديل دورك فى الحياة بأن تكـون ابنـا لوزيـر بـدلا من غفير إذ لا دخل لإرادتك فى ذلك الدور وإنما هو قدر مكتوب.

٢ - سندهـــا :

ترتبط قضية التسيير والتخيير بتلك النظرة - الأخيرة - المتخطيـة لكل حواجز الفكر الإنسانى المحـدود (والـذى لـم يكـن يعـرف إلا الطبيعـة الذى هو جزء منها والوجود الذى يشكل مسرح أحداثه والحيـاة التـى هـى واقعه) **إلى خالق الطبيعـة**. حيـث يـترامى الفكـر إلـى جـلال قـدرة جبـارة وهائلة تفوق كل إمكانيات العقل والخيـال، حيـن يتصـور أن هـذا الوجـود بكل ما فيه من كائنـات وموجـودات وبكـل حـاضره وماضيـه مـن أحـداث ووقـائع .... الـخ. إن هـو إلا مرحلـة عـابرة مـن ملكـوت أعظـم .. قـدره خالقه.. الإله الأعظم .. فأحسن تقديره.

ولما كان إدراك حدود هـذه الـذات الإلهيـة يستعصـى علـى الإدراك العقلـى مهمـا بلـغ مـن النضـج والفهم (إذ لا يمكـن إدراك غـير المحـدود

بالمحدود) إلا أنه يمكن في محاولة منطقية إدراك القليل عنها بمقارنة قدرتها بقدرة أي من خلقه، وليكن الإنسان محل الاختبار في هذا الوجود.

❖ **فالإنسان - في عجالة - خلق من خلقه قدرت له المشيئة الإلهية الخالقة أن يلامس هذا الوجود الذي يعيشه فترة من الزمن هي بقدر مسيرته نحو الأبدية** .. ومن ثم فهي تعد عليه بالأيام والأشهر والسنين أجلا موقوتا .... يخطوها خطوة تلو أخرى في تتابع زمني منذ أن لامس هذا الوجود حتى تنقطع عن هذا الوجود خطاه.

وذلك كله في إطار مشيئة **إلهية حددت له مقومات الدور الذي يؤديه على مسرح الوجود، وتركت له قدرة الاختيار في أداء الدور ....** حيث يكون الحساب على هذا الأداء، في حياة مقبلة لا يعلم عنها شيئا إلا رمزاً.

❖ **إما الخالق جلت قدرته فهو بالتأكيد فوق خلقه لا يقتصر على ملامسته الوجود لفترة ، وإنما الوجود منذ بدايته وحتى نهايته، بل وما هو أكثر ما قبل الوجود وما بعده من حيوات أخرى هي جميعا قبضته من حيث الإحكام والإتقان، وهي جميعا صنعته من حيث الخلق والإنشاء.** والكل يلتزم مشيئته التي أفسحت للإنسان فقط قدرا من الاختيارات في المسائل السلوكية، التي تفرضها عليه طبيعة الدور الذي يؤديه على مسرح حياته الموقوتة [1].

---

[1] على نحو ما بينا سلفا عند التعرض لما خص الخالق به الإنسان من قواعد تقويمية.

أى أن خالق الوجود الذى يتجلى على خلقه من عليين محيط بصنعته وخلقه منذ قدر له فى علمه أن يكون .... وإلى أن يشاء له أن ينتهى ويزول. فهذا الوجود جميعا لحظة الخالق وحاضره. **بمعنى أن تتناول قدرته بدايته ونهايته بلا أى فاصل زمنى.**

فهى رؤية **فوقية** تمتد حتى إلى ما قبل الوجود وتستمر إلى ما بعده بحيث تكون ساحة الملكوت – على امتدادها الزمنى والمكانى بالنسبة للخالق – قبضته التى لا تعرف قيد الزمان ولا قيود المكان.

ومن ثم فهى مع الإنسان منذ كان فى الأزل ومعه فى مسيرته التى قطعها فى الوجود والتى سيقطعها، بل وما هو أكثر فى مكانته فى الحياة الأبدية التى سيلقاها **وذلك كله فى نفس اللحظة عند الخالق.**

وبالتالى إن سجلها الخالق على الإنسان كتاباً مسطوراً ، فإنما ذلك لأن الإنسان خطها أثناء مسيرته للأبدية **بما قام به من عمل وفعل فى حدود إرادة الاختيار التى أودعها الخالق إياه.**

كل ما هنالك أنها دونت بقدرة الخالق التى لا تعرف قيود الزمن فكانت كل الفصول والمراحل والأزمان لحظة، ومن ثم فقد دونت عن واقع قام به الإنسان .... حتى وإن كان هذا الواقع بالنسبة للإنسان مازال أمرا مستقبلا.

فالماضى والحاضر والمستقبل هى دورة الزمان التى يجرى حكمها فقط على الخلق بما فيها الإنسان، أما بالنسبة للخالق فيتتابع الماضى

والحاضر والمستقبل فى دائرة من الزمن نصف قطرها صفر ، فتصير جميعا نقطة واحدة أو بالأصح لحظة من الزمن.

والمحصلة أن ما كتبه الخالق على الإنسان فى لوح محفوظ، هو مسيرة الإنسان كاملة سواء فى مرحلة الوجود التى يحياها أو تلك التى يلقاها فى الأبدية، وسواء فى إطار ما يجرى عليه الخلق جميعا من قواعد قانونية تقريريه أو ما يخصه من أعمال وتصرفات إرادية تجاه ما تنزل عليه من قواعد تقويمية.

كل ما هناك أنه بالنسبة للنوع الأخير (التصرفات الإرادية) فإن ما هو مستقبل للإنسان وغيب عنه هو عند الخالق حاضر وشهادة. ومن ثم فالإنسان يفعل ما كتب عليه، لأنه فعله باختياره فى قدر الله، الذى أحاط به حاضرا فسجله عليه ... وليس عن جبر وتسيير فى قدر الله، وإلا انعدمت إرادة الاختيار، وفقد الحساب عن هذه الأعمال مصداقيته يوم الحساب.

٣ - حالاتها :

ما سبق عرضه يفسر لنا - بطريقة علمية منطقية - قضية التخيير والتسيير على النحو التالى :

التخيير : وذلك فى حدود ما سمحت به مشيئة الخالق للإنسان أن يعمل ويتصرف بإرادته الذاتية واختياره المطلق فى العديد والعديد من المواقف - بكل ما يحيط بها من ظروف وملابسات - وذلك من خلال الدور الذى يؤديه كل إنسان فى الحياة .... وقد تنزل الخالق على الإنسان بالشريعة العامة التى تنظم إطار السلوك الذى يحكمه فى علاقته بالخالق وبنفسه وبالآخرين .. حتى يكون تصرف الإنسان بإقتدائها . فإن

هو أداها حق الأداء كان له ما يوعد ، وإن هـو نكـل عنهـا وأنكرهـا كـان عليه وعيدها.

وعلى ذلك فالإنسان له حرية الاختيار كاملـة فـى إطـار هـذا القـدر الذى أهلته له مشيئة الخالق ونظمته شريعته .. ليكون مناط الحساب.

التسيـير : وذلك بما كتبه الله على الإنسان سلفا فى لوح محفوظ، بدءا من مسيرته فى الحياة حتى مكانته فى الآخرة. حيث ينفذها الإنسـان سيراً على الطريق كما دونت عليه بحيث لا يحيد عنهـا حتـى فـى القليـل، ذلك لأنها قدره المكتوب. كل ما هنالك أنها سجلت عليه قـدرا فـى عليـين لأنـه أداها عملا فى ارضيـن، حيـث يكـون التسـجيل حـاضرا عنـد الخـالق الذى يتوجد عنده الزمن فى حضور دائم، لما قد يكون مستقبلا بالنسـبة للإنسان (الذى يتوزع عنده الزمـن بيـن مـاضى طـواه وحـاضر يعايشـه ومستقبل لا يعلم عنه شيئا). ومن ثم فالإنسان يسير على القـدر المكتـوب الذى أداه عملا، حتى ولو كان مازال أمرا مستقبلا بالنسبة إليه.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على طلاقة النظر لقدرة الخـالق، التى رصدت ودونت سلفا حتـى أعمـال وتصرفـات ومقـام كـل مـن خلقـه على حدة، منذ الأزل وحتى الأبديـة مـرورا بـالوجود الـذى نعايشـه وذلـك فى كتـاب محفـوظ لا يـرد إليـه البـاطل أو الخطـأ. فـأى إعجـاز أبلـغ مـن هذا !! وأية قدرة أعظم من هذا !! حقا إنـها قـدرة الخـالق .... فهـل مـن مدكر ؟

والخلاصة : أنه لا تعارض بين ما هو مخير فيه الإنسان ومـا هـو مسير إليه : ذلك أن حقيقة ما هو مخير فيه الآن (وذلـك حيـث التصـرف

الإرادى فى إطار الأحكام التقويمية التى تنظم سلوك الإنسان) نجده من حيث الظاهر مسير إليه بمفهوم أنه مدون عليه سلفا.

وقد جاء الخلط : إذ كيف يكون الإنسان مخيرا الآن فى إطار القدر المسموح له من التصرفات الإرادية، ثم يقال أنه مسير إليه أى عليه القيام به كقضاء سابق ؟

والقول الفصل : هو أن ما هو مخير فيه الإنسان الآن فى الحقيقة مدون عليه بقدرة الله الذى يتوحد عنده الزمن منذ بدء الخلق. ومن ثم يكون الإنسان مسيرا من حيث ظاهر القضاء فيما هو مخير فيه من حيث الحقيقة الحالة.

وختاما لقدرة اللـه :

فإنه يلاحظ أنه إذا ما أضفنا إلى هذه القدرة المترامية الأبعاد التى لمسناها من مجرد النظر لساحة الخلق، وأيضا التى فسرت لنا قضية التسيير والتخيير، تلك التى تناولها غيرى من البحث فى الوجود عن اصغر شىء فيه وهى الذرة إلى اكبر شموسه ومجراته ... ومن تذوق جمال الطبيعة وإبداعها وتناسق مكوناتها وانتظام حركتها .... الخ.

لانتهينا إلى أن العلم والمنطق - الذى عمق كل من هذه المعانى فى الوقت الحاضر - يجرنا إلى مزيد من الإيمان واليقين بالإلـه الأعظم الجدير بالعبادة والتقديس.

الإله الذى ليس كمثله شىء فى السموات والأرض لأن هذه وتلك ليست إلا صنعته وخلقه، **الإله الواحد الذى يعتبر الملكوت بكل ما فيه ، بكل أطواره، بكل أبعاده، جميعا قبضته.**

الدعامة الثانية

﴿ الرســـول ﴾

الرسول فى قول موجز هو مبلـغ الرسـالة كما تنزلت عليه وحيا لينقلها فى أمانة وصدق إلى الناس، فيسلموا بهـا قـولا ويؤمنـوا بهـا عمـلا وفعلا.

وهنا يجب البحث - بالمنطق العلمى المجرد - عن ذات الرسـول ومهمته وصفاته ومكانته .

أولا - ذات الرسول

تتحدد ذات الرسول بالمهمة المنوط به أداؤها .. ولما كانت مهمـة الرسول هى تبليغ الرسالة كما تنزلت عليه وحيا كـى يدعـو النـاس إلـى إتباعها ، فلابد أن يكون هو أول مؤمـن بهـا، وأن يكـون قـادرا علـى أداء مضمونهـا، عبـادة وتعـاملا، عمـلا وفعـلا، حتـى تصـادف الدعـوة قبـولا وتسليما لدى غيره من الناس.

١ - ومن ثم يلزم أن يكون الرسول بشراً خالصا

ليحتذى به غيره عن إيمان وتسـليم بـأن مـا تـنزل عليـه مـن أحكـام السـماء هـى فـى مقدور طاقـاتهم البشـرية، وإمكانيـة عقولهم وإدراكـاتهم الإنسانية. وإلا لو كان الرسول خلقا آخر .. كملك من السماء مثـلا لكـانت دعوتـه إلـى حيـث قومـه مـن الملائكـة حيـث تجد صداهـا .... ولا شـأن للإنسان بها طالما أنه ليس مأموراً باتباعها .

فطالما أن الرسالة دعوة حرة مختارة للناس، فلابد أن يكون حاملها ومبلغها بشراً خالصا حتى يتسنى إتباعها عن حرية واختيار، ولا يكون الرسول خلقا آخر أكثر قوة إلا إذا كانت الرسالة فريضة واجبة الإتباع فى قهر وإجبار.

٢ - كما يلزم أن يكون الرسول من عامة الناس :

وذلك من حيث :

أ - **المستوى الاجتماعى** ليعيش معاناتهم ويجرى عليه ما يجرى عليهم : فهو يبيع ويشترى، ويقرض ويقترض، ويتزوج ويزوج .... إلى آخر ذلك من صنوف التعامل ليكون فيما يقوم به أسوة تتبع - عن اختيار ورضى - طالما كانت أسوة حسنة تنم عن مكارم الأخلاق، **وإلا لو كان من خاصة الناس** كملك أو أمير لكان نداؤه لقومه أمرا، ولاتبعوه تملقا ورياءا .... حتى ولو كانت رسالته حقة.

ب - **المستوى الثقافى والفكرى** ليكون تخاطبه بلغة قومه فيما يشغلهم من أمور دنياهم المحصورة بواقعهم المحدود من حيث المدى والإدراك .

فإذا ما آتاهم برسالة تفوق كل طاقاته وطاقات قومه من حيث الإعجاز البلاغى للغة، وتمتد إلى كل أمور الدنيا والدين، وتخاطب كل البشر وتنظر إلى ما وراء الوجود، وتأتى بقصص الأولين والآخرين.... كان **البلاغ لقومه حقا.** لا تشوبه مظنة الافتعال والاختلاق، إذا ما أتى عن حكيم أو فيلسوف أو مؤرخ أو أديب أو شاعر مشهود له بالحكمة والبلاغة والمنطق.

ثانيا : مهمة الرسول

تتحدد مهمة الرسول بصفة عامة فى عرف القانون فى مجرد نقل رسالة من الأصيل إلى الغير، لتصير العلاقة مباشرة بعد ذلك بين هذا الأصيل والغير، وهو فى هذا يكاد يقترب من الوكيل.

ومع ذلك يوجد خلاف جوهرى بين الرسول والوكيل، حاصله أن الرسول لا يشترط فيه أهلية التصرف حيث أن ما يقوم به يكاد أن يكون عملا ماديا، يقتصر على مجرد نقل الرسالة فى حدود إرادة الأصيل، فى حين تشترط أهلية التصرف فى الوكيل إذ تحل إرادته محل إرادة الأصيل فى إبرام التصرف، ومن ثم فله قدر كبير من سلطة التقدير والاختيار، ولذا فإنه يعول على شخص الوكيل وأهليته عند تكوين التصرف القانونى.

وإذا ما انتقلنا من المفهوم العام للرسول فى القانون ، إلى خصوصية ما نبحثه.. وجدنا أن مهمة الرسول هى فى تبليغ الرسالة التى تلقاها من الإله وحيا لينقلها إلى الناس نصا وعملا، لتصير العلاقة مباشرة بعد ذلك بين الإله والناس .. وهو فى نقله الرسالة ليس له سلطة التقدير والاختيار، وإلا كان وكيلا.

هذا إلى جانب بعض ركائز أخرى يلتزم بها الرسول فى تبليغ الرسالة منها :

الدعـوة إلى الرسالة بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا يتفق والهدف من الرسالة التى تقتصر على تنظيم قواعد السلوك الإنسانى سواء فى علاقة الإنسان بربه أو بنفسه أو بغيره، ليقتدى بها الإنسان عن قناعة

واختيار وليس عن قهر وإجبار .... ولكن ليس معنى ذلك عدم اللجوء إلى القوة .... إذ هى ضرورة ولكن عند الدفاع عن العقيدة.

البشارة وذلك بما تفيض به الرسالة من خير وبركة سواء فى الدنيا أم الآخرة، على من شرح الخالق قلبه للإيمان .... لتكون الرسالة دائما أملا ورجاءا، وطمعاً فى الرضوان، وتعلقا بالنعيم .... تكون دائما ضياءا ونورا فتهفوا إليها حتى القلوب المظلمة حالكة السواد. **وهنا نجد الرسول بشيرا .**

النذارة حتى لا يكون للناس على الخالق من حجة بعدم علمهم بالوعيد الذى ما بعده وعيد ، فهى نار وقودها الناس والحجارة أعدت لمن كفر واستعلى .... **وهنا نجد الرسول نذيراً.**

القدوة وهى عامل هام فى تبليغ الرسالة، ذلك أن القول سهل ميسور وما أكثر منا من يتكلم فتحسبه ناسكا أو زاهدا، وإذا بفعله يختلف فتراه غير ذلك. فالمهم حين نتكلم عن الفضائل والقيم وحسن التعامل أن يصدق القول العمل.

وهكذا نجد أن خير ما يدعو به الرسول إلى الرسالة، هو التزامه هو أولا بتعاليمها وإتباع نهجها وأداء فرائضها .... فيكون اعتناق الرسالة بعد ذلك عن واقع وتجربة حية بالنسبة لغيره من الناس. وبقدر التزام الرسول بالنهج يكون التعلق بالعقيدة التى يدعو إليها.

ثالثا : صفات الرسول

يجب أن يتحلى الرسول بكل مكارم الأخلاق، وتلك بديهية إذ أنه القدوة بالنسبة للناس، والمصطفى بالنسبة للخالق والمبلغ لأسمى الآيات التى تفيض بالقيم وتشع بالنور والهداية.

وأهم هذه القيم والمكارم على الإطلاق هى الصدق والأمانة والعزيمة لضرورة كل منها لتبليغ الرسالة.

الصدق : ذلك أن الرسالة إنما تتنزل وحيا من السماء على الرسول لينقلها نصا وعملا إلى الناس .. فكيف لهم أن يتبعوا هذه الرسالة بكل تعاليمها .. **إلا إذا كان يقينهم بصدق الرسول قد بلغ حد الكمال.**

فهو يكلمهم عن أمر السماء، يقتلع من نفوسهم ما ألفوا عليه الآباء والأولين، يقتل فيهم غرائزهم المتحكمة بفعل الزمن والمجتمع الذى يعيشونه .. ليستبدلها بطباع أخرى تفيض بالرقة والرحمة، يستأصل عادات وتقاليد استقرت فى النفوس منذ زمن بعيد .. لأنها ما عادت تناسب العقيدة الجديدة.

باختصار يحول مسار الفكر والفرد والمجتمع إلى النقيض لمجرد قوله .... أن ما أتى به إنما هو وحى تتزل عليه من السماء.... **فلابد أنه قول حق عن رسول معروف عنه الصدق كل الصدق** .. حتى يسلم الناس بما يقوله فى يقين وإيمان.

الأمانة : طالما أن الخالق اصطفى الرسول لنقل الرسالة، فلابد أن يكون قد لمس فيه الأمانة كل الأمانة، لأنه يحمله برسالة السماء .. فكيف

له إن بدلها أو غيرها أو أضاف إليها من عندياته ما رفع به مكانته عند خالقها ليتعالى بذلك على الناس !

ومن ثم فالرسول هو قمة الأمانة، وإلا لما استأمنه الخالق على رسالته.

وهكذا نجد أن الصدق ضرورة فى علاقة الرسول بالناس، والأمانة فى علاقة الرسول بالخالق.

العزيمة : يجب أن يكون الرسول من أولى العزم. ذلك أن تبليغ الرسالة يحتاج إلى مجاهدة ما بعدها مجاهدة. إذ كيف له هداية قوم قلوبهم غلف – ران عليها الصدأ.. وزادهم الكفر وعورة فى الخلق – للايمان.. للنور.. لمكارم الأخلاق .. للتعامل بالحسنى.. والأهم لاقتلاع جذور الكفر، **إلا إذ كان الرسول من أولى العزم والشكيمة.** لا تأخذه فى الحق لومة لائم .. القائد حين تدق الحرب أوزارها .. المجاهد حين الدفاع عن العقيدة .. الصابر على الابتلاء .. العفو عند المقدرة .... الخ.

أى يجب أن يجمع الرسول بين نهايات الصفات بأن يكون إماما للمجاهدين، إماما للصابرين، إماما للمتقين .... وهكذا. وليس مجرد رجل طيب .. أحاطته العناية الإلهية ببعض الكرامات والمعجزات، بحيث ينتهى الأمر أن تكون هذه الكرامات هى كل دلائل النبوة فنتحاكى بها ونزيد .. ونطمس الصفات الرئيسية التى يكفى إحداها أن تخلد أى من البشر إلى أبد الآبدين .. وترفع صاحبها إلى عليين.

فيكون حب الناس للرسول تقديراً وتبجيلاً، وليس مجرد تدليل وتهليل.

وصلاتهم عليه – بقدر ما أثرت فيهم هذه الصفات – عرفانا ووفاء وليس مجرد منة وعطاء.

رابعا : مكانة الرسول

يحتل الرسول - بداهة - **مكانة بالغة الرفعة عند الخالق** وإلا لما حمله تبليغ الرسالة إلى الناس .... فهو المصطفى والمختار لأداء هذه المهمة من بين خلق الله.

ومن ثم فهو بالقطع على خلق عظيم، وعلى قدر جليل من الأمانة والصدق، وهو من قبل ومن بعد ، نبى من أنبياء الله الذين رفع الخالق درجاتهم إلى عليين ، فكان خير التقاة والصالحين. إذ يكفى أن تنزل عليه كلام الله وحيا، والتقى بالملائكة جهراً .... **فهو فى قول واحد سيد الخلق أجمعين.**

ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن هذه المكانة الرفيعة الدرجة، لا تتعارض وبشرية الرسول، ذلك أن بشرية الرسول مقصودة لذاتها فى الرسالة - كما بينا - ومن ثم فهو يخضع لكل ما يجرى على البشر من أحكام الخلق: كالمرض والصحة، والجوع والعطش، والحزن والفرح، والأهم الولادة والوفاة .... كل ذلك فى إطار بشرية كاملة .

ومن ثم فمن يضفى على الرسول خصوصية فيما يتعلق بهذه الأحكام، أيا كان نوعها ومداها، ظنا منه بأنه يرفع من درجات الرسول يكون قد خلط بين مكانة الرسول وبشريته.

فى حين أن مكانته الرفيعة شىء بديهى يفرضه منطق الأمور والحس الدينى بصفة عامة.

وبشريته الخالصة شىء آخر مقصود لذاته، حتى يكون الرسول هو الأسوة الحسنة للناس أجمعين.

الدعامة الثالثة

﴿ الرسـالة ﴾

رسالة السماء - كما يجب أن تكون بالمنطق العلمى المجرد - التى هى من لدن الإله الخالق العليم الخبير القوى الجبار .... والتى تنزل بها وحيا على بشر من عامة خلقه ليبلغها للناس كافة، فتكون لهم دستوراً ومنهجاً لتنظيم علاقاتهم بربهم وأنفسهم وغيرهم فى هذا الوجود الذى يعيشونه وبشيرا ونذيرا بحياتهم الأبدية المقبلة. **لابد وأن يتوافر فيها من حيث المضمون والنص بعض ركائز أهمها :**

أولا - من حيث المضمون

١ - العمومية :

بمعنى أن يكون خطابها موجها للناس كافة .. على اختلاف ألسنتهم وجنسياتهم والوانهم .... فهى رسالة للعالمين. تمتد فى آن واحد لكل الخلق .... إذ لا يعقل أن الإله الذى ينظر إلى خلقه من عليين يخص فريقا منهم برسالته دون سواه .. والكل جميعا صنعته !!

وهذا يفرض على الرسول أن تكون دعوته لكل الناس فى كل البقاع والأمصار ليكون البلاغ على قدر الرسالة ... وأن يتبع فى كيفية البلاغ أسلوب ومقتضيات العصر الذى نزلت فيه، حتى ولو كان بفتح هذه الأمصار، طالما كانت هذه هى وسيلة البلاغ فى ذاك العصر .. وطالما لم يؤدى الفتح إلى فرض الرسالة بالقوة على رعايا تلك الامصار.

٢ - التجريـــد :

بمعنى أن حكمها لا يرتبط بواقعة بعينها، وإنما هو يطبق على كل واقعة يتوافر فيها شروط انطباقه .... فهى تضع أحكاما مجردة لا تخـص واقعة بعينها.

٣ - الديمومـــة :

بمعنى أن تظل حية إلى أبد الآبدين، وتلك استحالة حيث أنهـا تتضمن أحكاما تنظم السلوك الإنسانى (فى علاقة الفرد بربه ونفسه والآخرين) وما من تشريع إنسانى وضع إلا وانقضى بعد فترة من الزمن لا تجاوز عشرات السنين .

ومن ثم لا يتأتى دوامها إلا إذا انفردت القواعد والأحكـام التـى تتناول أحكام العبادة والتى تتعلق بأصول الرسالة بأحكام حدية جامدة لا يرد عليها التغيير أو التعديل، وبقيت غيرها من أحكام المعاملات فى إطار أحكام كلية مرنة يمكن أن تتطور مع الزمن والجديد من صنوف التعامل فيه.

٤ - العقلانيـــة

ويتأتى ذلك باحترامها العقل الذى تميز به الإنسان علـى غيره من الكائنات، فتخاطبه بمنطق العلم إذ أن ذلك أدعى للإيمان عن فهم ويقين.

وهكذا كلما كانت الرسالة ناطقة بآيات فى الخلق تفوق إدراكات العقل ، كلما كان التسليم بقدرة الخالق .. وكلما كانت لمسات الجمال فـوق إدراكات التصور العقلى، كان اليقين بإبداع الخالق .. وكلما كانت دقة الصنع والإتقان، كان الإيمان باقتدار الإلـه .. وكلما كانت آيات الرسالة

تتفق والجديد من الاكتشافات العلمية التى لا حصر لها فـى كـل المجـالات بدءا من الذرة وحتـى الكواكـب والنجـوم ، كـان الإنبهـار بعظمـة الإلـه .. **والأهم من ذلك أنه كلما كـانت شريعتها التى تنظم سلوك الإنسـان فـى إطار ما يستسيغه العقل ويقبله المنطق لنجاح مسيرته فى الحيـاة سـواء فى علاقته بربه أو بنفسه أو بالآخرين ، كلما كان التسليم بها عن رضـا وفـهم، وكان الإيمان بالإله عن تسليم ويقين.**

٥ - الشموليـــة :

وهذا يتوافر فى حالة ما إذا تناولت الرسالة - **فـى إطارهـا العـام** - التبصير بكل ما يتعلق بـالوجود سـواء فـى المرحلـة الحاليـة حيث الحيـاة الدنيا أو فى المرحلة المقبلة (حيـث الآخـرة) .... وذلـك بداهـة فـى حـدود إدراكات العقل البشرى وإمكانياته.

فيكـون بيانـهـا فـى إيجـاز عن الوجـود وكيـف خلـق، ومتـى يفنـى ويزول بكل ما فيه من كائنـات وموجـودات .. يكـون بيانـهـا عـن تنظيمـه وكيـف أنه تحكمه قواعد تقريرية قمة فى التنظيم والدقة.

ثم يكون بيانـها عـن المرحلـة المقبلـة وهـى مرحلـة الأبديـة، حتـى يكون التواصل بين هذه الحياة التى نحياها بكل ما فيها من معاناة ..وتلـك الحياة المقبلة التى يكون فيها الحساب عدلا وإنصافا.

ومن ثم فهى تخاطبنا عن الموت والنشور والحساب والجنة والنار.. أى كـل مـا يتعلـق بالحيـاة الأبديـة التـى مـازالت غيبـا عنـا، فنجـد فيهـا العوض عن البذل والعطاء والتضحية والحاجة والعوذ والمرض فى حياتنا الدنيا.

وأيضا بيانها للإنسان محل الخطاب فى الرسالة عن أصله فى حياته السابقة، ثم قصته مع الخلق فى هذا الوجود وحقيقة الدور المطلوب منه فى هذه المرحلة التى هى واقعه والتى تنزلت الرسالة لتنظيمه.

لذا فإن خطابها – **فى إطاره الخاص** – يجب أن يتناول تفصيلا كل ما يتعلق بأحكام العبادة التى تنظم علاقته بربه فى إطار عبودية خالصة للإله، وتلك التى تنظم علاقته بنفسه فى إطار تطهير الذات، وأخيراً تلك التى تنظم علاقته بغيره فى إطار ما يحكم التعامل من مبادئ استقرت فى الحقل القانونى كمبدأ الرضائية فى التعامل وحسن النية وعدم الاضرار " لا ضرر ولا ضرار " .... الخ.

ثانيا – من حيث النص

١ – القوة الذاتية لنص الرسالة

يجب أن يكون نص الرسالة متفقا مع جلال من أنزلها، ومن ثم يجب أن يكون قمة فى البلاغة والإعجاز، قمة فى الدقة والإحكام.. لا يعدله قول بشر أيا كان ما أوتى من بيان .. فهو نص ناطق بالحق وصادر عنه، **ولذا فهو مفعم بقوته الذاتية التى يستمدها من مصدر الكلم.**

وبمعنى آخر يحمل **طاقة نورانية خاصة** تميزه عن غيره من الكلام الدارج الذى يستخدم فى التخاطب، وأن هذه الطاقة تتجاوز كلماته إلى حيث حروفه .. كل ما هنالك أن هذه الطاقة لا تضيئ إلا إذا اشرقت القلوب لسماعها.

فنص الرسالة لا يستخدم فقط لبيان محتواها ولا لتداوله فى التخاطب، وإنما الأهم أنه **للتعبد** ، وذلك بتلاوة نفس الكلمات التى تحمل من عبير الذات الإلهية ما يكفى للقرب بين العبد وخالقه.

والسؤال : هو كيف من الناحية الواقعية **أن يكون لنص ما قوة ذاتية** تجعله يؤثر تأثيرا مباشراً عند سماعه ؟

والإجابة : أن ذلك غير مستبعد من الناحية الواقعية، ودلالتنا على هذا قصة قصيرة نعرج بها عن سياق الحديث لحظات لنعاود الحديث مع نتائج هذه القوة الذاتية لألفاظ الرسالة .

فأما عن القصة فحاصلها بلا استطراد أنى تصفحت مصادفة كتابا عن موضوع "علاج المس الشيطانى بالقرآن" . . . . سرعان ما طويته لفرط سذاجته، حيث أنه بعد قراءة بعض الآيات حضر الجان وقال أن اسمه كذا وأنه مسلم وقد دخل إلى جسم هذا الإنسان فى أعقاب سقوطه فى الحمام وذلك منذ سنوات، وأنه يشاركه جسمه . . . . الخ . . . وأن هذه القصة تكررت مع عشرات وقد طلب المعالج انصراف هذا الجان وتركه للجسم حيث امتثل معظمهم خشية الحرق . . . . الخ. وقلت فى نفسى وأنا اطوى صفحات الكتاب، لقد عاودنا فى انتكاسة الرجوع إلى قصص جدتنا عن أمنا الغولة والمارد الجبار . . . . وهكذا .

وما هى إلا أيام قليلة حتى التقيت بقريب لى كان يعمل عميدا فى البحرية ، يقاربنى السن فكنت أعلم عن حياته الخاصة المزيد . . وهى فى القليل حياة دنيوية محضة ينعم فيها

بحاضره فى غير غفلة، إذ كانت لديه ملكات فكرية عالية وعزيمة وإصرار عرفا عنه، وقلب لا يعرف الخوف لطيلة ما عمل فى الضفادع البشرية ومواجهته أخطار البحر . . الخ . . . . تصادف أن قرأ بدوره هذا الكتاب، وبدلا من أن يطويه باستخفاف قرر تجربة ما ورد به بنفسه، وقد واتته الفرصة حين اكتشف فى خادمته بعض أعراض المس . . فنفذ ما قرأه قولا وفعلا، فإذا بها تنطق بلسان الجان وتكلمه، وبعد إقناع انصرف عنها . كرر المحاولة مرات ومرات أخرى مع آخرين فإذا بها تنجح فى كل مرة . . . . وهنا أدرك الآتى:

١ - التأثير المباشر للآيات التى يقرأها على الجان لدرجة أنه بعد فترة من سماعها فى ضيق وضجر، يسعى للخروج من جسم الإنسان، بعد أن تكون قد أصابته بالضعف والهزال وعدم القدرة على المقاومة .

٢ - الضعف الإيمانى لدى المصاب بالمس، إذ أن معظم الحالات، إن لم يكن جميعها، تكون الإصابة بالمس لتاركى الصلاة والغافلين عن الذكر وتلاوة القرآن .

٣ - العلاج بالقرآن قد يستمر لفترة بعد خروج الجان كنوع من التحصين حتى لا يكرر الجان محاولته .

وقد ترتب على إدراكه هذه الحقائق التى عايشها فى واقعية كاملة، والتى طلب منى مشاهدة بعضها، أن قرر الآتى :

١ - تكريس ما بقى من حياته المقبلة فى التصدى لعلاج ما يصادفه من حالات المس . . تطوعا وحسبة لله . . . وقد صدق .

٢ – تلاوة القرآن بغير انقطاع مع أداء الصلاة ونوافلها فى مواعيدها، مع تمسكه ببقية العبادات من حج وصيام بالتزام كامل .. وذلك حتى يكون أهلا لرسالته الجديدة، وحتى لا يمسه هو غضب الجان فى صراعه معهم.

٢ – نتائج القوة الذاتية لألفاظ الرسالة

وبعد أن انفض معراج هذه القصة وأيا كان ما تحمله، نعاود الحديث عن نتائج القوة الذاتية لألفاظ الرسالة والتى يمكن تلخيصها فى الآتى :

١ – تلاوة آيات الكتاب المنزل بقدر المستطاع مرات ومرات وفى كل الأوقات والأعمار .. حتى ولو أحاط الإنسان بمضمونها وأدرك محتواها .. إذ المطلوب ليس فقط إدراك المحتوى، وإنما أيضا تلاوة النص.

ولعل السبب أصبح واضحا بعد عرضنا لهذه القصة. إذ تبينا أن هناك آيات معينة من الرسالة فتحت الأبواب بيننا وبين عالم الجان .. بحيث أمكن خطابهم فى معاقلهم بل والتأثير عليهم لحد الحرق لمن إعتدى منهم بغير حق.

وإذا كان هذا هو الشأن بالنسبة لهذه الآيات فما يدرينا بأن غيرها قد يفتح بيننا وبين عالم الملائكة، وأخرى بيننا وبين عالم الغيب .. وعالم الرزق .. وعالم الفرج .. وعالم القرب .... وهكذا، وما منا إلا وله حاجة قد تصادف التلاوة مفاتيحها فتجاب، وهنا كانت ضرورة التلاوة قدر المستطاع.

غير أنه يثور التساؤل عن مدى إمكانية الكلمة لتكون مفتاحا لمثل هذه الأبواب المؤصدة ؟

إلا أن الإجابة جد يسيرة وذلك من واقع ما وصل إليه العلم الحديث فى هذا الزمان .... أليست الشفرة التى هى كلمات لا معنى لها تكفى لأن تشعل حربا عالمية مدمرة !! أليست مفاتيح خزائن أكبر البنوك فى العالم التى ينوء عن حملها العصبة من ذوى القوة هى مجرد كلمات Key words ينطقها العميل فيفتح ما يشاء من خزائنها فى لحظات !!

٢ - **التقيد بذات النص الإلهى للرسالة بحيث لا يمكن استبدال نص بآخر طبقا لتطور اللغة الواردة بها الرسالة حتى ولو أدى إلى نفس المعنى .**

وليس فقط التقيد بالكلمات وإنما يتجاوز الأمر لحد التقيد بالحروف. إذ ما يدرينا أن الحروف الواردة بها - كما جاء فى أوائل بعض السور - لها دلالتها وقوتها الذاتية كمفاتيح لعوالم أخرى نجهلها ..، **وبالتالى فأية إضافة بشرية لنصوص الرسالة - سواء فى صورة مرويات أو خلافه أيا كان صدقها ومضمونها، لا تغنى عن النص الإلهى للرسالة .... إذ النص مطلوب لذاته للتعبد.**

٣ - **يؤخذ فى تفسير نص الرسالة بذات المعنى المقصود من اللفظ، وإذ كان اللفظ يحمل أكثر من معنى، أخذ بالمعنى الذى يساير مقتضى الرسالة ككل ....** ولا يجوز بحال الخروج على المعنى المستفاد من النص .... ويمكن القياس على الحالات الوارد بخصوصها نصوص إذا كانت تحمل نفس العلة .... الخ.

والمحصلـة :

أ - **أن نـص الرسـالة مطلـوب لذاتـه، باعتبـاره النـص الإلهــى لآيـات** الرسالة، حيث يحمل جلال وقوة وعظمة من أوحى بـه علـى رسوله، ومن ثم لا غنى عنه، ولا تبديل ولا تحريـف لكلماتـه حتـى ولا خروج على مضمونـه .... **وإلا كـانت الرسـالة مرويـات بشر واجتهادات أفـراد .. تحتمل الصـواب والخطـأ، والصدق والكذب، ومـن ثـم تفقد جلالهـا وقدسيتها، ولا تتعلـق بهـا عقيدة سـماوية تحتذى.**

ب - **والحفاظ على الرسالة هكذا بنصها - دون أن تتناولهـا يد التغيير أو التبديل أو الإضافـة أو التحريـف هـو مـن أهـم علامات إعجـاز** الرسالة، إذ يستحيل بحال أن يظل نص على حالته التـى تنـزل بهـا على مر العصور وتوالى الأزمان، ما لم يكن فى حفظ من تنزل به لهدف يقصده، وهـو أن يصـل رنيـن كلماتـه وتأثيرهـا الذاتـى علـى قلوب البشر وعقولهم فى ديمومة كاملة إلـى أبـد الآبديـن، باعتبـاره الدستور الأبدى الذى ينظم سلوكهم إلى يوم اللقاء بالذات الإلهية.

ج - **وإذا كـانت بعض الرسـالات السـماوية لـم تمتـد إليهـا يـد العنايـة الإلهية بالحفظ كما وردت نصا .. وإنمـا تنـاقلت علـى لسـان بشـر من جيل إلى جيل علـى اختـلاف فـى الروايـات، فليـس لقصـور أو عجـز فـى العنايـة الإلهيـة، وإنمـا ربمـا لأن هـذه الرسـالات كـانت موقوتة بعصرها وقومهـا وأهدافهـا. حتـى تـأتى الرسـالة الخاتمـة ذات الخطاب الجامع لكل النـاس فـى كـل العصور لتضـع بالإضافـة لنصـوص أحكامهـا الخاصــة بالعبـادة والمعـاملات، تلـك الأحكـام الخاصة بحقيقة هذه الرسالات وما طرأ على مسيرتها حتى التقت بالرسالة الخاتمة، فيكون البيان جامعا وشـاملا كـل أحكـام السـماء**

الصادرة عن ذات الإله، لتنظيم أمور كل البشر، فى جميع العصور بصفة نهائية فى رسالة واحدة ودائمة.

وهنا يكون استقرار النصوص والأحكام، وحفظها من لدن العليم بأمرها، له ما يبرره على الأقل بالمنطق العلمى والقانونى، ناهيك عن المنطق الدينى.

ولعل ما يجرى عليه العمل فى مجال القانون الوضعى خير دليل على ذلك .. إذ تظل قواعد القانون تتفرق لتنظيم بعض الوقائع والحالات الخاصة بفرع من فروع القانون، إلى أن يجمع بينها ما يسمى بالتقنين، الذى يرتب كل هذه النصوص ويكمل ما لم يرد بخصوصه نص، ويزيل ما يكون بين النصوص القائمة من تعارض، ويوحد بين مصادر هذه القواعد التى قد تكون العرف أو العادات أو نصوص تشريعية سابقة، ويصدر بها جميعا تشريع واحد ينتهى فيه أثر كل التشريعات السابقة، **يطلق عليه أسم التقنين**. الذى يتميز بالوحدة والثبات والشمول .. والأهم بالاحترام والتقديس.

د - **ومتى صدر التقنين النهائى للرسالة، واتصلت بعلم الناس، انتهت مهمة الرسول، ونشأت العلاقة المباشرة بين الإله والعباد، على النحو الوارد بأحكام وآيات الرسالة رأسا.**

وأصبحت الرسالة هى المنهج والدستور الذى ينظم علاقة الفرد بربه، دون وساطة من نبى أو رسول : فالعبادة خالصة لله، والطاعة والامتثال - عن إيمان وعقيدة - فريضة على العباد .... والدرجات والمنزلة عند الله هى لمن اتقى وأصلح.

الجلســـة الثــانية

تخير أحد الأديان من خلال منظور علمى

يتطلب تخير أحد الأديان، البحث فى كل الأديان المعروفة على ضوء المقومات الرئيسية التى عرضنا لها - عما يجب أن يكون عليه الدين بالمنطق العلمى المجرد سواء من حيث الإله أو الرسول أو الرسالة - وهى دراسات تتطلب جهدا وإلماما بعديد من اللغات غير المتداولة.

ولكن أيا كان أمرها وأيا كان ما يصادفها من عقبات وأيا كان ما تحتاجه من جهد، فهى فى النهاية تستأهل كل هذا الاهتمام حتى ولو تطلب الأمر التفرغ فترة من الزمن لإنجاز هذه الدراسة.

والسبب فى نظرى انها دراسات تحتاج إلى محاولات خاصة : ذلك أنها تمس عقيدة تأصلت فى نفوسنا منذ الطفولة وكانت عقيدة الآباء والأجداد، ومن الصعب أن يقتلع الإنسان جذور عادة توارثها وفكر درج عليه .. خاصة وإن كان ليس مجبرا حتى على التفكير فيه .... بل ما هو أكثر مطلوب منه التسليم به كما هو إيمانا واحتسابا لخالقه ، فكيف أن يجادل فيه ؟

ولكن ورغم كل هذه الاعتبارات السابقة فما زالت المحاولة الخاصة مطلوبة وبشدة، بعد أن بلغ العلم عندنا مداه فى هذا العصر، وأصبح كل شىء خاضعا للمنطق والتحليل العلمى.. حتى ولو كانت

الأديان التى ظلت لحقبة طويلة من الزمن بعيدة عن المناقشة والبحث، لأنها من المقدسات التى لا تمس حتى ولو كان بعض دعائمها لا يتفق والمنطق العلمى المعاصر.

وإليك تجربتى ومحاولتى الخاصة.. والتى لا أحكم بها على غيرى.. فلكل تجربته .. والله فى النهاية أعلم بمن إهتدى.

فى صباى.. ومع صعوبة الدراسة فى الثانوى والجامعة، وأثناء السكون فى الأجازات الصيفية فى الريف حيث كان بيت الأسرة، وفى عزلة عن الرفاق والأصدقاء حفاظا على الوضع الاجتماعى الذى احتله كابن عمدة ..

بدأت رحلتى بوقفه مع النفس قلت فيها .. قضيت من العمر ما يقرب من عشرين عاما فى الدراسة ، حتى انعم بالعمل ما يقرب من أربعين عاما فى القضاء، وإذا ما وفقت فى الدراسة العليا عشرة أعوام مقبلة يمكن أن انعم بالعمل فى الجامعة ما يقرب من ثلاثين عاما .. أى **باختصار** أنى أمضيت من العمر ثلثه لأنعم بالثلثين ، وإذا ما أردت المزيد .. على أن استمر فى الدراسة والبحث نصف عمرى حتى أنعم بالنصف الباقى .. وكل ذلك فى تميز نسبى - بالنسبة للحياة المقبلة - إذ لا يكاد يتميز العمل فى القضاء أو الجامعة عن غيره إلا فى القليل.

وهنا أدركت ضرورة البحث فى الأديان والالتزام بأحدها حتى ولو تطلب الأمر بضع سنين، والتعرف على أكثر من لغة ، إذ المقابل حياة أبدية كاملة فى تميز تام أو جحيم مطبق .

وقد عقدت العزم على أن التزم فى اختيار أحد هذه الأديان بالآتى:

١ - التجرد المطلق عن المعتقدات الشخصية :

ليكون الاختيار موضوعيا بحتا، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تصورت بالمنطق العلمي ما يجب أن يكون عليه الدين الأمثل بعد تحليله إلى ركائزه من : إله ورسول ورسالة على النحو السابق بيانه، وهنا يكون الاختيار هو لأقرب الأديان لهذا الدين الأمثل.. ومتى تم الاختيار فلا سبيل إلا انتهاجه بكل قوة وحسم : ذلك أن الحياة مهما طالت فهى قصيرة، والثواب والعقاب مهما تجاهلناه فهو حقيقة، والأبدية مهما باعدنا بيننا وبينها فهى واقع .... الخ.

٢ - ارتقاء المقارنة بين الأديان :

أى الاهتمام فقط بالمقومات الأساسية لتلك الأديان دون الخوض فى التفصيلات والفرعيات، إذ أن تلك مرحلة تالية لمرحلة اعتناق أحدها.

٣ - التأنى فى إصدار القرار بالاختيار :

بمعنى تأجيل الحكم على أى من الأديان إلا بعد الإحاطة بكل هذه الأديان حتى نصل إلى العقيدة السليمة فى النهاية سواء من الناحية العلمية أو التطبيقية.

وقد بدأت المسيرة بالتعرف من خلال صديق [١] على ما كتب عن المسيحية واليهودية باعتبارهما أهم الديانات السماوية، لفت نظرى أنه

---

[١] بسؤال صديق لى كان يتأهب للالتحاق بسلك رجال الدين المسيحى عن أهم المصادر التى يمكن الرجوع إليها لمعرفة أصول المسيحية واليهودية وكان جوابه عن المسيحية أن هناك مصادر مشتركة وهى المصادر الرسمية والمعتمدة عند أغلب الكنائس المسيحية وتتضمن الكتاب المقدس، والكتابات =

ليس هناك كتاب واحد بنصه (أى ذات اللفظ) ومضمونه منزل من السماء شأن القرآن فى الإسلام وإنما مرويات عما نزل على سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام وقد دونت هذه المرويات بعد فترات من رحيلهما وهو الأمر الذى تداخلت فى روايتها وتدوينها يد البشر بدليل التباين فى النصوص بين الأناجيل باختلاف من صدرت عنه.

= المنسوبة إلى الرسل، وقرارات المجامع الكنسية، ومراسيم رجال الدين ، والعرف.وبالنسبة للديانه اليهودية فهناك الكتاب المقدس وهو التوارة والتلمود، والعرف ، وآراء الفقهاء ..

وعندما سألته:الإجابة عن الكتاب المقدس فقط حيث أنى اعتزم فقط البحث عند حدود الاصوليات.

أجابنى : أنه الكتاب المقدس والذى يعتبر أهم مصادر الشريعة المسيحية يتضمن :

العهد القديم : ويشمل تسعة وثلاثون سفرا، ويرى اليهود والنصارى أن الأسفار الخمسة الأولى منها هى التوارة التى نزلت على سيدنا موسى عليه السلام، وأما الأسفار الأخرى فتتضمن أخبار أنبياء بنى إسرائيل من بعد موسى وتاريخهم وأناشيدهم ونبوءاتهم.

العهد الجديد : وهو الإنجيل ويحتوى على أربعة أناجيل هى (إنجيل متى وإنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا) وهذه هى الأناجيل المعتمدة عند المسيحين، ويوجد بعض أناجيل أخرى لا يتضمنها العهد الجديد، ومن ثم فهى غير معترف بها كانجيل برنابا.

وبالإضافة إلى الأناجيل الأربعة المعترف بها توجد رسائل الرسل (بولس ويعقوب وبطرس ويوحنا ويهوذا) وقد جاء بها بعض أحكام وتوضيح لبعض المسائل.

أما عن الكتاب المقدس عند اليهود ، فهو

التوراة وهو المصدر الأساسى لكافة الشرئع اليهودية، وهو الكتاب الذى أنزل على سيدنا موسى عليه السلام ويطلق عليه العهد القديم، ويتكون من عدد من الأسفار (سفر التكوين ، والخروج، والأخبار، واللاويين، والتثنية .. هذا إلى جانب الأسفار الأخرى التى كتبها أنبياء بنى اسرائيل).

التلمود وهو المصدر الثانى للشريعة اليهودية وذلك مع مراعاة اختلاف الربانيين والقرائين فى النظر إليه. فالربانيون ينظرون إليه على أنه كتاب سماوى منزل، بينما القراءون ينظرون إليه على أنه كتاب فقهى جاء مفسرا للتوراة.

وعندما سألته فقط عن الكتاب الذى ورد بنصه ومضمونه وحيا من السماء على الرسول شأن القرآن فى الإسلام قال إنما روى هذا الكتاب عن أكثر من شخص من اتباع المسيح وحوارييه (إنجيل متى وإنجيل مرقص .... الخ).

والحقيقة أنها أثارت فى نفسى العديد من التساؤلات .... إلا أننى قررت أن أرجئ البحث - خاصة وأن ما توافر لدى من صديقى وقتها من كتب عن المسيحية واليهودية كان قليلا - حتى التقى برسالة الإسلام وهى القرآن، **عسى أن أجد فيها ما يغنينى عن البحث فى الأديان الأخرى.**

ولأول مرة أقرأ فيها القرآن بعيدا عن التعبد، وإنما فقط من خلال منظور علمى، فاكتشفت فيه أنه الرسالة الوحيدة التى لم يداخلها قول بشر. وإنما انتقل النص كما نزل على رسول الإسلام إلى الناس كافة فى مختلف بقاع الأرض وعلى مر العصور .... فلا يوجد أدنى خلاف ولو فى حرف واحد بين مصحف فى الشام وآخر فى مصر أو باكستان أو الهند منذ صدر الإسلام وحتى الآن، وإنما جميعها فى حفظ من أنزلها، وفى ذلك يقول الحق " *إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون* " [١] .

وهكذا كان اللقاء بنص رسالة كما نزلت من السماء، وليس بمرويات عن الرسالة :

وحينئذ قادنى منطق البحث العلمى المجرد إلى التساؤل عما إذا كانت هذه الرسالة قد نزلت عن السماء حقا - نصا ومضمونا - ليكون الإيمان بها عن يقين وصدق، وبحيث يغنى البحث فيها عن البحث فى الرسالات الأخرى إذا ما توافرت فيها شروط الدين الأمثل، أم أنها بدورها يمكن أن يخالطها قول بشر ؟؟

---

[١] سورة الحجر : الآية ٩.

وكان ردى على هذا التساؤل .. **أن الذى يؤكد بيقين صدورها عن السماء، وأنها تتوافر على شروط الدين الأمثل (الذى تصورناه بالمنظور العلمى) ، ما يلى :**

أولا - أنها فوق لغة أهلها

من حيث الإعجاز البلاغى وهذا باعتراف أساطين اللغة وشعراء العرب وأدبائهم فى الجاهلية ، وما زالت حتى الآن تنفرد بموقعها الذى أراده لها خالقها، لا يدانيها فيه قول بشر.

ثانيا - أنها تنطق بالعلم

فما من يوم يمر على البشرية فى عصرها الجديد .. عصر العلم والمعرفة، إلا وتشهد بحثا أو نظرية أو تجربة أو حدثا علميا يؤكد ما ورد بآية من آيات الرسالة دون أن ندركه وقتها .... ومازال فى العلم الكثير، ومازالت آيات الرسالة خفاقة.

ثالثا - أنها تصلح دستورا لدين أمثل

يكاد يتطابق فى مقوماته الأساسية مع مقومات الدين المثالى الذى تصورناه بمنطق العلم .. فها هى تكلمنا عن :

١ - **الإله** : جمعت الرسالة هنا ما يفوق كل تصور عن الإله وقدرته وجلاله ووحدانيته ومشيئته .... ويكفى قولها فى مجال القدرة

"*إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون*" [١] أليس فى هذا قمة الدلالة على طلاقة القدرة للحد الذى يمكن معه القول بأن هذا الكون الفسيح بكل ما فيه من كائنات وموجودات، من أرض وسماوات، من بحار وأنهار ، من أزمان وعصور، من إنس وجان .... الخ .... **إنما هو أمره لحظة قال كن كونا فكان.**

ألا يكفى هذا وحده - حتى بلا استشهاد بمئات الآيات الأخرى التى تدل على رحمته، وعزته، وجلاله ، واحاطته بعالم الغيب والشهادة، وملكه ، وهيمنته، وقوته، وجبروته، والأهم من ذلك وحدانيته - للتدليل على عظمة الإله وانفراده بملكوت السماوات والأرض !!

ألا يكفى هذا - بمنطق العلم المجرد الذى بلغ ذروته فى عصرنا - أن تكون عبادتنا لهذا الإله الأعظم، الذى يقودنا كل جديد فى العلم لتبيان مزيد من القدرة الإلهية، حتى عجزنا فى النهاية عن استيعاب طاقاتها فكان التسليم بجلاله إيمانا واحتسابا .... كما تدعونا آيات الرسالة.

ألم يرد فى الذكر أن الوجود الذى نعايشه إنما هو الحياة الدنيا التى يعقبها حياة أخرى هى المستقر .... ألا يدل ذلك على خطة إلهية كبرى تناولت ما قبل الوجود وما بعده، رسمها رب القدرة الجدير بالعبادة والتقديس .

وهكذا نجد أن الإله الذى ورد ذكره فى القرآن، هو الإله الأعظم

---

[١] سورة يس ، آية ٨٢.

الذى أحاط بكل شيئا علما، والـذى بلغت قدرتـه الكون ومـا قبلـه وبعده والذى تناولت مشيئته عالم الغيـب والشـهادة .. فـى رسـالة قدرهـا علـى الإنسان لمواجهة واقعه فى الحياة الدنيا ومستقبله فى الآخرة .. كل ذلـك بصورة أبلغ مما تصورناه بالمنطق العلمى المجرد عمـا يجـب أن يكـون عليه الإله.

٢ - **الرسول** : تناولت آيات الرسالة العديد من الآيـات التـى تحـدد مهمة الرسول فقط فى تبليغ الرسالة، **لتصـير العلاقـة مباشـرة بيـن العبـاد والخـالق** *"وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسـل"*[١] وهـذا يـدل فـى ذاته على صدق الرسول فى نقل الأمانـة، إذ لـو كـان لـه مـن الأمـر شـيئاً لأضفى على نفسه الكثير لينـال مكانـة عند النـاس، وإنمـا آيـات الرسـالة جميعها فقط عند قول *"إن أنا إلا نذير وبشير لقـوم يومنـون "* [٢] *" إنـك لا تهدى من أحببت "* [٣]، *لست عليكم بوكيل "* [٤] *"لست عليهم بمصيطر"* [٥].. وهكذا. كل ذلك فى بشرية كاملة نطقت بها آيات الرسالة وسيرة الرسول.

ويكفى قول الحق *" أفـإن مـات أو قتـل "*[٦] لمعرفـة مـدى خضوعـه لكـل قوانيـن البشـر وأهمهـا عـدم علمـه بسـاعة اللقـاء أو كيفيتـه. وأيضـا ما ورد فى الآية الكريمة *" قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضـرا إلاما شـاء الله* [٧] *"* كل ما هناك أنه كان يتحلى بالخلق العظيم ليصير قدوة حسـنة

---

[١] سورة آل عمران : آية ١٤٤.

[٢] سورة الأعراف : آية ١٨٨.

[٣] سورة القصص ، آية ٥٦.

[٤] سورة الأنعام ، آية ٦٦.

[٥] سورة الغاشية، آية ٢٢.

[٦] سورة آل عمران، آية ١٤٤.

[٧] سورة الأعراف ، آية ١٨٨

للأولين والآخرين من الناس "*لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم*" [١] ، وكانت أهم صفاته الصدق والأمانة لتصل الرسالة بحق فيصدقها الناس عنه بقلب ....، وأيضا العزيمة التي قادته لأن يجابه عتاة الكفر في معاقلهم تارة بالصبر عليهم كما ورد في الآية الكريمة "*فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم* "[٢] وأيضا" *فاصبر أن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون* " [٣] وتارة أخرى بالتصدي لهم بكل قوة ، وفي ذلك تقول الآية الكريمة" *فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم* "[٤] وأيضا الآية الكريمة " *محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم* " [٥] .

حقا إن مكانته عند الله عالية لا يدانيه فيها بشر، من قبل أو من بعد، **ولكن ذلك لم يخلع عنه بشريته أو يجعل منه وسيطا في العلاقة بين العباد والإله** وفي ذلك تقول الآية الكريمة" *قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا* " [٦] ، وإنما هي علاقة مباشرة أساسها تقوى الله والطاعة والامتثال لأوامره ونواهيه .. دون أن يخالطها أي نوع من الشرك أيا كان نوعه أو مداه، فالرسول قد انتهت مهمته بتبليغ

---

[١] سورة التوبة ، آية ١٢٨.

[٢] سورة الأحقاف : آية ٣٥.

[٣] سورة الروم : آية ٦٠.

[٤] سورة محمد : الآية ٤.

[٥] سورة الفتح : آية ٢٩.

[٦] سورة الفتح : آية ١١.

الرسالة وانتقل إلى حيث مقامه بين الأنبياء والرسل فى حياة لا يعلم كنهها إلا الله. " *اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمنى ورضيت لكم الإسلام دينا* "[١] .

٣ - **الرسالة** : تناولت رسالة الإسلام كل ما يجب أن يتوافر فى الرسالة من خصائص.

فهى من حيث المضمون : رسالة جامعة خطابها للناس كافة .... وحكمها لا يرتبط بواقعة معينة بذاتها وإنما لكل واقعة تتوافر فيها شروط الحكم أيا كان العصر والمكان.

وهى تصلح لكل زمان ومكان لتنظيمها لأمور العبادات بنصوص قطعية وتركها أمور المعاملات بما يتفق ومصلحة العباد فى إطار الأحكام الكلية التى تتفق وأصول الشريعة.

والأهم أن آياتها ناطقة بالعلم وخطاب العقل، فما من يوم إلا ويكتشف العلم الجديد عن صدق آياتها، وما من موقف إلا ويخاطب العقل ليكون الإيمان بها عن وعى وإدراك :

وأخيراً فهى شاملة فى التبصير بواقع الكون الذى نعايشه، وما هو أكثر بالحياة الأبدية التى تنتظرنا وما فيها من نعيم مقيم، وعذاب أليم جزاءاً وفاقاً لأعمالنا فى هذه الحياة التى نعيشها.

وهى من حيث النص : سندها قاطع فى آيات الكتاب المنزل، وليس عن مرويات قد تختلط بقول بشر فيجعل السند دائما محل شك .. فهى فى

---

[١] سورة المائدة : الآية ٣ .

حفظ من أنزلها ومن ثم كانت على مر العصور وحتى الآن وإلى أن يشاء الله لهذا الكون أن يكون كتابا واحدا، أحكمت آياته.

ومن ثم لا نجد اختلافا حتى ولو فى نص واحد أو حتى حرف من حروفها، رغم ما مر على الأمة الإسلامية من حروب وفتوحات، ورغم امتدادها عبر الأقطار والأمصار.

وهو نص له قوته الذاتية التى تفتح بـه الأبواب .... وقد سبق لنا التعرض لبعض الآيات التى تفتح بيننا وبين عالم الجان، واستنتجنا أنه ربما آيات أخرى تفتح بين عالمنا وعالم الملائكة .. وعالم الغيب .. وعالم الرزق .. وعالم القرب .. وهكذا.

وقلنا وقتها أن أوائل السور من الحروف، التى نحتار فى تفسيرها، قد تكون بدورها لها قوتها الذاتية كمفاتيح لعوالم أخرى نجهلها .... الخ.

والأهم فى نصوص هذه الرسالة وآياتها أنها تخاطب كل من البشر على قدر إدراكه، فيجد فيها الجاهل ملاذه من القرب بما تحدثه من رنين على القلوب، ويجد فيها العالم صدق إيمانه بما تحدثه من إشباع للعقول.

والمحصلة أننا نجد أن رسالة الإسلام باليقين صادرة عن السماء، وهى تصلح - بالمنطق العلمى المجرد - لأن تكون دستوراً ونهجاً لدين يتطابق ومقومات الدين المثالى الذى تصورناه : فالفواصل فيها واضحة، والحدود فيها قاطعة :

فالإله فيها هو الإلـه كما يجب أن يكون بلا خلط من رسول أو ولى. ومن ثم تعالت قدرته وعظم شـأنه للحد الذى فاق كنهه إدراكات العقل البشرى.

والرسول هو الرسول كما يجب أن يكون فى بشرية خالصة وفى مهمة محددة هى تبليغ الرسالة للناس لتكون العلاقة مباشرة بينهم وبين الخالق ، ومن ثم فلا مجال لتأليهه.

والرسالة هى الرسالة كما يجب بمنطق الفهم أن تكون واضحة الهدف، محددة الغرض، حرفية النص لتكون قاطعة الدلالة فى تحديد معالم الطريق إلى الله بالصورة التى أرادتها المشيئة الإلهية ، بلا أدنى تأويل أو تحريف أو شك فى الرواية عن أى من بشر مهما بلغت قدسيته أو مكانته.

ومن ثم فالوقوف عند رسالة الإسلام ، يغنى عن البحث فى الرسالات الأخرى (خاصة وقد بينت رسالة الإسلام حقيقة هذه الديانات، كما بينت أن الإيمان بها جزء مكمل للإيمان برسالة الإسلام ، على نحو ما سيبين)، طالما تكاملت فيها كل مقومات الدين المثالى الذى تصورناه بالمنطق العلمى المجرد.

الجلســة الثالثــة

الأثر المترتب على اختيار الدين الأمثل

عـرض وتقسيـم :

بينا سلفا أن الإسلام توافرت فيه كل مقومات الدين المثالى الذى تصورناه بالمنطق العلمى المجرد، سواء من حيث الإله أو الرسول أو الرسالة.

بقى أن نعرف الأثر المترتب على اختيار هذا الدين الذى ختم به الخالق رسالات السماء، وهل هو علـى قدر ساحة الخلق جميعا، بحيث يغطى ماضى البشرية وما مر عليه من ديانات، ويعرض لحاضرها حيث غيره من الأديان الأخرى التى تشغل الساحة معه فيحدثنا عن حقيقتها، وفى النهاية هل يصلح هذا الدين لحكم مستقبل البشرية .

وعلى ذلك فإننا نتناول بالعرض ما يلــى :

أولا – نظرة الإسلام إلى الأديان الأخرى من الناحية التاريخية.

ثانيا – نظرة الإسلام إلى الأديان المعاصرة من الناحية التحليلية.

ثالثا – صلاحية الدين الإسلامى لحكم مستقبل البشرية.

أولا
نظرة الإسلام إلى الأديان الأخرى
من الناحية التاريخية

حدثنا الإسلام عن العديد من الأنبياء مرورا باليهودية والمسيحية . وقد تناول القرآن الكريم قصة كل من هؤلاء مع قومه وكيف أنهم كذبوه، واستكبروا على ما أتى به من أمر ربه، فأذاقهم الله وبال ما كفروا به هلاكا فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب الحريق .... إلا من آمن منهم عن بينة فكان جزاؤه فى الدنيا حسنة وله فى الآخرة نعيم مقيم.

وحاصل هذا القصص عن الأنبياء وما تضمنته دعواهم إلى أقوامهم، أنها جميعا :

صادرة عن ذات الإله الواحد العزيز الجبار المتكبر .... الخ، الذى وسع علمه كل شىء، والذى ترامت قدرته إلى ما بعد الوجود، حيث مرحلة الأبدية التى فيها المستقر والمقام فى ديمومة عند ذى العرش.

وأنها جميعاً نزلت على بشر، ولم ينزل إحداها على غير ذلك من خلقه .... فالرسول والنبى دائما وأبداً من الناس، بل ومن عوامهم وقد تعرض معظمهم فى سبيل أداء الأمانة لكل ما يتعرض له البشر من صنوف القهر والتكذيب والاستهجان . **وكان برهان بعضهم لقومه** معجزة من السماء، وكان للآخرين غضبة من السماء على قومه.... تجعلهم كحصاد الهشيم.

وأنها جميعا تحمل ذات الدعوة إلى عبادة الإله الواحد ذى القدرة، والنهى عن الشرك والفسوق .. فى إطار من نهج رسمه الإله لكل رسول أو نبى .

ومن ثم فالأديان كلها فى الإسلام فى تكامل، كل ما هنالك أنها مرت بتتابع فى الأنبياء والرسالات لتغطى احتياجات الزمان والمكان من الدعوة للإله الواحد، فى فترة كانت البشرية مازالت فى مرحلة البكارة.... لم تنقشع عنها بعد غشاوة الجاهلية الأولى.

إلى أن كانت الرسالة الخاتمة التى ألمت بجوامع الكلم الإلهى، الذى تنزل تترا على الأنبياء والرسل - قولاً وفعلاً - فى دعوة خالصة لعبادة الإله الواحد القهار، فى إطار كتاب فصلت آياته فكان منها ما يخص أحكام العبادة لله، وتلك التى تخص أحكام المعاملات بين الناس كل الناس، حملها رسول من أنفسهم ليكون البلاغ عن بينة بذات النص الإلهى الذى جعل الإيمان بها إيمانا ***" بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله*** *وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير "* [1].

ومن ثم فالإيمان باليهودية والمسيحية كما صورها القصص القرآنى هى من أهم مقومات الإيمان بالإسلام، فكل الأنبياء والرسل والكتب السماوية هى فى تكامل كامل مع رسالة الإسلام، كل ما هنالك أن رسالة الإسلام أضحت التقنين الكامل والنهائى لشريعة السماء **الواجبة التطبيق والإلزام،** وصارت الشرائع السابقة عليها من قبيل **المصادر المادية والتاريخية** لهذا التشريع الخاتم.

ويترتب على ذلك :

أنه لا مجال للخيرة بين الشرائع السماوية فى نظر الإسلام [2] ، إذ أن لكل شريعة منها زمانها ومكانها الخاص بها.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٥.

(٢) حيث مناط الخيرة فقط هو حيث يوجد التضاد وليس التكامل.

وإنما فقط ما يحكمها هو التكامل حيث أن الرسالات جميعها قد وردت على تتابع بين الرسل إلى أن استقر حاصلها فى الشريعة الخاتمة التى اصبحت شريعة كل زمان ومكان.

ثانيا

نظرة الإسلام التحليلية للأديان الأخرى المعاصرة

رسالة الإسلام باعتبارها الرسالة الخاتمة والتى جعلت الإيمان بالأديان والرسالات السماوية متمما لها، لم تقتصر على تحديد منهجها وأصولها، وإنما تناولت أيضا تحليل ما يكون قد طرأ على الرسالات الأخرى المعاصرة من تحريف وتبديل نتيجة مضى فترة طويلة بين نزول هذه الرسالات وتدوينها على لسان بعض من البشر، **وبالتالى فهى لا تحكم على هذه الأديان لأنها تؤمن بأن كل من هذه الأديان حق، وإنما هى تحكم على ما إذا كان النص المروى قد صدق عن الدين أم تناولته يد التحريف والتبديل، وذلك بهدف تطهير هذه الأديان من عوالقها البشرية.**

وقد تم ذلك بالنسبة للدعائم الثلاث الرئيسية للأديان على النحو التالى :

بالنسبة للإله :

بعد أن تناولت الرسالة الخاتمة مفهوم الإله وبينت انه الإله الواحد الأحد الذى يملك كل هذا الكون وما بعده فى ملكوت لا يعلم مداه إلا

خالقه، وأنه القاهر فوق عباده وأنه وسع كل شيء علما، وأنه العزيز الجبار المتكبر ، وإنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ..

نجدها وقد تعرضت لما تواتر فى المرويات عن الأديان الأخرى عن أن **الإله – بجلال شأنه – قد نزل إلى حيث مصاف بعض خلقه من الرسل، ليؤدى الرسالة بذاته الإلهية** ... الخ. وقامت بتحليل هذه المقولة والرد عليها بما جاء فى الآيات الكريمة التى تقول "*لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم أنظر أنى يؤفكون*" [1] .

بالنسبة للرسول :

بعد أن تناولت الرسالة الخاتمة شخصية رسول الإسلام، سواء من حيث ذاته البشرية الخالصة أو حدود مهمته التى تتركز أساسا فى تبليغ الرسالة والدعوة لها .... لتصير العلاقة مباشرة بين العباد والخالق.

نجدها وقد تعرضت لتلك المقولة التى ترفع **بعض الرسل لمصاف الآلهة**، بأن كان هو ذات الإله أو ابنه **لتحللها وتذكر حقيقتها بوضوح**

---

[1] سورة المائدة : الآية من ٧٢ – ٧٥.

كامل وذلك فيما ورد عن الحق "وأذكر في الكتاب مريم إذ إنتبذت من أهلها مكانا شرقيا * فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا * قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشرا ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا * فحملته فانتبذت به مكانا قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا * فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلي واشربي وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا * **قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركا إين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم " [1] ، وأيضا " **وقالت اليهود عُزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله** ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم **وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه**

---

[1] سورة مريم : الآية من ١٦ – ٣٧

عما يشركون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * وهو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون "[١]، وأيضا " وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا "[٢] ، وأيضا " وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون "[٣]، وأيضا "بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل "[٤] . كما ورد أيضا " وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته إنك تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم"[٥] .

كما ورد أيضا " لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير"[٦] .

---

[١] سورة التوبة : الآية من ٣٠ - ٣٣.

[٢] سورة الكهف : الآية ٤ ، ٥ .

[٣] سورة البقرة : آية ١١٦.

[٤] سورة الأنعام : آية ١٠١ ، ١٠٢.

[٥] سورة المائدة : الآية من ١١٦ - ١١٨ .

[٦] سورة المائدة آية ١٧.

بالنسبة للرسالـــة :

بعد أن بينت شريعة الإسلام أن أهم ما فى رسالتها أنها عامة تخاطب كل البشر بلا أدنى تفرقة بينهم من جنس أو لغة أو دين : فالكل أمام الخالق سواء، والتبصير بالطريق إلى الله هو لب الرسالة، والإحاطة بمصير الإنسان فى حياته الأبدية هو غايتها .. حتى يكون الإنسان على بينه من أمره فى دنياه وآخرته .... الخ.

نجدها وقد تعرضت للمقولة التى جعلت رسالة بعض الأديان **تخص بالفضل قوما دون الآخرين وتميزهم على من سواهم** حيث ردت على هذه المقولة بقولها " *وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم **بل أنتم بشر ممن خلق** يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير* " [١] ، وأيضا " ***وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى** تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين* " [٢] .

وهكذا نجد أن رسالة الإسلام قد اهتمت بالأديان السماوية المعاصرة، على أساس أن الإيمان بهذه الأديان جزء متمم للإيمان برسالة الإسلام. ولذا قامت ببيان ما قد يكون اخفى منها والرد على ما أضيف ليظل جوهر هذه الأديان كما تنزلت به رسالة السماء. وفى ذلك تقول الآية الكريمة " *يا أهل الكتاب **قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير** قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم* " [٣] .

---

[١] سورة المائدة ، آية ١٨.

[٢] سورة البقرة : آية ١١١.

[٣] سورة المائدة : الآية ١٥ ، ١٦.

ثـالثـــا

صلاحية الدين الإسلامى لحكم مستقبل البشرية

الواقـع أن الدين الأمثـل الذى اخترنـاه – وهـو الإسـلام – هـو مـا يصلح فى نظرى لحكم مستقبل البشرية ....ذلك أن فيه كل المقومات التى تؤهله لأن يساير مقتضيات العصور المقبلة.

العصور التى تتميز :

أولا : باعمـال العلـم وتحكيم العقـل فـى كـل منـاحى الحيـاة بحيـث أصبح التقدم الحضـارى كله قائما علـى البحـوث العلميـة والمعملية بغض النظر عن التبعية السياسية للقائمين عليها.

فقد أوشك العلم أن يوحد بين الحضارات ليجمعها على بناء الإنسان أيا كان هويته بحيث تكون النظرة المستقبلية هى لتحقيق رفاهيته فى إطار من قواعد تنظيمية تحكمه وتقرر له العديد من الحقوق التـى نصـت علـى بعضها فقط المواثيق الدولية **وعرفت باسم " حقوق الإنسان".**

ثانيا : التركيز على العمل من خلال بناء الإنسان القادر على تحمل مقتضيات التطور الحضـارى المقبـل إيـا كـانت الوسيلة المستخدمة لحثـه على العمل.

ولما كان الدين الإسلامى يتميز بأنـه يخـاطب العقـل ويحـترم العلـم ويوحد بين البشر وينظم العلاقة بين الإنسان وخـالقه وبين الإنسان ونفسـه وبين الإنسان والآخرين فى إطار من قواعد تنظيميـة لهـا صفـة العموميـة والدوام.

وبذا يتجاوز المدى الذى وصلت إليه المنظمات الدولية التى اقتصرت على تنظيمها لحقوق الإنسان.

وأيضا يتميز باحترامه للعمل من خلال بناء الإنسان القادر على النهوض بحضارته .

لذلك فإن :

كتابه المنزل وهو القرآن الكريم يصلح لأن يكون تقنينا إلهيا خاتما لأحكام السماء... حيث تجاوز بمراحل ما نعرفه عن حقوق الإنسان وغيرها من احكام وضعية نصت عليها المواثيق الدولية.

أحكام شريعته تصلح لأن تكون منهاجا للتربية الروحية والبدنية والسلوكية لكل البشر. وإنما فقط فى إطار القيم والمبادئ الخلقية والاجتماعية.

وفيما يلى نعرض تفصيلا لبحث كل من هاتين الدعامتين، على النحو التالى :

الدعامة الأولى : القرآن الكريم يمثل أحكام التقنين الإلهى الخاتم.

الدعامة الثانية : صلاحية شريعة الإسلام لتكون منهجا للتربية (الروحية والبدنية والسلوكية).

الدعامـــة الأولى

القرآن الكريم يمثل أحكام التقنين الإلهى الخاتم

تعرضنا إلى كل الاعتبارات العلمية والمنطقية التى قادتنا سلفا إلى اعتبار آيات وسور القرآن الكريم لها قداستها العلوية، ومن ثم من الناحية الموضوعية يحق أن تحتل مكانة التقنين الإلهى (إذ لم تتناولها يد التحريف بالإضافة إلى أنها فوق لغة أهلها .. وأنها تنطق بما يقودنا إليه كل جديد فى العلم .. وأنها تصلح دستورا للدين الأمثل، **حيث حددت الفواصل بين مقومات الدين** من إله ورسول ورسالة بصورة تفوق التصور .... الخ).

بقى أن نضيف إلى هذه الاعتبارات السابقة بعض الخصائص العملية التى تقطع بأن آيات وسور القرآن الكريم تمثل أحكام التقنين الإلهى الخاتم [1] .

---

[1] وإن كنت أشير – بداءة – إلى أن القياس بين آيات وسور القرآن الكريم باعتبارها أحكاما للتقنين الإلهى وبين أحكام التقنين الوضعى إنما هو قياس مع الفارق :

أ – ذلك أن التقنين الوضعى يضع فقط أحكاما تنظم علاقة الدولة بالأفراد أو الأفراد بعضهم ببعض فيما يتعلق بفرع معين من فروع القانون ، بينما التقنين الإلهى يضع أحكاما تجاوز تلك التى تنظم علاقة الأفراد فيما بينهم لتتناول بالإضافة إلى ذلك علاقتهم بأنفسهم وأيضا بخالقهم، وذلك فى كل ما يتعلق بأمور دنياهم وآخرتهم .... ولذلك فإن أحكام التقنين الوضعى تقتصر على مجرد نصوص وفقرات مهمتها مجرد فرض هذه الأحكام فى صورة أوامر ونواهى، فى حين أن أحكام التقنين الإلهى تتخذ شكل سور وآيات هدفها بسط المعلومة وسرد الحدث وعرض الواقعة واستنباط الحكمة والتعرف على مظاهر القدرة والترغيب فى إتباع نهج معين والتحذير من إنتهاج آخر .. بالإضافة إلى بعض الأحكام القطعية سواء فيما يتعلق بالمعاملات أو العبادات وهى التى لابد منها.

=

وفيما يلى نعرض لهذه الخصائص العملية، ثم نعرض للآثار المترتبة على اعتبار القرآن هو التقنين الإلهى الخاتم، وذلك على النحو التالى :

أولا - الخصائص العملية لاعتبار القرآن التقنين الإلهى الخاتم :

١ - القرآن مجمع الأديان :

تناول القرآن الكريم فى محكم آياته كل الأديان السابقة، وأهمها اليهودية والمسيحية وغيرها. فنجده وقد استعرض كل الأنبياء والرسل : نوح وإبراهيم وصالح ولوط ويعقوب وهارون وموسى وعيسى .. وليس فقط ، بل تناول أقوامهم وما كانوا يعبدون وما دعاهم إليه نبيهم المرسل بالبشرى والنجاة من النار. فهؤلاء قوم إبراهيم وصالح وبنى إسرائيل وثمود وعاد .. الخ، وكيف كان كل قوم من هذه الأقوام ينكر نبيهم ويكذب دعوته ويستعجله الوعيد حتى يأتى أمر الله فيجعل من بعضهم صعيدا جرزا، ويهلك آخرين بريح صرصر، أو يغرقهم بماء لا يستطيعون له دركا .. وهكذا.

كل هذا من خلال قصص قرآنى هادف، لاستعراض ما مرت به البشرية على مدى تطورها مع تلك الأحكام السماوية المنزلة، التى تدعوهم إلى عبادة إله واحد له الأمر والحكم وهو على كل شىء قدير، وأن ما يعبدون من دونه آلهة لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً.

= ب - الجزاء بالنسبة لقواعد التقنين الوضعى جزاء دنيويا توقعه السلطة العامة بينما الجزاء بالنسبة لمخالفة أحكام التقنين الإلهى جزاء مضافا إلى ما بعد الموت يتمثل فيما يصيب الإنسان من عذاب الحريق أو جنة النعيم. وهذا الفارق بداهة يرجع إلى أن التقنين الإلهى شامل لكل جوانب الحياة الدنيا والأخرة.

ونظرة إلى عدد الآيات التى تكلمت عن موسى وعيسى عليهما السلام تكفى لبيان أن القرآن الكريم قد أبدى اهتمامه بالتعريف باليهودية والمسيحية بصورة واضحة.

وهذا يؤكد أن القرآن الكريم - وإن كان قد نزل على نبى الإسلام إلا أنه فى الحقيقة **مجمع الأديان التى سبقته** والتى ورد علمها الحق عن السماء.

ولذا فإن من يريد أن يعلم حقيقة اليهودية والمسيحية أو غيرها يتلقاه بصورة أوفى من القرآن الكريم .. ويكفى فى سورة مريم أن تعلم حقيقة المسيح ابن مريم بلا خلط أو جدل مما لابسها من مرويات، ونفس الشيء عن قصة موسى مع بنى إسرائيل .... وهكذا.

وهكذا من الناحية الواقعية التطبيقية نجد أن القرآن الكريم لم يقصر رسالته **على تعاليم الإسلام ، وإنما تناول كل الأديان السماوية السابقة عليه وما كانت تدعو إليه والحقبة الزمنية التى اجتازتها وما بقى منها وما اندثر .. بصورة لا تقل فى أهميتها عما تعرض به لتعاليم الإسلام .. وهو الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى صحة القول بأن القرآن الكريم هو مجمع الأديان.**

٢ - القرآن دعوته الإيمان :

توجه آيات وسور القرآن الكريم دعوتها للايمان وتخاطب المؤمنين والمؤمنات . **والإيمان هنا هو الإيمان الكامل** الذى يمتد إلى حيث ***" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله*** *وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير "* [1] .

---

[1] سورة البقرة ، الآية ٢٨٥.

فالإيمان شامل جامع لكل ما نزل عن الحق من كتب سماوية على كل الرسل بلا تمييز بينهم وبلا تبعيض لأحكامه .. وإنما هو تسليم كامل وطاعة خالصة ملؤها السمع والبصر وصدقها العمل وهدفها الرضاء بقضاء الله.

ومن ثم فالإيمان فى القرآن الكريم هو درجة أكبر فى التجرد من الإسلام حيث الإيمان بكل الكتب والأديان السماوية والأحكام العلوية الصادرة عن الحق جل وعلا، أى هو إيمان القلب. بينما الإسلام قد يقف عند حدود الشكل إذا لم يتجاوزه المرء إلى إيمان القلب .. *" قالت الأعراب أمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم"* [1] .

وقد وجه القرآن الكريم خطابه إلى المؤمنين خاصة فى العديد من آياته وقد استهلها بما جاء بالآيات الخمس الأولى من سورة البقرة بقوله *" آلمّ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحوم"* [2] ثم توالت بعد ذلك الآيات فى محكم الكتاب .. وكلها تجمع على مناداتها للمؤمنين والمؤمنات الذين يمتد إيمانهم إلى الإيمان بكل الكتب السماوية وكل الأنبياء والرسل .

وحينما وجه القرآن الكريم **خطابه للناس كافة**، قال *"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم*

---

[1] سورا الحجرات : آية ١٤.

[2] سورة البقرة : الآية ١ - ٥.

عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير" [1] أى أنه ايضا عندما انتقل من الخاصة إلى العامة دعاهم لتقوى الله والإيمان به، حيث أن ذلك فقط هو مناط التكريم بغض النظر عن عرقهم وجنسيتهم.

والمحصلة أن القرآن الكريم كانت آياته دعوة للناس كافة .. لكل الأمم والشعوب على اختلاف ألسنتها وألوانها . بل ربما تجاوزت ذلك لأجناس أخرى لا قبل لنا بها .. وإنما ورد علمها فيما أخبرتنا به آياته وتأكدت دلالتها على الأخص فى الآونة الحاضرة، وذلك عندما جاء *" قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولم نشرك بربنا أحدا * وإنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا "* [2] .

وهكذا نصل إلى أن القرآن الكريم لم يقصر خطابه - كما جاء فيه عن الأديان الأخرى - على قوم صالح وقوم لوط وثمود وعاد وآل فرعون وبنى إسرائيل والنصارى والأسباط، وإنما كان خطابه للناس كافة ودعوته للمؤمنين خاصة الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وكل ما ورد فى القرآن الكريم عن الإسلام فهو فقط كدين، وعن المسلم فهو مجرد وصف، وعن محمد (صلى الله عليه وسلم) فهو كنبى ورسول مبعوث للعالمين .. أما عموم الخطاب فهو للناس كافة ، والدعوة فهى للإيمان بالله الواحد الأحد وملائكته وكتبه ورسله بلا تفضيل بينهم أو تمييز.

---

[1] سورة الحجرات : آية ١٣.

[2] سورة الجن، آية ١ - ٣.

٣ - القرآن ساحته الملكوت :

لا تقتصر ساحة القرآن على تلك التى بين صفحاته من آيات مقروءة ورد ذكرها، وإنما تمتد ساحته إلى السماوات والأرض وما بينهما .. من آيات مرئية.

والآيات المقروءة تشير إلى الآيات المرئية، والآيات المرئية تدلل على صدق الآيات المقروءة، ومن ثم فقراءة المكتوب من الآيات عبادة والنظر والتأمل فى المرئ منها أيضا عبادة .. إذ أن كلاهما يؤدى نفس النتيجة وهى إخلاص العبادة للخالق.

ومن تلك الآيات *" إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون "* [١] . *" وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون "* [٢].

٤ - القرآن دستور الزمان :

القرآن كمضمون ودستور وأحكام وعلم وبيان وجد واستقر ليحكم نواميس الخلق حتى قبل خلق الإنسان، وفى ذلك تقول الآية الكريمة *" الرحمن * علم القرآن * **خلق الإنسان** * علمه البيان "* [٣] .

---

[١] سورة البقرة آية ١٦٤.

[٢] سورة يس ، الآية ٤١ - ٤٣

[٣] سورة الرحمن ، الآية ١ - ٤.

ومن ثم فهو يتوغل فى القدم إلى ما قبل خلق الإنسان ، ويمتد به الزمان إلى ما شاء الله وكان .. فهو لم يكن لهداية قوم فى مرحلة من مراحل الزمان *" بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ "* [١] ، أى أنه مسجل فى اللوح المحفوظ كدستور **للخلق عموماً وعلى مدى مراحل الخليقة** وتطور الأزمان.

والقرآن بهذا الكيان كان مناط القسم الإلهى الذى طمئن به الخالق رسوله على صدق مهمته حينما قال جل وعلا *" يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين "* [٢] .. ذلك أن القرآن بهذا الكيان تناول كل الآيات الكونية التى مازال العلم الحديث عاجزاً عن إدراكها والتى لم يتم اكتشاف الكثير منها مع توالى الأزمان، كما تناول كل القوانين الحياتية التى تحكم البشر فى أمور دنياهم، والآيات الغيبية التى تنظم مكانتهم فى الحياة الآخرة بعد الممات ... تناول التعريف بأصل الخليقة ونظمها ومستقرها ومنتهاها.... تكلم وتكلم، وما تكلم عنه لا يدخل تحت حصر ودونه أى إدراك.

ومن ثم فهو كيان ذو قوة عند ذى العرش متين وإلا ما كان قد قيل *" ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض"* [٣] ، وأيضا *"لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله "* [٤] .

أما القرآن ككتاب منزل أى كنص مكتوب لمضمون علوى.. فقد

---

[١] سورة البروج ، الآية ٢١ – ٢٢.

[٢] سورة يس ، الآية ١ – ٣.

[٣] سورة الرعد ، آية ٣١.

[٤] الحشر ، آية ٢١.

نزل على نبى الإسلام (محمد عليه الصلاة والسلام) " *إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا* " [١] فى صورة " *كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون* " [٢] وذلك بلسان عربى قمة فى الإعجاز " *إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون* " [٣] مصدقا لما سبقه من كتب سماوية كالتوراه والإنجيل .. " *نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوارة والإنجيل * من قبل هدى للناس* " [٤] .. فيه آيات محكمات تناولت فرائض الإسلام .. " *هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ..* " [٥] ، وذلك لتقضى بين الناس بالحق .. " *إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بم أراك الله* " [٦] .

وهكذا نصل إلى أن القرآن الكريم كناموس للخلق ودستور للزمان فى علم الخالق منذ شاء الله لهذا الوجود أن يكون، وهو كنص مكتوب

---

[١] سورة الإنسان ، آية ٢٣ .

[٢] سورة فصلت ، آية ٣.

[٣] سورة الزخرف ، آية ٣.

والسبب فى اللغة العربية أنها اللغة التى كان أهلها وقتها يتيهون ولعا فى إظهار مفاتنها ويمسكون بمقاليدها من قواف وأوزان .. ويتبارون فى الإيقاع عليها تارة نثراً وأخرى شعراً مع استخدام كل أوتارها من كناية واستعارة وبلاغة .. الخ ، ناهيك أنها لغة أصلية وغيرها لغات مشتقة .. وما يدريك أن فى مكنونها – الذى لا يعلمه إلا خالقها – الذى يؤهلها يوما لتكون اللغة الأصلية للتخاطب بين الناس وقد بانت بوادرها بعد أن دخلت إلى عداد اللغات العالمية الخمس التى أقرتها الأمم المتحدة فى السنوات الأخيرة.

ومن ثم فنزول القرآن بالعربية فى تلك المرحلة التى كانت تتميز بإنتعاش العربية – ربما كان لبيان اعجازه الذى يفوق امكانيات البشر فيتم التسليم والإيمان به .. كما حدث للكثير منهم عندما آمن، عن يقين بأنه من عند الله لمجرد سماعه لبعض من سور وآيات القرآن الكريم.

[٤] سورة آل عمران ، آية ٣،٤.

[٥] سورة آل عمران ، آية ٧.

[٦] سورة النساء ، آية ١٠٥.

واجب الإتباع إنما تنزل ختاما للكتب السماوية التى تنزلت من قبل على موسى وعيسى ليكون بلاغاً للعالمين.

أى توافرت فيه **علوية التقنين الإلهى** الذى يحكم الوجود منذ كان عبر الأزمان، و**شكلية التقنين الوضعى** الذى يفرض أن يكون المضمون مكتوبا بنص حتى يكون حجة وبلاغا للناس ومن ثم يحكم ما بقى من الزمان.

ثانيا - الأثر المترتب على اعتبار القرآن الكريم هو التقنين الإلهى الخاتم

بينا أن القرآن الكريم توافرت فيه شكلية التقنين الوضعى من حيث أن مضمونه العلوى صدر مكتوبا فى صورة كتاب منزل ليكون حجة وبلاغاً للناس.

وكما أن التقنين الوضعى يفرض على المخاطبين بأحكامه ضرورة الالتزام به بما جاء فيه فقط من نصوص وأحكام، أيا كان مصدرها من قبل - تشريع سابق أو عرف أو سوابق قضائية أو آراء فقهية - إذ لا تعدو هذه المصادر إلا أن تكون مجرد مصادر مادية للنصوص الواردة بالتقنين.

وكما أن التقنين الوضعى يسرى على المخاطبين بأحكامه فور صدوره ليحكم ما يليه من وقائع ، وأن كافة المصادر التى استقى منها أحكامه (سواء كانت تشريعات سابقة أو عرف أو سوابق قضائية) تصير مجرد مصادر مادية يرجع إليها فى حالة التفسير أو الاستدلال على مضمون النص الوارد فى التقنين.

فكذلك الحال بالنسبة للسور والآيات الواردة بالقرآن إذ تسرى بمجرد نزولها على نبى الإسلام، وتصير لها قوة ملزمة بالنسبة للناس كافة حيث خطاب القرآن .

وأن ما عداه من كتب سماوية تصير مصادر مادية تشهد على صدق ما جاءت به لأقوامها - فى خلال مراحل التطور الإيمانى للبشرية - من دعوة لله الواحد، وتزكية للنفس وتذكير بالآخرة ، وذلك باعتبار أنها كتب تمثل حلقة من حلقات التنزيل الإلهى تتابعت حتى كان التقنين الإلهى الخاتم.

ومن ثم فالإيمان بها جزء مكمل للإيمان بالرسالة الخاتمة، والتذكير بها مفروض وواجب باعتبارها كتب سماوية حقه .... **كل ما هنالك أن الالتزام بالأحكام يكون فقط للتقنين الإلهى الخاتم** إتساقا مع المتبع فى التقنينات الوضعية .

وما يؤكد ذلك أن القرآن نفسه قد وردت به آيات تناول حكمها فترة من فترات نزوله فجاءت بما يناسبها .. ليصير فى المقدور إتباع الحكم .. "*يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما* " [١] إلى أن كانت فترة النضج فنزلت الآية " *يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون* " [٢] .

وهكذا نرى أن هذه الآيات قد نزلت على نبى الإسلام وقد ضمها كتاب منزل واحد وهو القرآن، وجميعها واجب الإيمان به من حيث

---

[١] سورة البقرة ، آية ٢١٩.

[٢] سورة المائدة ، آية ٩٠.

التنزيل، وتلاوته للتعبد به والتذكير .. وهكذا، كل ما هنالك أن حكم الآية الأخيرة هو الواجب الإتباع من حيث الإلزام.

والمحصلة النهائية من الناحية العملية أننا لا نفاضل بين كتب سماوية ليكون اختيارنا لإتباع أحد الأديان .. ذلك أن المفاضلة تفترض أن تكون هذه الكتب قد نزلت فى وقت واحد لتضع أحكاما لذات الأقوام .. ومن ثم يكون هناك مبرر للاختيار إذا ما تعارضت أحكام هذه الكتب.

أما وقد توالى نزول هذه الكتب .. وكان ذلك على أقوام مختلفة ، وكان هناك اتساق بين أصولها العامة .. فالأولى بالإتباع – اتساقا مع المنطق القانونى المتداول – هو الكتاب الأخير، خاصة إذا توافرت فيه شروط التقنين الإلهى الخاتم من حيث أنه كان مجمع الأديان ودعوته الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأحكامه تصلح دستورا للزمان .... الخ.

وقد حسم القرآن، أو إن صح القول التقنين الإلهى الخاتم هذه القضية بقوله " *إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت، وجهى لله ومن اتبعن، وقل الذين أوتوا الكتاب والأُميين أأسلمتم فإن اسلموا فقد اهتدوا وأن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد* " [1] .

---

[1] سورة آل عمران ، الآية ١٩، ٢٠.

الدعامـة الثانيـة
صلاحية شريعة الإسلام لتكون منهجا للتربية
(الروحية والبدنية والسلوكية)

يترتب - بداهة - على اختيار الدين الأمثل الذى يجب أن يحكم مستقبل البشرية، أن تكون تعاليمه وشعائره صالحة لأن تبنى الإنسان القادر على تحقيق هذا الدور المعقود عليه، فى بناء حضارة الإنسان على الأرض واداء الرسالة المطلوبة منه تجاه خالقه فى السماء .

ولما كان العلم قد قادنا إلى إختيار الإسلام كدين امثل يصلح لأن يغطى ساحة الخلق، لذا كان من الضرورى البحث عما ان كانت تعاليمه وشريعته تصلح لقيادة الإنسان المسلم لأمور الدنيا والدين على مستوى المجتمع البشرى ، **أو بمعنى أصح ما إذا كانت شريعته وتعاليمه تصلح لأن تكون منهجا للتربية الروحية والبدنية والسلوكية للإنسان المسلم؟**

والواقع أن الرد على هذا التساؤل يمكن الوصول إليه بكل بساطة ويسر بمجرد الرجوع إلى أحكام الكتاب الذى تنزل برسالة الإسلام (وهو القرآن الكريم)، إذ نجد أن هذه الأحكام هدفها بناء الإنسان المسلم عن فهم ووعى بحقيقة الإنسان وغرائزه وقدراته وملكاته .... وذلك حتى يكون قادرا على التعامل مع خالقه ونفسه والآخرين .... **وبحيث تختلف هذه البنية الأساسية للإنسان المسلم عن غيره ممن يدينون بالأديان الأخرى، فيكتسب صفات خاصة به تميزه على الآخرين.**

ومعلوم أن اختلاف البنية واكتساب الصفات لا يتأتى من مجرد كلمات تقرأ أو دروس تلقن أو اسطوانات تسمع أو شعارات تردد، وإنما هو - فوق ذلك - من تدريبات .. وتدريبات تتبع بانتظام واضطراد حتى تتغير التركيبة الإنسانية ذاتها بما يتلاءم والهدف من هذه التدريبات. وبحيث يصير التدريب الذى بدأ شاقا مجهدا، جد يسير بعد ذلك ولا يتطلب حتى مجرد التفكير فيه، وإنما بات يؤدى بحكم العادة والمألوف.

وهكذا تريدها أحكام الإسلام للإنسان المسلم، متى اكتملت عقيدته عن فهم واختيار، تربية إسلامية فى إطار من نهج مرسوم، تعرف بها شخصية المسلم وتتحدد بها ذاته وبذا يصير الإنسان المسلم قادرا على تحقيق رسالته فى بناء المجتمع البشرى المتكامل.

ويتضح ذلك بها من مجرد عرض لبعض هذه الأحكام.

أولا - أحكام تتعلق بالعبادات :

وهى أحكام تنظم علاقة الفرد بخالقه وفيها نجد الإنسان :

١ - **يستهل يومه** يلبى نداء السماء (الله اكبر ..الله اكبر)، فيكون صباحه تسليما بجلال الخالق الذى هو أكبر من كل شىء، بدءا من حلاوة استغراقه فى النوم وانتهاء بكل ما يشغله من أمور الدنيا ولو عظمت.

يستهل يومه بوحدانية الخالق " اشهد أن لا إله إلا الله " فيكون اتجاهه صوب العزيز الأعظم، فلا يضل الطريق عند ترهات العرض الزائل من مال أو سلطان.

يستهل يومه بالتعرف على سبيله ومنهاجه حين يلتقى بأسماعه " اشهد أن محمدا رسول الله " فيكن عند أعتاب رسالة السماء .. بكل ما فيها من جلال وعظمة.

والمهم أن يتبع ذلك بعمل من جانبه هو أقرب للتدريب البدنى والروحى، فينهض لصلاته في وقتها نظيف البنية خاشع الفؤاد .. ليدخل إلى حيث محراب ربه الذى وسع كل شىء، قائما وساجدا وراكعا ومسلما .... والأهم خاشعا وضارعا ومبتهلا وشاكرا بكلمات هن أم الكتاب وآيات من الذكر الحكيم .... **هن على الأسماع ترانيم، وفى السماء تسابيح، وبين الأرض والسماء صلاة.**

ولا ينقطع هذا التدريب الروحى والجسدى عن الإنسان – الصلاة – طيلة يومه .. بل طيلة حياته. وإنما هو فى مواصلة دائمة لهذه التدريبات خمس مرات فى يومه، وعلى مدى عمره .. ولو ألم به المرض أو العجز .... حتى لا يغفل قلبه عن ذكر الله.. ولا تقترب جوارحه من المعاصى. فهو دائما فى محراب الله، وقد تطبع هذه التدريبات أثرها على جسم الإنسان **للحد الذى قد ترى سيماهم على وجوههم من أثر السجود** .

٢ – **يطالع فى عامه شهرا** يكون فيه فى صومعة مع خالقه، يصوم هذا الشهر إيمانا واحتسابا لوجه الله، فيرتفع على ملذات الجسد وشهواته، لينعم برضوان أكثر من كل هذه الملذات، وهو نعيم القرب من الخالق عابدا متعبدا، طاهرا مطهرا .... خلع عن نفسه الكثير من ماديته ليستبدلها بشفافيته الروحية التى تعرج إلى حيث ملكوتها العلوى.

ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تدريب قاس (وهو الصوم) يروض فيه الجسد على كبت شهواته وغرائزه، ويقوى طاقاته الروحية بكلمات من ربه لو نزلت على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله .

ومتى تعود الإنسان الصوم عاما بعد عام تغيرت بنيته الجسدية، بحيث أصبح الصوم علاجا لكثير من أمراضه، كما تتنامى طاقاته الروحية بحيث اصبح يجد فى الصوم ملاذه، وبالتالى نجد الكثير من الناس يصومون حتى فى غير شهر الصيام.

٣ - **يلبى نداء ربه حين يسعى لحج البيت الحرام،** إن قدر له ذلك فى سنوات عمره. **وفى الحج تدريب عملى على الوقوف بين يدى الله** مجردا من كل زينة الدنيا وزخرفها، فى أماكن وأوقات اختصها الله بالتقديس، ليتدرب الإنسان على الملاقاة فى الحياة الدنيا، فتكون هذه الملاقاة له نورا وشفيعا وهاديا يوم اللقاء العظيم فلا يحزنه الفزع الأكبر.

٤ - **يقتطع من ماله قدرا معلوما للسائل والمحروم ليتربى على أنه فقط مستخلف فى ماله** .. فلا يغتر بهذا المال مهما كثر. لأنه عند كل زكاة تؤدى عنه، يتذكر أنه مال الله، وهو فقط مستخلف فيه .. فيكون دائما شاكراً لله أنعمه باسطا للناس اذرعه.

وهكذا نجد أن كل دعائم الإسلام من الفرائض تؤدى من خلال تدريبات بدنية وروحية تعمل إلى زيادة القرب من الخالق، وتقوى الصلة بين الفرد وربه : فالصلاة دخول فى محراب الله، والصوم لقاء فى الصومعة الإلهية .. والحج نداء لبيت الله .. والزكاة استخلاف فى مال

الله .... فيتربى المسلم وهو مع الله وبالله .. فى كل لحظات عمره .. فيستمد من خالقه القوة ليتغلب بها على ضعفه، والعزة ليتغلب على هوانه .... وهكذا.

وحتى تتأصل فى المسلم هذه الفرائض فتكون جزءا من بنيته، فقد فرضها الخالق على الإنسان بصفة دورية منتظمة وأعطاها صفة العمومية لتأخذ فى النهاية حكم العرف الاجتماعى الملزم .... ومن ثم تختفى المشقة التى يعانيها المسلم وهو يؤديها لأول مرة، لتصير من كثرة إتباعها فى جماعة سهلة ميسورة، يؤديها بلا أدنى تفكير أو عناء.

وربما هذا هو السبب الذى من أجله :

كانت الصلاة كتابا موقوتا يتكرر فى اليوم الواحد خمس مرات .. لتأخذ الصلاة من كثرة تكرارها على مدى سنوات العمر حكم **العادة المنتظمة** .... وتفضيل أداء الصلاة فى جماعة وفى المساجد حتى تكون لها صفة **العمومية فى التطبيق** .... ومعلوم أن العادة متى كانت متكررة ومنتظمة واتخذت صفة العمومية فى التطبيق، فإن الفرد يشعر بإلزامها له **كعرف اجتماعى واجب التطبيق** دون أدنى عناء.

وما يقال عن الصلاة يقال عن الصوم، ذلك أن الصوم ليس مجرد قيام المسلم بأدائه فترة من عمره وإنما هو **شهر فى كل عام** حتى يكون هناك تكرار، وما هو أكثر شهر محدد حتى يجتمع كل المسلمين على الصيام فى وقت واحد، **فيتكون العرف الاجتماعى**.. الذى يجعل الإنسان المسلم يؤدى الصوم كما يجب ودون عناء.

ونفس الشىء بالنسبة للزكاة، حيث تتكرر كل عام وبقدر معلوم

وبالنسبة للجميع ، فيؤديها المسلم بمجرد حسابات بسيطة، باعتبارها تكلفه سنوية على دخله دون أن يشعر بعبئها، **حيث أنها صارت قاعدة سلوكية أخذت حكم العرف الاجتماعى الملزم.**

وأيضا الحج نداء لمن أذن له الله به .. **كل عام وفى وقت معلوم** وفى أماكن محددة .... **ليتكون العرف الاجتماعى الملزم** لكل قادر على أداء فريضة الحج فلا يشعر بمدى عبئه وعنائه.

ثانيا – أحكام تتعلق بالمعاملات :

وهى الأحكام التى تنظم علاقة الفرد بغيره، وتتخلص هذه الأحكام فى تحريم السرقة والقتل والنصب وخيانة الأمانة وانتهاك الأعراض والزنا وتعاطى المسكرات والكذب .... الخ .

ويتأتى تجنب هذه المحرمات من خلال تربية المسلم وتدريبه على الابتعاد عنها ، ومن ذلك مثلا .. عدم الكذب وقول الحق ، أيا كانت الظروف والاعتبارات " لا تأخذهم فى الحق لومة لائم " .... ولا جدال أن الإنسان سيجاهد نفسه أول مرة يطلب منه قول الصدق، ولكن لو اجتاز هذا الموقف لمرات وألف قول الصدق، صار صادقا وتعذر عليه بعد ذلك قول الزور.

وهكذا فالمسلم قد تربى من خلال أحكام الإسلام – وقياسا على الصدق – على الأمانة والوفاء بالعهد وصون العرض وعدم الجور على حقوق الآخرين، وعدم الاعتداء على أرواحهم وأموالهم .. بل هو يتحلى بصلته الرحم واحترام الجوار .... **بحيث صارت كل هذه التعاليم والأحكام جزءا من تكوينه وبنيانه،** وبالتالى تنظم تعاملاته مع الآخرين على نحو يكاد يكون معروفا سلفا.

وهكذا نجد أن شعائر الإسلام وتعاليمه قد تأصلت فى الإنسان المسلم وحددت معالم شخصيته وخصائصها. بحيث أصبح معروفا بها ومتميزا على غيره فهو الصادق الأمين الوفى الذى يرعى العهد ويصون العرض .... الخ.

وهنا قد يقال ولماذا فقط الإسلام، وكل الأديان الأخرى لها شعائر حتى عبدة النار ؟

والرد أن شعائر الإسلام ليست من قبيل الشعارات التى تردد أو الطقوس التى تقرع، وإنما هى شعور يملأ كل وجدان المسلم بحيث يؤثر فى تكوينه الروحى والجسدى والسلوكى:

فقلبه وكل طاقاته الروحية مع الخالق بمفهوم الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .. الذى له الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير .

وجسده مقهور على الطاعة وحسن الأداء فى العمل والسعى لعمار الدنيا .. ولا تحسبن ذلك يسيرا، فقد صارت اليابان مثلا للتقدم .... فقط حين تمسك أهلها بالإخلاص فى العمل.

وسلوكه الصدق والوفاء والأمانة والإخلاص، كل ذلك فى إطار من المساواة والاحترام بين كل البشر، بغض النظر عن جنسهم أو عقيدتهم أو عصبيتهم.

وطالما صارت هذه الشعائر والتعاليم شعورا يتملك وجدان الإنسان المسلم ويستحوذ على فكره وتصرفه، فإنه يطبقها ويعملها كأدوات ثابتة للتعامل يعرف بها المسلم، بغض النظر عن موقعه فى الحياة، فى إطار من عرف اجتماعى مستقر وملزم.

ولك أن تتصور الحاكم المسلم .. هو الحاكم الذى يؤمن بخالقه بالمفهوم الذى صوره الإسلام ، وهو الذى يعمل ليل نهار فى سبيل عمار الدنيا، فيرعى رعيته ويخدم قومه. وذلك بصدق وأمانة وإخلاص وعدل ومساواة .... الخ .

وأيضا الطبيب المسلم والمحامى المسلم، والضابط والشرطى والعامل، والمرأة المسلمة فى بيتها .... الخ . كل منهم وقد اعمل هذه التعاليم والشعائر – بالكيفية التى تربى عليها – فى إطار ما يشغله من موقع .... وهكذا.. **بالتأكيد سنلتقى بالمجتمع المثالى الذى يجب أن يسود مستقبل البشرية.**

ويكفى تدليلا عمليا على ذلك أن أغلب الفتوحات الإسلامية كانت نتيجة تعامل أهل هذه البلاد مع التجار الذين يلتزمون بتعاليم الإسلام .. فكانت هذه التعاليم أمضى سلاحا فى اجتذاب أهل هذه البلاد إلى الإسلام من السيف.

قال محدثى : معك بيقين أن تعاليم وشعائر الدين الإسلامى نهج يتبع وتربية يتحلى بها الإنسان المسلم القابض على دينه (وهكذا كان والدى ووالدتى ومن كان على شاكلتهم من السابقين واللاحقين الذين كان نصيبهم من العلم محدودا .. فلم يتيسر لهم قراءة العديد من الكتب الخاصة بالتفاسير، والدعوة والفكر، ولم يعرفوا الكثير عن المذاهب، ولا غيرها من الطرق الصوفية .... الخ .... ومع ذلك كان سلوكهم سلوك المسلم الحق ، وكان خلقهم القرآن.. إيمان مطلق بالله، وتسليم بقدره وأداء كامل لكل عباداته، وإخلاص ما بعده إخلاص فى العمل، ووفاء وصدق فى تعاملهم).

ولكن خرج على، من قومى هناك، من قال : " عملت لسنوات فى إحدى الدول الأسيوية التى يدين معظمها بالإسلام، ودخلت معهم فى حوار يهدينى لحقيقة الإسلام .... وانتهيت إلى أن هناك العديد من المذاهب الاجتهادية فى الإسلام .. كالشافعية والحنفية .. وتبينت العديد من المراجع التى تتكلم عن التفسير القرآنى .. والأحاديث النبوية .. وأيضا العديد من الكتب التى تتناول السيرة والتاريخ الإسلامى .... كما وجدت هناك العديد من الطرق الصوفية.

وقد هالنى هذا الثراء من الفكر الإسلامى والإعجاز البيانى، ولكن هذا الفكر أعجزنى عن تفهم حقيقة الإسلام حتى ارجع لقومى بكلمات محددة، وأسلوب منضبط ، حيث اختلط الفكر بالعمل والاجتهاد بالتطبيق.

وطلب منى أن أدله على حقيقة دينى .. فى إطار هذا الخضم الزاخر من الكتب الفقهية، والمراجع الدينية، والتفاسير والحديث .... الخ.

فهل هناك من إجابة مقنعة على تساؤلهم ، خاصة وأن الكثير من عامة المسلمين فى وقتنا الحاضر، يعتقدون أن دينهم لا يكتمل إلا بالرجوع لمعظم هذه المراجع الإسلامية، وأنه بقدر ما تعمقوا فى فهمها يكونوا قد وصلوا إلى قمة الإيمان بالدين ؟

قلت : الأمر جد يسير إذا ما سمحت لنا بمجالسة ضيفى القادم لتوه – وهو أستاذ بكلية عملية – للحظات نستريح فيها، خاصة وقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

وما أن سألت ضيفى القادم عن مدى علمه بالقانون، إلا وكان رده احترامى لحقوق الآخرين .. ودفعى للضرائب .. والالتزام بحدود وظيفتى

.. واجتناب السرقة والنصب والقتل .. وأداء الإيجار المستحق عن الشقة سكنى، ودفع أقساط التأمين المستحق على، والالتزام بقواعد المرور..الخ.

كما كان رده على سؤالى عن عدد المرات التى لجأ فيها إلى التقاضى، أن قال " لم اطرق باب المحكمة ولو مرة واحدة، ذلك أنه عندما تعرض لى مشكلة أو أقدم على تحرير عقد فإنى الجأ إلى محام متخصص ".

كل ما هنالك أن ضيفى ضحك كثيرا عندما سألته عن مدة تقادم دعوى الإفلاس .. وما إذا كان حسن النية شرطا ضروريا للتقادم القصير المكسب .. وما إذا كان القتل الخطأ يتطلب قصدا جنائيا .. **وكانت إجابته عملية إذ طلب منى الإطلاع على موضوع طلبه .. حيث أشرت عليه بالموافقة وانصرف متعجبا لسؤالى.**

عاودنا المسيرة – بعد هذه الوقفة الخاطفة – وقلت لمحدثى .. وهكذا التزم صاحبنا – على نحو ما ذكر – صحيح القانون. فالقانون عنده سبيل ووسيلة للتعامل مع الآخرين، وقد عرف منه ما يكفيه لهذا التعامل، وما تعذر عليه فإنه يستشير فيه محاميه .. والمحصلة أنه مواطن صالح ملتزم بأحكام القانون لم يدخل المحكمة ولو مرة واحدة.

ولكن هل معنى ذلك أن القانون قد وقف فقط عند حد أنه أسلوب للتعامل ينهل منه كل منا بقدر حاجته للتعامل، أم أنه هو فوق ذلك علم يفوق العديد من العلوم الأخرى ؟

والحقيقة أن القانون علم يفوق العديد من العلوم الأخرى والدليل

على ذلك أنه له كلية جامعية متخصصة، وما هو أكثر دراسات عليا متخصصة فى الفروع المختلفة من القانون تؤهل دارسيها لنيل الدرجات العلمية العالية كالماجستير والدكتوراه. وهناك من يعمل به فى ميدان المحاماة، ومن يشغل به منصب القضاء، ومن يعتلى به مهنة التدريس بالجامعة. فهو ميدان فسيح للاجتهاد بالرأى ومقارعة الحجة بالحجة .. لدرجة أن المؤلفات القانونية من كبر حجمها ينوء عن حملها العصبة من أولى القوة.

وهكذا الدين يا صديقى، فهو بالإضافة إلى أنه أسلوب ومنهاج للتعامل (بين الفرد وربه، وبين الفرد ونفسه، وبين الفرد والآخرين) فهو أيضا يتضمن العديد من العلوم التى تخصص فيها كليات جامعية متعددة بحسب ما إذا كان المراد هو شغل خريجيها لمناصب القضاء أو الدعوة والفكر. والعلوم الدينية الشرعية متعددة، فهناك أصول الفقه، وأحكام التركات والمواريث، والأحوال الشخصية، وعلم الحديث .... الخ، وكلها دراسات متخصصة.. والمؤلفات الشرعية بدورها مؤلفات فقهية بالدرجة الأولى، إذ تقوم على الاجتهاد وإعمال الفكر طالما أن الدين أساسا يقوم على المنطق وإعمال العقل.

ونظرة إلى المؤلفات الشرعية قديمها وحديثها لترى مدى الثراء الفكرى الذى تحفل به هذه المؤلفات.

والمحصلة فى كلمات أن الدين كالقانون، كما أنه أسلوب ومنهاج للتعامل ، فهو أيضا مجموعة من العلوم والدراسات المتخصصة:

وكل من اتبع الأسلوب والمنهاج فى طاعة وإيمان مطلق - أى من كان خلقه القرآن - فهو مسلم.

وكل من درس علومه فهو فقيه فى فرع ما تخصص فيه.

والعالم الإسلامى – هو الذى يجمع – بين الحسنين فيكون متفقها فى أمور دينه دارسا لعلومه وفى نفس الوقت متبعا لأسلوب الدين ومنهاجه .. ومن هؤلاء فى الأمة الإسلامية كثيرون ممن حملوا راية الإسلام علما ومنهاجا وهم فقط الذين تنعقد عليهم أمور الفتوى .

ولكل من هؤلاء جميعا دوره المطلوب والمعقود عليه فى الدين، وعليه أن يشغل نفسه فقط بحدود هذا الدور وما يتطلبه من تأهيل خاص، حتى لا تختلط فى النهاية أمور الدين :

فيفتى فيه من هم من غير أهل الفتوى، ويتفقه فى علومه من هم من غير أهل الفقه ، ويقف المسلم العادى حائرا وقد ظن أن هذه العلوم والدراسات مكملة لإسلامه .. فيعجزه ادراكه عن تفهمها وقد يضل عن مدلولها وهنا تقع الكارثة.

وهكذا يا صديقى – عليك القول لأهلك وعشيرتك هناك – **أن دين الإسلام نبع .. لمن يغترف منه :**

فمن إرادها شربة تكفيه السير على الطريق، فله فيها ارتواء.

ومن أرادها فيض علم، فله فيه مدد ومداد يرقى به حد الفقهاء.

ومن أرادها سقيا للداربين ، فله فيها صفاء ونماء يرقى به حد العلماء.

فصل الخطـاب

قال محدثى : بعد كل ما تناولناه فى موضوع الأديان –ورغم تحليلك العلمى لها واستنباطك للدين المثالى من خلال منظور علمى، ورغم أن هذا الدين المختار قادر على أن يغطى ساحة الخلق قولا وفعلا– **إلا أن قومى هناك من باب الجدل سيطرحون العديد من الأسئلة، فهل لى أن اطرح بعضها ؟**

قلت : معذرة فقد طال مقامنا عند هذه القضية، ومازال السفر أمامنا طويلا، وعموما فليس عندى من إجابة لأسئلة قومك ولو تعددت إلا واحدة فقط فيها **فصل الخطاب :**

وهى أن ما قمت به حول بحث موضوع الأديان لا يعدو أن يكون محاولة خاصة وتجربة فردية، كان رائدى فيها التجرد المطلق عن معتقداتى الشخصية وقتها. ومن ثم كانت قراءاتى فقط لبلوغ الحقيقة حتى أعملها، ولو خرجت على ما وجدت عليه آبائى الأوليين.

وكم تمنيت وقتها أن تكون المحاولة عامة، بحيث يجريها كل إنسان منا بغض النظر عما يعتنقه من دين .. **لأن يقينى أن :**

خير العقيدة عند الله هى ما كانت صادرة عن إدراك وفهم، أى مبنية على المنطق الحر والعلم المجرد .

وخير الطرق هو فقط الطريق المستقيم إلى الله.... فلا يأخذك فى الحق لومة لائم.

وخير الأيام .. هو يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون .. إلا من أتى الله بقلب سليم.

وخير الإيمان : هو ما كان بالله الواحد الأحد ، الذى لا يفرق بين عباده ، حيث " *كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه* " [1] .

ومن ثم كانت محاولتى الخاصة، فقط بالقدر اللازم لتكوين عقيدتى الشخصية دون إطلاق أحكام عامة أساسها الدراسات المتخصصة.

وقد أغنانا البحث فى الدين الاسلامى عن البحث فى الأديان الأخرى، ذلك أنه توافرت فيه :

شروط الدين الأمثل كما تصورناه بالمنطق العلمى المجرد سواء من حيث جلال الإله أو بشرية الرسول أو قدسية الرسالة نصا ومضموما .... الخ.

وأن هذا الدين يكفى كتابه المقدس (القرآن) ليحكم مستقبل البشرية باعتباره الكتاب السماوى الخاتم الذى قنن أحكام السماء.

وأن شريعته تكفى لتربية الإنسان المسلم الذى تنعقد عليه بناء الحضارة البشرية فى إطار من القيم الأخلاقية والاجتماعية.

---

[1] سورة البقرة : آية ٢١٣.

كما أنه قام ببيان حقيقة كافة الأديان والشرائع السماوية السابقة والمعاصرة، وما مر بها سواء فى فترة نزولها من حيث انكار واستهجان بعض من أقوامها وما حاق بهم من عذاب، أو **بعد نزولها** وما طرأ عليها من تحريف وتعديل اخرجها عن مضمونها الحقيقى .. بدعوة إلى تصحيح مسارها.

وهذا من منطلق أن هذه الأديان جميعها كانت خطوات ومراحل فرضتها حتمية التطور بمدارك الفكر الإنسانى.

وعندما وصل الفكر الإنسانى لمرحلة النضج وتقبله لواقع النظر إلى الكون من خارجه، إلى مرحلة فى المسيرة نحو الأبدية فى ملكوت أعظم وأعظم لا يدرك مداه إلا خالقه الذى تنعقد له وحده الألوهية الحقة كإله للأولين والآخرين لكل الأنبياء والمرسلين .. إله واحد سبحانه رب العالمين.

كانت الرسالة الخاتمة التى ألمت بجوامع الكلم الإلهى الذى تنزل تترا على الأنبياء والرسل . وكانت الدعوة إلى الإيمان بكل هذه الأديان السماوية وكتبها ورسلها، استكمالا للايمان بعقيدة الإسلام [١] ... فى إطار تقنين إلهى شامل، نطق به فى إعجاز علمى وبلاغى دونه كل إدراكات البشر.... فكان الذكر الحكيم الذى قال عنه رب القدرة ،"*إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون*" [٢] .

---

[١] وفى ذلك يقول الحق " آمن الرسول بما انزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن با لله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير " سورة البقرة ، آية ٢٨٥

[٢] سورة الحجر : آية ٩.

وهنا طويت الصحف وجفت الأقلام وعنت الوجوه للحى القيوم فلا تسمع اليوم إلا همسا ....

نعم همسا .... ولكن يكفى أن يقرع طبول الخطر عن مقولة تتردد وتتردد على لسان بعض من الأولين والآخرين حين تأتيهم البينة " *وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه أباءنا الأولين* " وقد سارعت الشريعة الخاتمة باستنكار هذه المقولة ودحضها بما ورد عن الحق " ***أو لو كان أباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون*** " [1] .

وثقتى يوم يتحرر الفكر من تلك المقولة المأثورة، لخرجنا من منطقة الصراع بين الأديان، إلى بوتقة التآلف والتآخى بين جموع البشر على دين يسوى بينهم جميعا فى الفضل ، ويخصهم جميعا بالخطاب بلا تفرقة بين الرسل والأنبياء والكتب السماوية، وإنما فى إطار تقنين شامل وكامل لكل أحكام العبادة والشريعة، ليجمع الناس فقط على طريق الحق .... طريق النور .... طريق الهداية .... طريق الله.

ووقتها يرتفع الصراع الزائف بين البشر على الأديان فى مرحلة الوجود، ليلتقى بمرحلة الصراع الحق بين البشر كل البشر وغواية الشيطان، فى توجه إلى مرحلة الأبدية يوم يكون اللقاء.

أليس هذا هو المنطق الحق .... منطق الإله الواحد الذى يدعو

---

[1] سورة البقرة : آية ١٧٠.

إلى الخير، منطق الإله الذى يجمع بين كل عباده على كلمة سواء. منطق الإله الذى يحق أن ندين له بالعبادة.

وفى النهاية - يا صديقى - كانت تلك محاولتى عن تخير أحد الأديان .... فهل اجدها عند الآخرين ؟؟

وأيا كان ما لها وما عليها فهى تكفى لليقين بأن هناك إلها واحدا له الملك فى الحياة الدنيا والحياة الآخرة .. وذلك ناطق فى آيات هن أم الكتاب "*بسم الله الرحمن الرحيم* * *الحمد لله رب العالمين* * *الرحمن الرحيم* * *مالك يوم الدين*" [٢] .

فهل مازالت رحلتنا صوب الأبدية غير آمنة ؟

كلا ..

---

[٢] سورة الفاتحة ، الآية ١ - ٤.

القضيــة الخــامســة

الغــيبيـــات

الجلسة الافتتاحيـة

الجلســة الأولـــى : الجســم

الجلســة الثانيــة : الـــروح

الجلســة الثالثــة : النفـــس

الجلسة الافتتاحية

طالعنى محدثى بقوله .. إنى أعلم تماما **استحالة النقاش حول الغيبيات بمنطق العلم المجرد** ذلك أن العلم يقوم على التجربة والتحليل، والغيبيات تقوم على الإيمان والتسليم .... ومن ثم فالوسيلة مختلفة وبالتالى فالنتيجة لا يمكن أن تكون محققة، وإنما هى على أكثر تقدير يمكن أن تكون مقبولة، سواء بالمنطق العلمى أو المنطق الإيمانى.

وهكذا فإن ما أصبو إليه من النقاش حول الغيبيات ، هو مجرد قبولها من حيث المنطق العلمى حتى ولو على وجه التقريب من واقع ما يقره الواقع الفعلى ، أو بمعنى أصح عن طريق قياسها على ما هو مشاهد وملموس من أمور فى واقع حياتنا العملية.

لأن التصديق بالغيبيات كما هى دون هذه المحاولة يتطلب بداءة التمسك بالعقيدة الإيمانية فى استسلام ويقين ، وهو أمر مازال بعيدا عن بؤرة التفكير بالنسبة لهؤلاء القوم الذين يدينون فقط بمنطق العلم وإعمال العقل فى كل أمور دينهم - إن كان- ودنياهم.

وإذا ما تجاوزنا هذه البديهية إلى حيث النظر لفكرهم عن الغيبيات، وجدناه ينحصر فى هذا الإطار الضيق الذى فرضه عليهم منطقهم العلمى فى فهم الأمور .. وهو أن مالا يمكن إدراكه بالعلم ووسائله لا يمكن قبوله بالعقل. وطالما أن الغيبيات ليس لها واقع ملموس يخضع للمشاهدة والتجربة .. وإنما هى مجرد معنويات أو أمور رمزية فهى بعيدة عن فكرهم وليست بشاغلهم. بل ما هو أكثر ينعون عليها

تشتت الفكر وضياع الوقت فى أمور لا تثمر ولا تفيد فى بناء حضارة الإنسان التى تجاوزت كل مدى فى عصر العلم الذى يعيشونه.

فهم يقولون : ما جدوى البحث فى الروح والنفس .. ومن بعدها الموت وحياة البرزخ والبعث والحساب .. الخ . إذا كانت لا تصل بنا إلى القمر مثلا، لا تصل إلى هذه النهضة العلمية التى تجاوزنا بها حاجزا الزمان والمكان وبلغنا بها أعماق الأرض وآفاق السماء.

ألم تسمع فى كل يوم عن الجديد فى الاكتشافات العلمية التى تفوق بها الإنسان على نفسه ؟

ألم يصنع الإنسان إنسانا آليا يفوق طاقة الإنسان البشرى بكثير .. ألا يستحق هذا وقفة نركز فيها فى إجلال واحترام لملكات الإنسان وقدرته على تجاوز حدود ذاته ، بصنع ما هو أكثر منه قوة وضربا فى الأرض:

نعم إنه الإنسان الآلى (الروبوت) الذى دخل المصانع فكان أكثر اتقانا وجلدا فى العمل .. إنه الإنسان الآلى الذى دخل إلى المنازل ليحقق الصعب من الخدمات والمهام بلا انقطاع أو ملل، إنه الإنسان الآلى الذى تجاوز أعماق الأرض فى المناجم بحثا عن كنوزها فى درجات حرارة دونها إمكانيات البشر.

ثم ما يدريك عن غد يكون فيه هذا الإنسان الآلى هو عصب الحياة على هذا الكوكب لفرط تنوعه وكثرة عدده وزيادة مهامه وقدراته للحد الذى تنعقد له الصدارة فى بناء الحضارة المقبلة.

فهل لى بعد هذا التقديم بكل تحفظاته أن أجد عندكم تفسيرا علميا لبعض هذه الأمور الغيبية تكون سلاحى فى محاجاة هؤلاء القوم بالبينة ومنطق العلم عسى أن يصلهم اليقين بهاء فتنقشع عنهم غشاوة الاستعلاء فى الأرض والركون للإله الخالق بحق وذلك عن إدراك وفهم ؟

قلت : عسير عسير .. ولكن هذا لا يمنع من المحاولة .. كل ما هنالك أن يغفر لى أهل الدين النظر لهذه الغيبيات من وجهة نظر علمية محضة رغم يقينى بأن التسليم بها فى إيمان مطلق هو جوهر العقيدة، ويغفر لى أهل العلم أن ما أبحثه هو من الغيبيات التى لا يقوم الدليل عليها بالتجربة والتحليل، وإنما أقصى ما يمكن أن نصل إليه هو مجرد القياس على أمور نعلمها .. والقياس فى ذاته أسلوب علمى، إذ هو إعطاء حكم لحالة لم يرد بخصوصها نص على حالة ورد بخصوصها نص إذا ما اتحدت العلة بينهما ... واسمح لى أن اتخذ من الإنسان الآلى الذى انتهى علمهم إليه والذى زاغ بصرهم به فى تيه وخيلاء .. مجالا للقياس بالنسبة لبعض الأمور الغيبية كالجسد والروح والنفس .....الخ. ولكن عليك - بداءة - أن تطلعنى على بعض ما وصلوا إليه فى هذا المجال ويكفى التركيز على العموميات .

قاطعنى محدثى : وما دخل الإنسان الآلى بما نحن فيه !! ولكن إن كنت تعنى حقا القياس عليه فَنِعِمَّا ما تحاوله .. إذ تكون قد نازلتهم فى عقر دارهم وبذات السلاح الذى يتدرعون به، وأظنك بإذن الله على المحاولة لقادر. ولكن هاتها فإنى أتوق إليها بقدر ما أعجب لها .. إذ ما دخل الصلد من الأشياء بالأرق والشفاف من الغيبيات !!

عموما إليك اليسير والموجز فى عجالة عن الإنسان الآلى أو ما يطلقون عليه الروبوت .... فهو أحدث تطور لآخر مخترعاتهم عن الكمبيوتر .. إذ هو جهاز يتحرك لما أعد له، يتحرك بالطاقة الكهربائية أو غيرها، ويحكم حركته فى إتقان كامل كمبيوتر مبرمج على أداء نوع الصناعة أو الخدمة التى ينهض بها بحسابات قمة فى الدقة والإتقان.

ومنه حتى الآن قليل والمنتظر فى القريب أن تنعقد عليه حضارة الإنسان لفرط تنوعه لمواجهة كل الصناعات والخدمات، ولزيادة تطوره لتحسين الأداء وإنتاجه بوفرة حتى يكون فى متناول العامة من الناس وبأقل الأسعار.

وقد رأيت منه بنفسى فى مصنع للسيارات ما كاد يفقدنى الصواب.. إذ كيف لبشر من الناس أن يصل علمهم وفكرهم وقدرتهم على إعداد هذا الجهاز الذى يعمل تحت ظروف الحرارة المرتفعة ، بهذا الإتقان البالغ فى الصنع وتقريبا على مدى ساعات النهار كلها، بلا خطأ ولا ملل .. بل فى دأب وإصرار دونها كل إمكانيات البشر .. وعلمت أن هناك المزيد من الإمكانيات التى ينهض بها فقط بمجرد تغيير البرنامج الذى يقوم بإعداده جمع متخصص من البشر.

قلت : إذا هو يتكون من ثلاث : جهاز صمم لما اعد له وبالقدر اللازم فقط لأداء مهمته .. طاقة تحركه .. كمبيوتر ينظم حركته صوب وظيفته سواء عن طريق برنامج يتغير أو آخر ثابت يطلقون عليه Belt in memory.

وأنه بقدر ما يصل إليه هذا الجهاز (الروبوت) من إتقان .. تكون عظمة الإنسان الذى ابتدعه. فالروبوت مهما بلغ شأنه لا يعدو أن يكون

جهازا غبيا Dum machine .. إذ أن الذى يسيره ويضع له برنامجه هو الإنسان الذى أحكم صنعته وقدر حساباته ، بحيث لو تناولها الخطأ كان وزرها على الإنسان الذى أعدها.

بقى أن اعرف ما إذا كان يمكن أن يصل هذا الروبوت لمرحلة الذكاء والإرادة، بمعنى أن يتعامل هو بقدراته الذاتية الخاصة التى يوازن فيها بين الأشياء، ويختار الأفضل فى حرية واختيار، أى يضع هو برنامجه الخاص به والذى يميزه عن غيره بحيث ينسب التصرف أو الحدث إليه .... وإذا ما وصلنا إلى هذا الجهاز الذكى وخرج على مقتضى مهمته وتحرك مثلا ليقتل ويحرق ويدمر فما يكون شأننا معه ؟

قال محدثى بابتسامة : الحمد لله لم نصل بعد لهذا الروبوت الذكى، **وإنما كل ما هنالك أن ما بلغوه هو ذلك الروبوت الغبى،** الذى تسيره المهارات الإنسانية البالغة القدرة عن طريق ما تضعه له من برامج تفوق التصور. إذ أنه يقوم بالعديد من العمليات الحسابية فى سرعة بالغة، ويوازن بين العديد من الاحتمالات فى انضباط كامل، بحيث يكون تصرفه وفق برنامج محسوب ومقدر بمنتهى الدقة والاتقان.

أما أن هناك روبوت ذكى Intelligent يقوم بالتصرف بإرادته الخاصة، وبفكره وإدراكه الذاتى، بحيث يوازن بين الاختيارات ويستقر على إحداها بالنسبة لكل موقف على حده .. أى يكون له إدراكه وعقله الخاص به ، **فلا وجود له حتى الآن إلا فى أفلام الخيال العلمى .. وهو كما تحدثنا هذه الأفلام كارثة على البشرية يوم يتحقق مثل هذا الاختراع،** إذ نكون بصدد آلة عاقلة مدركة بقدرات تفوق طاقات العقل البشرى، وبهيكل يستطيع أن يدمر ويخرب دون ما تحكم فيه أو سيطرة عليه من

قبل البشر. ويومها لا يكون من سبيل إلا محاولة تدمير هذه الآلة درءا لمخاطرها على البشرية فى حرب ضارية.

ولكن علينا أن نميز بين روبوت وضع له برنامج ذكى وبين روبوت ذكى .. فالأصل أن يوضع للروبوت برنامج يكون قمة فى الذكاء لأنه خلاصة فهم ودراسة وأبحاث وتجارب مئات البشر .. ويكفى للتدليل مجرد اختيارك لبرنامج خاص بلعبة الشطرنج مثلا لتجد نفسك تنازل عقلية جبارة هى فى حقيقتها خلاصة أفكار العديد من محترفى هذه اللعبة .. وهكذا ومهما بلغ البرنامج من ذكاء يظل الروبوت غبيا، ويظل الفضل للإنسان الذى وضعه.

أما الروبوت الذكى فهو ذلك الذى يتصرف بفكره الذاتى وإرادته الخاصة وعقله المتميز .. وهو الأمر الذى مازال خيالا علميا فقط على نحو ما بينا.

ويلاحظ أنه يوم نصل إلى ذلك الروبوت الذكى فإنه يجب تحديده بذاته بحيث يكون له مقومات خاصة به من اسم يميزه وبلد ينتمى إليها .. وهكذا .. أما ما تم إنتاجه من الروبوت حتى الآن ، فهو نمطى بمعنى أنه يمكن إنتاج الآلاف منه، ومن ثم يكفى تحديده بجنسه ونوعه لأنه من قبيل المثليات.

قلت : بعد هذه المعلومات التى أفضت بها عن آخر مخترعاتهم وهو الروبوت، والتى **خلصنا منها فى عجالة إلى أن الروبوت جهاز غبى صمم لما أعد له، تحكمه طاقة سواء كانت كهربائية أم غيرها، ويتحكم فيه كمبيوتر اعد له برنامج خاص به ولمسيرته على مستوى عال جدا**

من المهارة والذكاء (إذ أن هذا البرنامج محصلة تجارب وتضافر مئات من البشر).

ولم نصل بعد إلى روبوت ذكى يقوم بالتصرف عن فهم وإدراك ذاتى بحيث يكون مهمتنا مجرد تزويده بالمعطيات ليصل هو إلى النتائج تلقائيا بفكره وحده، وأنه يوم نصل إلى مثل هذا الروبوت العاقل فإنه يحدد بذاته وبنفسه لأنه يصير شيئا قيميا، بينما يكفى تحديد ذلك الروبوت الغبى بنوعه وجنسه لأنه يعد من قبيل المثليات .

فقد آن الأوان لأن نقيس على هذا الروبوت ما يضمه الكون من مخلوقات تدب فيها الحياة ومنها الإنسان :

حيث نجد أن كل تلك المخلوقات بما فيها الإنسان تماثل ذلك الروبوت من حيث التكوين حيث أن جميعها تحتاج إلى جسم يصلح لما أعد له هذا المخلوق، بالإضافة إلى طاقة تحركه، وفى النهاية جهاز مبرمج يتحكم فى حركته ومسيرته.

كل ما هنالك أن الإنسان ينفرد عن باقى المخلوقات الأخرى بأنه يماثل الروبوت الذكى (إن قدر له أن يكون) حيث يستطيع أن يضع هو البرنامج الخاص به بفكره وإرادته الذاتية - طالما تم تزويده بكل المعطيات-حيث أنه المخلوق الوحيد الذى اختصه الخالق بالعقل والإرادة.

ويترتب على ذلك أن المخلوقات الأخرى تتحدد بجنسها ونوعها باعتبارها من المثليات ، فيما عدا الإنسان وحده الذى يحدد بذاته وبنفسه ومن ثم يمكن أن يحاسب، على نحو ما سيبين فى حينه.

وعلى ضوء ما سبق يمكن أن نفسر تفسيرا علميا العديد من الغيبيات مثل الجسم والروح والنفس .. بطريق القياس على ما يجرى بالنسبة للروبوت .. وقد خصصنا جلسة مستقلة لبحث كل منها على النحو التالى :

الجلسة الأولى : الجسم.

الجلسة الثانية : الروح.

الجلسة الثالثة : النفس.

الجلســة الأولــى

الجســـم

تتنوع الأحياء على سطح هذا الكون بما لا يدخل تحت حصر، وإن كان يمكن تقسيمها إلى ممالك وفصائل وأنواع بحسب الغالب من الصفات والخصائص التى تسود كل طائفة منها : فهذه مثلا مملكة الحيوان .. وتلك مملكة النبات .. وأخرى مملكة الطير .... الخ.

وداخل مملكة الحيوان .. توجد العائلة القطية وأخرى العائلة الكلبية .... الخ، وداخل العائلة القطية .. توجد القطط والنمور والفهود .... وهكذا ، ناهيك عن باقى الممالك الأخرى على سطح البسيطة، وتلك التى توجد فى البحار والمحيطات.

المهم أن ما من نوع أو فصيلة من تلك الممالك إلا وله شكل خاص به يميزه عن غيره .... وما منها إلا وله وسيلة للدفاع وأخرى للهجوم بقصد إشباع غريزة حب البقاء.

وقد صور الخالق كل كائن منها بالصورة التى تناسب دوره فى الحياة، ومن ثم نجد منها من يمشى على أربع ومن يسير مكبا على وجهه، ومن يرفرف فى السماء، ومن يسبح فى الماء ومن يغوص فيها.

ونجد منها ما هو بحجم الفيل .. ومنها ما هو بحجم البعوضة .. بل ما هو أكثر بحجم الجرثومة التى لا ترى بالعين المجردة ... كل ذلك بإبداع فى الصنع يفوق ملايين الملايين مما اجتمع له البشر.

فكل يما تمخض عنه البشر هو صنع جهاز له يد تتحرك بطريقة معينة تتمكن من ربط وضبط بعض أجزاء من سيارة أو طائرة .. أو جهاز يتحرك بطريقة معينة فيستقبل الإرسال الموجه إليه من قمر صناعى .. أو جهاز يتحكم فى هبوط طائرة من الفضاء أو الصعود إليه .. أو جهاز يتحكم فى تسيير مركبة فى الفضاء الخارجى .. أو توجيه قذيفة صوب الهدف فى الحروب .... الخ، كل ذلك عن طريق كمبيوتر ينظم ويتحكم فى حركته.

وواضح أن كل ما صنع الإنسان لا يعدل فى الميزان من حيث دقة الصنع ذبابة فما فوقها مما ضرب الرحمن مثلا [١].

أين ذلك فعلا من جسم ينساب فى ليونه وبلا عظام فيتوارى بين الصخور وفى الجحور كالثعبان، وآخر فى خفة وسرعة ورشاقة فيجوب أقطار السماء كالطيور، وغيره مثلا يمتلأ بالقوة والضخامة كالمفترس من الحيوان ... ناهيك عن ضئيل الحجم للحد الذى لايرى كالفيروس والميكروب.

وليس المهم فى الشكل الخارجى للطائر ومدى ملاءمته لوظيفته فى الحياة، **وإنما الأهم هو تشريح هذا الجسم** إذ تجد العجب العجاب فمنه من يتنفس الهواء ومنه من يتنفس تحت الماء .. هذا برئتين وذاك بخياشيم ومنه من يجمع بين الاثنين كالبرمائيات .. ومنه ما يستوى على عوده فتكسو عظامه اللحم، ومنه ما تغطى عظامه اللحم كالسلاحف .. ومنه

---

[١] " يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز " سورة الحج آية ٧٣ ، ٧٤.

ما يتكاثر بالولادة ومنه ما يتكاثر بالبيض والانقسام .. ومنه ومنه .... الخ. ويكفى للإلمام ببعضها مراجعة كل ما كتب فى علوم النبات والحيوان والطير ليكتمل اليقين بإبداع الصنع الذى تناول هذا الكم الهائل من أفراد هذه الممالك ... بحيث كان لكل منها هيكل وجسم يناسبه تماما ولا يشاركه فيه غيره، كل ذلك فى تماثل كامل بين أفراد النوع الواحد.

قاطعنى محدثى بقوله : مهلا يا سيدى **ما شأن الجسم الذى تتكلم عنه بموضوع الغيبيات محور حديثنا، والجسم من الأشياء المرئية التى** تقع تحت حواسنا ؟

قلت : وهل **أحطت بكل ما فى الكون من مخلوقات ، أم مازال اغلبها سترا عنك وغيبا ؟ هل محصت المحيطات والبحار، فكان ما فيها من الكائنات قبضتك ... فأحطت بها علما ؟ اقسم لك أن فيها الآلاف والآلاف مما زال عنك سرا .... هل قلبت فى عالم الحشرات عن تلك التى لم تحط بها خبرا ؟ هل علمت عن الطير إلا عن تلك التى زادت منك قربا ؟ هل عددت أنواع وصنوف النبات عدا ؟**

إن قلتها نعم ... فقد جئت أمرا إدا.

والأهم أن هناك ممالك أخرى هى بكاملها محجوبة عنا ... يكفى **ما يعايشنا من عالم الجان** الذى يرانا من حيث لا نراه ... أجسامه من مارج من نار عنده قدرة التحول إلى طاقة واختراق المادة، والتجول فى الأرجاء. **وملائكة الرحمن** التى خلقها الله من نور يناسب تسبيحه وعبادته فكانت فوق كل إدراكات البشر التى خلقها الله من صلصال كالفخار.

وإذا ما انتقلنا من تلك الممالك المحجوبة إلى قمة الممالك المنظورة وهى مملكة الإنسان لوجدنا فى جسده العجب العجاب !!

ألم تتخصص فى دراسته وتدريسه كليات جامعية على مدى سنوات، هى حصاد تجارب وأبحاث استمرت قرونا من الزمان. وانتهى المطاف إلى تقسيم هذا الجسد إلى أعضاء حتى يتمكن كل فريق من الإلمام بعضو منه : فكان منهم متخصص فى الكبد وآخرون فى القلب والبعض فى العظام . وحتى هذه أعجزتهم فتخصص منهم فى جزء من العضو فكان المتخصص فى رباط الساق، وذاك فى عضلة الكتف .... وهكذا .

ولم يقتصر هذا التخصص على الافراد بل امتد إلى الدول حيث يقال أن أمريكا تخصصت فى دراسات القلب .. وسويسرا تخصصت فى دراسات العظام .... الخ.

ويا ليتهم بعد هذا المشوار أحاطوا به فما زال الجسد يئن تحت وطأة أوجاعه، ولا تجد عندهم إلا كلمة الشافى هو الله، بعد أن تكون قد أعجزتهم قدرتهم وعلمهم عن معرفة الداء.

ويكفى ما تعانيه البشرية الآن من ذلك الوهن الجسدى الذى يصيب البعض، فتفقده المناعة ضد الأمراض فتنهال عليه ولا تتركه إلا وقد فارق الحياة بلا حراك .... يقولون عنه الإيدز، ونقول لم يرفع عنه بعد الحجاب حيث لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء.

وإذا ما برء الجسد من هذا الدخيل عليه، فما يدريك بعد عن الجديد .... **سلسلة من التساؤلات تمتزج بعديد من التأوهات والآنات**

مازالت وستزال تعانى منها الأجساد .... طالما أن علمها عند خالقها الذى قال *" وما أوتيتم من العلم إلا قليلا "* [١] .

أليس هذا الجسد الذى هو جهازنا فى مسيرة الحياة قصة لها العجب، أعجزنى علمى عن اللحاق بحلقاتها !! إذ كيف لابنى الصغير الذى أراه أمامى رضيعا لا يتجاوز طوله ثلاثين سنتيمترا، فإذا به وقد أصبح شابا يفوقنى طولا وعرضا، كيف نمت عظامه الصلبة !! كيف اعرض منكبيه !! من أين لحيته وشاربه !! من أين أسنانه وأنيابه !!

سيقول العلماء إنها الخلايا التى تتوزع بين هذا وذاك وتتكاثر فتكون لحما وعظما .... الخ. وهنا يدق ناقوس الخطر وبحق، إذ **كأن الخلية بدورها كائن له حياته ومقوماته الخاصة ومهمته المنوطة به !!** وأن هذه الخلية تسهم مع غيرها من بلايين الخلايا على اختلاف هويتها فى تكوين هذا الجسم، بحيث تكون المحصلة أن هذا الجسد هو خلاصة تضافر هذا الكم الهائل من هذه الخلايا التى لا يعلم الإنسان عنها شيئا .... وكم تعجب لو علمت أن هذه الخلايا يموت الملايين منها فى اليوم الواحد، ويولد الملايين وأنت عن ذلك من الغافلين .. وكم تعجب لو علمت أن هذه الخلايا تتصارع وتحارب وتموت من أجل بقاء هذا الجسد حيا ..

وكم تعجب لو علمت أن عضو الجسم- الذى هو مجموعة خلايا - **له كيانه الخاص وحياته المستقلة** عن الجسم الذى يضمه، بحيث نجده يستكمل مسيرة حياته إذا نقل إلى جسم آخر على النحو الذى

---

[١] سورة الإسراء ، آية ٨٥.

يدور الآن فى عملية نقل الأعضاء وزراعتها، **ويشهد على ذلك** قيام القلب باستكمال عمره الافتراضي بعد وفاة صاحبه ونقله إلى جسم إنسان آخر.

وكم تعجب أكثر وأكثر أن هذا الجسم يأتيه قدره المحتوم وهو الموت، فلا تملك له دفعا حتى ولو اجتمع أساطين الطب، ولو حافظت عليه فى بروج مشيدة، حتى ولو كانت كل أعضائه سليمة.

حقا جهاز عجيب نتصور أننا نملكه، وهو فى الحقيقة له مساره الخاص به الذى حاولنا أن نكتشف بعضه، ومازال وسيزال إلى أبد الآبدين غيبا عنا، طالما لم نملك لموته وفنائه دراءا. **والحقيقة أن هذا الجهاز وهبة إيانا الخالق على سبيل عارية الاستعمال** ليؤدى به الإنسان وظيفته فى الحياة.

تكلمنا عن القشور بالنسبة لأجسام الكائنات واللب تجده فى أمهات الكتب العلمية، وكلها تنطق بعظمة الخالق وقدرته التى وسعت كل شىء علما .

وقد أعدت هذه الأجسام لتكون جهاز كل مخلوق لأداء دوره فى هذه الحياة، تماما كما هو الشأن بالنسبة للروبوت.

الجلســة الثانيــة

الــروح

بينـا أن الروبـوت تلزمـه طاقـة محركــة تدفـع بـه لأداء مهمتـه، وهذه الطاقـة قد تكـون طاقـة كهربائيـة أو شمسية أو مغناطيسـية .... الخ، وبدون هذه الطاقـة يصير هذا الجهاز عديم الحركـة فـاقد القيمـة والفاعلية.

والروبوت شأنه فى ذلك شأن غيره من الاختراعات الأخـرى التـى أعدت لتتحرك كالسـيارة والقطـار والطـائرة .... الـخ، إذ جميعها يلزمها الطاقة اللازمة لحركتها .... وهكذا .

وإذا ما انتقلنا إلى الكائنات الحيـة وجدنـا أن أجسـامها تحتـاج إلـى طاقة تحركها وتدفع بها لأداء مهمتهـا، وهـذه الطاقـة ليست مـن قبيـل أنواع الطاقة المعروفة، وإنما هى طاقة لها خصائصها المتفـردة التـى لا نعلم عن كنهها شيئا، وإنما فقط نستدل عليها مـن مظـاهر الحيـاة التـى تتجلى فى هذه الكائنات، هذه الطاقة هى الطاقة الروحية .

أولا – الخصائص العامة للروح

فالطاقة الروحية هى التى تبعث الحياة فـى كـل الكائنـات، ولحظـة تنقطع هذه الطاقة عن أى من الكائنات تنتهى حياته ويلحقه الموت والفنـاء .. وتظل الحياة قائمة ما بقيت الطاقة الروحية متصلة به.

وهذه الطاقة لا يمكن تحديد ماهيتها، وإنما فقط نستدل على وجودها من مجرد مظهرها وهو الحياة التى تنبعث فى الكائنات.

ولكن إن تعذر تعريف هذه الطاقة والإلمام بكنهها، فلا أقل من تمييزها عن أنواع الطاقة الأخرى، وهذا لا يتأتى إلا ببيان بعض من خصائصها على النحو التالى :

١ - مصدرها الأمر الإلهى :

" ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " [١] فى حين أن كل مصادر الطاقة الأخرى معروفة ويمكن توليدها .... فهذه هى الطاقة الكهربائية والمغناطيسية والشمسية والذرية والنووية .... الخ، التى أمكن للإنسان توليدها واستعمالها فى خدمة أهدافه فى تحكم تام من حيث كم الطاقة وقوتها .

بينما الطاقة الروحية متعالية على قدرة الإنسان، فلا يملك توليدها ولا استعمالها .... فالإنسان بكل ما وصل إليه من علم ومعرفة فى العصر الحديث عاجز تماما عن بعث الحياة فى خلية .... ولن يتأتى له استخدامها أو التحكم فيها .... ذلك لأن سرها عند خالقها، ومن ثم فهى خارج دائرة العلم البشرى.

٢ - نطاقها يسع كل الكائنات الحية :

تغطى الطاقة الروحية كل الكائنات التى شاء خالقها أن تنبعث فيها الحياة .... ومن ثم فهى تمتد لكل كائن حى، أيا كان هذا الكائن : خلية ..

---

[١] سورة الإسراء ، الآية ٨٥.

أو عصفور .. أو أسد .. أو شجرة .. أو إنسان .... الخ . وقصرها على الإنسان وحده قد يكون سندها تميزه وإضفاء الجلال على الروح (على نحو ما سيبين) ولكنها بالمنطق العلمى المجرد، تتناول كل كائن ينبض بالحياة فتبعث فيه الحركة، حتى لو كانت حركة ذاتية داخلية.

وجلالها قد يكون أعظم بتغطيتها لكل الكائنات على اختلاف أعدادها، وأنواعها التى لا تدخل تحت حصر ويعجز عن إدراكها أى عقل .... ولك أن تتصور أن هذه الطاقة هى التى تبعث الحياة ليس فقط فى كل الكائنات من حيوان ونبات وطير وإنسان، وإنما هى تمتد لكل خلية حية من خلايا أجسامها بحيث يصير لكل منها اجل مسجل فى الكتاب.

٣ - زمانها يمتد عبر الوجود بكل ازمانه :

يرجع زمان هذه الطاقة فى الماضى إلى نشأة الحياة على هذا الكوكب .. وتمتد هذه الطاقة إلى قيام الساعة .... كل ما هنالك أنها تشرق على من كتب الله له الوجود من الكائنات لفترة لتغرب عنه عند انقضائها، وتواصل مسيرتها على هذا النحو عبر العصور والأزمان إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

٤ - تنفرد بالاتصال بالكائنات بوسيلتها الخاصة :

ليس هناك من وسائل مادية من أسلاك وخلافه لاتصال الطاقة الروحية بالكائنات التى تحركها .. كما هو الشأن فى أنواع الطاقة الأخرى، **وإنما هى تتصل عن طريق النفخ** .... وهذا التعبير بالقطع له دلالته اللفظية التى تقصد هذا المعنى ، بدليل استخدامه فى الرسالة الخاتمة" *إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين* *

*فإذا سويته **ونفخت** فيه من روحى فقعوا له ساجدين"* [١] .. " ***ونفخ فى** الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون "* [٢] والسياق هو النفخ بقصد عودة الروح .

كما وأن هذا السبيل (النفخ) يستخدم لدى الجمعيات الروحية، إذ يلجأ القائمون عليها إلى النفخ لتطهير ما يطلقون عليه الجسم الأثيرى، مما يكون قد دخل عليه من عوالق وأرواح شريرة .. وهكذا.

ولا ترتفع هذه الطاقة عن الكائن الحى إلا بالقبض .. والقبض يعنى إمساك الروح عن معاودة الجسد، وفى ذلك تقول الآية الكريمة *" الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها **فيمسك التى قضى عليها الموت** ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون "* [٣] .

وهذه الوسيلة وتلك – إن صدق حدثها – قمة فى الإعجاز إذ كيف لهذه الطاقة أن تتصل بكل هذا الكم من الكائنات – الذى لا يحصيه عد – فى لحظة من الزمان.. أو تنقبض منه، إلا إذا كانت هذه الوسيلة أو تلك على قدر هذه الطاقة التى تنفرد – كما قلنا – بأن مصدرها الأمر الإلهى.

---

(١) سورة ص ، آية ٧٢، ٧٣

(٢) سورة يس ، آية ٥١.

(٣) سورة الزمر: آية ٤٢.

ثانيا - الخصائص الخاصة بالروح الإنسانية

إذا ما انتقلنا من خصائص الطاقة الروحية بصفة عامة التى تبعث الحياة فى كل الكائنات، إلى تلك الطاقة الروحية التى خص الخالق بها الإنسان ، وجدنا أن الروح الإنسانية نفخة من روح الله.

وفى ذلك يقول الحق : *" وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته **ونفخت فيه من روحى** فقعوا له ساجدين"*[١] .

فكأن الإنسان تميز على بقية الخلق، بأنه نفخة من روح الله جلت قدرته، ومن ثم له بهذه الخصيصة التى ينفرد بها مكان التميز بين الخلق للحد الذى يؤهله لأن يكون خليفة الله فى الأرض.

وبيان ذلك أن الخالق سبحانه، بالإضافة إلى أنه نور السموات والأرض، له المشيئة والقدرة :

بدليل قوله : *" إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون "* [٢] .

فهو ينفرد **بالإرادة** *" إذا أراد شيئا "* ، **والقدرة** *" أن يقول له كن فيكون "* .

ومعلوم أن الإرادة لا تكون إلا عن عقل على قدر نطاقها، ولما كانت إرادة الله قد وسعت كل شيء، لذا فالخالق هو العقل الأعظم الذى يدبر الأمر *" يدبر الأمر من السماء "* [٣] .. كما ينفرد بطلاقة القدرة للحد الذى يقول للشيء *" كن فيكون "* .

---

[١] سورة ص ، آية ٧١ ، ٧٢.

[٢] سورة يس، الآية ٣٦.

[٣] سورة السجدة ، آية ٥.

وهكذا نجد أن الإنسان وقد انفرد بنفخة الروح الإلهية .... فإن له نصيبا من نورانية هذه الروح، وله قدرا من المشيئة والإرادة الإلهية .. أى جزء من العقل الأعظم أو الكلى، كما وأن له شطراً من القدرة الإلهية الكبرى .... أى كأن الروح البشرية زودتها النفخة الإلهية بطاقة نورانية وأخرى عقلية وأخيرة إرادية :

١ - الطاقة النورانية :

قال تعالى " *الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شىء عليم* " [1] .

فالله سبحانه .. نور السموات والأرض، وقد أثبت العلم الحديث أسرار النور وأثره على الحياة، ومدى ما يتوافر فى حزمة منه .... الخ.

وما يعنينا ليس فى بيان النور وأهميته، وإنما فى مداه وامتداده إلى الإنسان بنفخة من الروح الإلهية .... تلك النفخة التى أمدته بطاقة روحانية نورانية تكفى بأن ترفعه درجات إلى عليين.

وقد بين الحق سبيل الترقى الروحى لتنال الروح من فيض النور الإلهى وذلك بالإمتثال فى طاعة وإخلاص لما فرضه الخالق على الإنسان من عبادات .... وبقدر ما يصل الإنسان إلى مراتب المؤمنين والصديقين والشهداء تكون طاقته نورانية، وفى ذلك يقول المولى : " *يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم*

---

[1] سورة النور ، آية ٣٥.

جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ذلك هو الفوز العظيم ".[١] *" يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا **نقتبس من نوركم** قيل ارجعوا ورائكم فالتمسوا نوراء فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب "* [٢] .. *" والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم **ونورهم** ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم "* [٣] ، *" ومن لم يجعل الله له **نورا فما له نور** "* [٤] .

وقد أثبت العلم الحديث أن كل إنسان تحيط به هالة من نور، وأن هذه الهالة تختلف من شخص إلى آخر باختلاف درجة شفافيته.

وقد تفوق الطاقة الروحانية النورانية لبعض البشر تلك الطاقة النورانية التى تتكون منها الملائكة .... ومن ذلك ما ورد فى كتب السيرة عن رحلة المعراج حين اقترب رسول الله من عرش الرحمن ، وهنا توقف جبريل (عليه السلام) عن المضى مع رسول الله ، وقال له : " لو اقتربت لاخترقت .. ولو اقتربت لاحترقت " **ومفاد ذلك أن الطاقة الروحانية النورانية للرسول فاقت تلك التى كانت عند الروح الأمين.**

ولولا هذه الطاقة النورانية العالية التى كانت عند رسول الإسلام لما أمكن لجبريل (عليه السلام) أن ينقل إليه وحيا رسالة السماء.

---

[١] سورة الحديد، آية ١٢.

[٢] سورة الحديد، آية ١٣.

[٣] سورة الحديد، آية ١٩.

[٤] سورة النور، آية ٤٠.

ولكن كيف لهذه الطاقة النورانية أن تلتقى بهذا الجسم المادى للإنسان، مع اختلاف طبيعة كل منهما ؟

والإجابة قد تكون فى القول بأنها قدرة إلهية لا نحيط بها بمنطق العلم.

وقد تكون فى القول **بأن هذا الجسم المادى يحتوى على آخر أثيرى يماثله تماما**، تتركز فيه هذه الطاقة حيث يكون له أن يتقبلها ويحتملها بحكم تكوينه من طبيعة تناسبها .... ويظل هذا الجسم الأثيرى مرتبطا بالجسم المادى طالما كانت تظله الطاقة الروحية التى تبعث فيه الحياة، ولا ينقطع عنه إلا بمفارقة الروح للجسد.

وهذا يفسر لنا ما يدور فى الأحلام من أحداث وأحداث، عمادها كل أنواع الحركة والجسم المادى ساكن تماما إلا من مظاهر الحياة التى تدل على وجود الروح، حيث تكون الحركة هنا بالجسم الأثيرى فقط، وهى ما تعطيه طلاقة تفوق إمكانيات الجسم المادى بكثير حيث لا تتقيد بقوانينه.

كما يفسر أيضا نوعية من الأحداث، تجرى فى الأحلام بالصورة التى كنا نريدها، ولم تتحقق فى واقعنا لصعوبة تقبلها بمنطق العقل الذى يزنها من خلال واقع الحال، وأحداث أخرى تجرى فى الأحلام على واقعها رغم كل محاولات العقل لاخفائها.

وربما السبب : أن هناك أمورا قد يريدها الإنسان بشدة ولا يقوى على أدائها بحسابات العقل، وهناك أمورا لا يريدها الإنسان ولكنها تحققت

عنوة عنه بالخلاف لحسابات العقل .. وهذه وتلك إن بلغت قدرا من الأهمية بالنسبة للإنسان بحيث أصبحت شاغله الفكرى دون أن يستطيع تحقيقها أو إخفائها فإنها تنتقل من منطقة الشعور حيث العقل الواعى إلى منطقة اللاشعور حيث العقل الباطن الذى يخرج عن سيطرة الإنسان ... **ومن ثم يمكن للإنسان إدراكها بالجسم الأثيرى حيث يوجد العقل الباطن** (أو حيث تختفى الحجب بينه وبين ما يدور فى باطن الجسم المادى) **فيظهرها على النحو المستقر فى هذا الباطن** إن صراحة وإن رمزا وهكذا تظهر فى الأحلام.

٢ - الطاقة العقليـة والإرادية :

بينا أن الطاقة الروحية التى أودعها الله **الكائنات هى طاقة مأمورة،** أساسها الامتثال والطاعة فى استسلام" *ألم تـر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون* " [1] ، **أما الطاقة الروحية للإنسان التى هى نفخة إلهية** فهى طاقة مريدة مختارة، قد اكتسبت قدراً من القدرة والمشيئة من لدن الخالق الذى أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

ولما كانت الإرادة - بمعنى الاختيار بين البدائل والأضداد- مناطها العقل حيث التدبير والتقدير، فإن الخالق وقد وسعت مشيئته كل شىء هو العقل الأعظم المنظم لهذا الكون الذى نعيشه وما قبله وما بعده من حيوات فى ملكوت الرحمن [2] .

---

[1] سورة النور ، آية ٤١.

[2] ويكفى نظرة إلى ما حولنا لنرى هذا التوازن العجيب الذى يسود بين كافة المخلوقات " فالشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون " =

لذا فالإنسان، وقد انفرد بنفخة الروح الإلهية له نصيب من هذه الإرادة والقدرة .... وهى قطعا بالقدر الذى يناسب إمكانياته ومن ثم فإن له طاقة عقلية محدودة وإرادة حرة تمكنه من المفاضلة والاختيار بين الأضداد.

ومعلوم أن الطاقة العقلية المحدودة للإنسان فى هذا الكون، تجد سندها ودعمها فى العقل الأعظم المدبر لكل صغيرة وكبيرة مما يجرى فى ملكوت الرحمن .... ومن ثم يمكن زيادة هذه الطاقة بمزيد من التدبر والتفكر فى الخلق وآياته والتعمق فى معرفة أسرار الكون وعلومه، والإحاطة بخبايا النفس الإنسانية وتحليلها.

وهكذا نجد الرسالة الخاتمة ، وقد خاطبت ضمن ما خاطبت فى الإنسان طاقاته العقلية، وذلك بيقين أن هذه الطاقة العقلية إذا تفجرت مداركها فإنها ستصل بمنطق الفكر إلى حيث العقل المدبر لهذا الكون والمنظم لحركته، وعندئذ تسلم له بالألوهية الخالصة.

وقد أمكن الاتصال فعلا بين الطاقات العقلية للبشر، حتى ولو باعد بينهم المكان، بحيث يركز أحدهم على ما يدور فى فكر الآخر ويوجهه، على النحو الذى يستخدم حاليا فى أحدث أساليب الجاسوسية .... **فما بالنا بالاتصال بالعقل الأعظم إذ أنه جد يسير** إذا ما تم التركيز وإعمال الفكر

= حقا لا يمكن أن يتأتى هذا التوازن إلا عن عقل وسع علمه كل شيء بحيث كفل هذا النظام - المنقطع النظير فى إطار حسابات قمة فى الدقة لهذا الخلق - دون أدنى تعارض أو تضارب.... وإنما هى مسيرة واحدة فى كوكبة من المسيرات الأخرى تتظاهر جميعها لتنطق بعظمة العقل الأعظم الذى قدر فهدى.

والتدبر فى الآيات والنظر بعيدا فى الملكوت .... الخ، وقد يسرت ذلك الأديان بفرضها للعبادات ....

وهكذا نجد أن :

الطاقة الروحية بصفة عامة التى تبعث الحياة فى كل الكائنات، على اختلاف أنواعها وأشكالها وأزمانها بما فيها الإنسان ... هى من أمر الله، بينما الروح التى اختص الخالق بها الإنسان هى من روح الله .... وشتان بين الاثنين . وبيان ذلك :

أولا : أن القرب من مصدر الروح فى الأولى تسبيح فى أمر وطاعة وامتثال " *ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض*" .. ذلك أن الطاعة هنا تتعلق بقدرة الله.

أما فى الثانية فالقرب من مصدرها – النور الإلهى – بتقوى الله .... أى العبادة عن رضا وإخلاص. وفى ذلك يقول الحق " ***إن المتقين*** *فى جنات ونهر* * ***فى مقعد صدق عند مليك مقتدر*** " [1] .

وهكذا فالجبر فى العبادة هو قدر كافة المخلوقات .... ذلك لأنها تتعلق بقدرة الله ، **بينما الاختيار والإيمان بالله عن حرية وإرادة هى سبيل الإنسان للقرب من الخالق سبحانه ....** ذلك أنها تتعلق بمشيئة الله .... التى شاءت للروح الإنسانية أن تعلو وتسود بنفخة من لدنه .. **فكانت بدورها قيد المشيئة والاختيار فى القرب .**

---

[1] سورة القمر ، أية ٥٤، ٥٥.

ثانيا : تتقيد الطاقة الروحية التى تبعث الحياة فى الكائنات بذات القواعد التقريرية التى تحكم الأشياء .. بمعنى أنها تسير وفق قواعد نمطية لا مجال للخروج عليها ، ذلك أنها محكومة بالأمر الإلهى. **فى حين الطاقة الروحية الخاصة بالإنسان يمكن أن تخرق قانون الأشياء وتتعالى عليه بقدر قربها من مصدرها الإلهى** .... فنجد الكثير من المعجزات والكرامات التى حدثتنا عنها الكتب السماوية عن الأنبياء والرسل والمقربين .... وكلها تنطق بالخروج على قانون الأشياء : فمنهم من يعرج إلى السماء ، ومنهم من يشفى الأكمه والأبرص، ومنهم من يضرب بعصاه فينفلق البحر ، ومنهم من كان يكلم الطير والجان والريح طوعه .... الخ، فى حين لم تجد معجزة واحدة لطير أو حيوان أو نبات تخرق بها قانون الأشياء .

ثالثا : الطاقة الروحية التى تحكم الكائنات قد تنتهى بانتهاء دورها فى بعث الحياة فى تلك الكائنات، وقد يكون لها امتداد فى قدر الله لا نعلمه، ذلك أنها مرتبطة بقدرة الله وقدره الذى لا نحيط منه إلا بما شاء وبقدر ما يخصنا منه. **فى حين أن الروح البشرية هى نفخة إلهية لها خلود مصدرها، ومن ثم فهى معنا فى مرحلة الوجود ، وهى معنا بعد ذلك فى مرحلة الأبدية حيث الخلود الدائم** .... وقد فطن إلى ذلك من قبل الأجداد من الفراعين فى مصر حيث كان تحنيط الأجساد .. انتظارا لعودة الروح فى رحلة الأبدية.

رابعا : الطاقة الروحية للإنسان طاقة هائلة دونها كل أنواع الطاقة الأخرى المعروفة، إذ هى – كما قلنا – نفخة إلهية تستمد قوتها من لدنه .... كل ما هنالك أنها تحتاج فقط لجلاء قوتها الاتصال بمصدرها عن طريق الإخلاص والترقى فى العبادة، وفى ذلك ما

جاء فى الكتاب عن سليمان عليه السلام حينما *" قال يا أيها الملؤا أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين * قال عفريت من الجن أنا آتيك قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين * وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك "*[١].

ومعلوم أن الذى عنده علم من الكتاب كان من الإنس المقربين.

قال محدثى : وقد دخلنا إلى حيث معراج الروح فهناك الكثير من الأسئلة حول ماهية الروح ؟ وأين تقع من الإنسان ؟ وبماذا تتأثر؟ وكيف تتولد؟ وهل روح واحدة أم عديد من الأرواح ؟ وماذا عن عالمها ؟

قاطعته بقولى : وفر عليك، إذ حتى لو سألت ألف سؤال وشاركك السؤال مائة ألف غيرك، بل والبشر جميعا، فلن تجد إلا جوابا واحدا قمة فى الإيجاز وقمة فى التحدى .. رغم كل التقدم الذى وصل إليه العلم الحديث والذى وقف عاجزا عن بعث الحياة فى خلية :

وهو أن الروح من أمر الله أى أن مصدر الروح هو الأمر الإلهى *" ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا "* [٢] .

أما عن ماهية الروح ومداها وعالمها ومستقرها ومنتهاها ... الخ فإنها ستظل (سرا إلهيا) إلى ما شاء الله، حيث أن **علمها علم لدنى** يفوق طاقة العلم البشرى بكثير *"وما أوتيتم من العلم إلا قليلا "* .

---

[١] سورة النمل : الآية ٣٨ – ٤٠.

[٢] سورة الإسراء ، أية ٨٥.

أما ما تكلمنا عنه عن الروح فهو لا يعدو أن يكون عن بعض المظاهر الدالة على وجودها، وتحليلنا فقط لهذه المظاهر تحليلا يقبل الخطأ والصواب، دون أن يكون له أى أثر على قدسية الروح باعتبار أنها من أمر الله وأن علمها الحق سيظل سرا إلهيا إلى أبد الآبدين.

ونخلص إلى أن:

الروح هى الطاقة التى تبعث الحياة فى كل الكائنات على اختلاف أنواعها وأشكالها وأحجامها بما فيها الإنسان، وأن هذه الطاقة مصدرها الأمر الإلهى ، ومن ثم فهى طاقة مأمورة تؤدى دورها فى بعث الحياة فى كل الكائنات على اختلاف أنواعها وأزمانها عبر هذا الوجود وفق قواعد نمطية تقريرية أحكمتها القدرة الإلهية.

والروح البشرية بدورها طاقة تبعث الحياة فى الإنسان، كل ما هنالك أنها نفخة من الروح الإلهية أكسبتها الذات الخاصة العاقلة المختارة وهى ما تسمى (بالأنا) ، لتكريم الإنسان على غيره من المخلوقات بحسبان انه خليفة الله فى الأرض، حيث زودته هذه النفخة بطاقات نورانية وأخرى عقلية وإرادية من لدن الخالق.

والواقع أن هذه النفخة لم تكن فقط لمجرد تكريم الإنسان وإنما هى فى المقابل للتكليف .... إذ طالما زودته بطاقات عقلية وإرادة خاصة فقد أصبح مناط الحساب والعقاب على نحو ما سيبين.

وأيا ما كان الخلاف أو التمييز بين الروح التى تبعث الحياة فى الكائنات وتلك التى تبعث الحياة فى الإنسان، فإنهما يتحدا على أنهما طاقة لا تكاد تختلف عن تلك التى تحرك الروبوت الذى صنعة الإنسان إلا

من حيث النوع فقط ، (أمـا مـا تتميز بـه الـروح الإنسـانية مـن طاقـات عقلية وإرادة ذاتية فمازالت بعيدة عما تم اختراعه من أنـواع الروبـوت، إذ ذلك يتناسب فقط مع الروبوت الذكى الذى مازال خيالا علميا).

وهكذا يكون اللقاء بين الروبوت والكائنات الأخرى التى خلقها الله من حيث أنها جميعا تعتمد على طاقة تحركها.



الجلسة الثالثة

النفس

نطرق موضوع النفس فقط من زاوية علمية محضة، وذلك عن طريق قياسها على ما يجرى بالنسبة للروبوت الذى صنعه الإنسان، فاغتر به كواقع لعظمة الإنسان وعلمه، وأنكر ما عداه من غيبيات لا يصل إليها بمفهوم العلم المجرد ووسائله.

ومن ثم كان علينا ونحن نحاج هؤلاء أن نتجرد عن المنطق الإيمانى البحت ، وننزل إلى حيث حلبة الصراع العلمى بوسائله المجردة، ونتخذ من واقعهم العلمى الذى بلغوه دليلاً على فهم ما أنكروه من غيبيات، وبالذات بالنسبة لموضوع النفس الذى يحار الكل فى فهمه حتى الآن.

وعودة إلى ما سبق أن صنعة الإنسان وهو الروبوت، يجده آلة غبية رغم ما قد يوضع لها من برنامج قمة فى الذكاء والإبداع والإتقان العلمى. وهذا البرنامج الموضوع – سواء كان متغيرا أوثابتا Belt in memory يدل على ذكاء من أعده وخبرته ومهارته. ومن ثم فهو يستأهل وحده كل التقدير والإعجاب ، أما الروبوت فهو فقط منفذ لهذا البرنامج عن طريق جهاز للكمبيوتر يتحكم فى حركته وفق هذا البرنامج المعد له سلفا.

وقد أمكن حتى الآن إنتاج الآلاف من هذا الروبوت النمطى .. وفى الغد يمكن إنتاج البلايين منه مع تعدد فى أنواعه وأصنافه حسب مقتضيات التطور.

أما إنتاج روبوت ذكى يخطط ويتصرف بإرادته الذاتية ووفق برنامج يضعه لنفسه بحرية واختيار وعن فهم وإدراك خاص، فإنه ما زال حتى الآن خيالا علميا.

ويوم نصل إلى صنع هذا الروبوت تكون الكارثة، إذ نكون بصدد آلة عاقلة ومدركة، مزوده بجهاز يفوق قدرة البشر، تفكر وتخطط وتنفذ، ولا يمكن السيطرة عليها أو الحد من سطوتها .. ومن ثم لا سبيل إلا محاولة تدميرها إن حادت عن جادة الصواب، وصارت وبالا على البشرية.

وهذا الروبوت إن أمكن التوصل إليه لا يمكن تحديده بنوعه أو جنسه، وإنما فقط بذاته أو بنفسه، حيث يختلف كل منها فى درجة ذكائه ودهائه وحيلته .... الخ.

وإذا ما قسنا ما يجرى فى الكون من كائنات حية على هذا الروبوت، وجدنا أن كل أنواع الكائنات من حيوان ونبات وطير .... الخ هى من قبيل الروبوت الغبى .. وأن الإنسان وحده هو من قبيل الروبوت الذكى .. ومن ثم يختلف الحكم بين ما يجرى على هذه الكائنات، وما يجرى على الإنسان، وذلك على النحو التالى :

أولا
ما يجرى على كل الكائنات

الواقع أن كل الكائنات الحية هى من قبيل الروبوت الغبى، بمعنى أن خالقها أعد لها البرنامج الذى يحكم حركتها فى الحياة بمنتهى الدقة والإبداع والإتقان والذكاء. وهذا البرنامج ***Belt in memory*** هو ما

قد نطلق عليه بالنسبة لهذه الكائنـات الفطـرة أو الغريـزة، وقد نعجـز عـن تعريفه أو إدراكه بطاقاتنا الفكرية المحدودة فتأخذنـا الدهشـة والعجـب ... وذلك من فرط ما فيه من إعجاز.

هذا البرنـامج فـى الحقيقـة إن دل علـى شـىء فإنمـا يـدل علـى عظمة الخالق وإبداعه وقدرته التـى وسعت كـل مخلوقاتـه، فقدرت لكـل منها نهجها ومسلكها فـى حدود خصوصيـة معيشتها فـى هذا الوجـود، بحساب لا يخطئ وفهم لا يضل .... فهى مع الدودة فى باطن الأرض .. ومـع الطـير فـى السـماء .. ومـع السـمكة فـى البحـر .. ومـع الزهـر فـى الرياض .. ومع الحيوان فى الغاب .... الخ، لكل قد وضـع شـرعته فـى توازن واتساق.

ونظرة إلى مجرد خلية فى جسم إنسان أو حيوان، لتجد أنها تحمـل برنامجها الذى أعد لها من عليـم مقتـدر .. فهـا هـى تتجـه صـوب عضـو معين من أعضاء الجسم، لتحدث أثرا معينا وتكوينا منظمـا، فتتكون منهـا ومن ملايين مثلها : العين والشعر والمخ والكبد .. وهكذا .. تجد فى هـذه الخلية خطتها فى الدفاع عن الجسم .. تجد فيها كل الصفات الوراثية لهـذا الإنسان أو الحيوان منذ مئـات السنين .. تجـد فيهـا سـاعتها وأجلهـا، فقد تعمر لشهر أو لسنة أو يزيد .... وهكذا.

ونظرة إلى ما يجاوز آحاد الحيوان أو الطير، لتجد أن جماعاتها تحمل برنامجها المعد لها منذ ملايين السنين : فهـا هـى هجـرة الأسـماك والطيور التى لا نجد لها تفسيرا علميا حتى الآن .. إذ كيف لهـذه الطيـور أن تهاجر آلاف الأميال عبر المحيطـات والبحـار فـى توقيـت معيـن إلـى

حيث مكان معين لتتزاوج فيه، ثم بعدها يعود من قدر له النجاة إلى حيث موطنه فى رحلة قد تستمر شهورا من العام !!

وما يقال عن الطيور يقال أكثر عن الأسماك التى يهلك معظمها أثناء رحلة الهجرة، ليستكمل زرعها مسيرتها بعد ذلك فى رحلة العودة .... الخ.

وما بالنا لا نتأمل قطة أو كلبا لنرى أن لكل منها شرعته التى تفرض عليه تصرفا معينا قد يختلف بين الاثنين .. فها هى القطة تجرى وراء الفأر لتلتهمه والكلب ينظر إليه بلا اكتراث.

ثم ما ينسينا أن لكل نوع من الحيوان أو الطير سلوكا لا يكاد يختلف بين آحاده .. لدرجة أننا نقول أن الأسد لا يهاجم إلا إذا كان جائعا والنمر يقتل لمجرد القتل والنعامة تخفى وجهها فى الرمل عند الخوف.

أليست هناك دراسات ودراسات عن خصائص الأنواع من الحيوان والطير والنبات، كانت خلاصة تجارب ومشاهدات العديد من العلماء عن هذه الكائنات استمرت سنوات وسنوات، حيث كانت المحصلة نوعا من التصرف أو الحركة أو رد الفعل لا يكاد يختلف بين آحاد هذا النوع بحيث صارت خصيصته بعد ذلك.

أليس عجيبا أن نرى هذا التآلف بين مملكة النبات فيما بينها : فتلك أشجار باسقات، ثم تجد ما يتعلق بها من نباتات متسلقة حيث تتخذ من ساقها سلما إلى السماء، فتنعم بدورها بأشعة الشمس والضوء.

أليس من العجب العجاب أن نرى هذا التآلف الخلاب بين أنواع الزهور وأنواع الفراش : فها هى الزهرة تجذب الفراشة برحيقها، وتلك تنقل بين الزهور حبوب اللقاح ... أى إبداع أكثر من هذا.

ناهيك عما يجرى فى العوالم غير المرئية لنا إلا بالعدسات المكبرة والميكروسكوب مثل عالم الفيروس والميكروب. ونقول عالما لأن ما يجرى فى أى منها يكاد يستغرق كل أبحاث العلماء وتجاربهم لآلاف السنين، لاكتشاف الأنواع التى لا تحصى من كل منها، وخصائص كل نوع ، وكيفية هجومه على الإنسان أو الحيوان، ووسيلة الوقاية منه والقضاء عليه .... وكيف أن هذه الفيروسات والميكروبات تتطور مع تطور وسائل العلاج ..وأن منها ما يستعصى على كل ما وصل إليه الإنسان من علم، حيث تجده يصيب منه مقتلا والإنسان بكل ما أوتى من العلم عاجز عن الدفاع عن نفسه، ومن ذلك فيروس أو ميكروب الإيدز مثلا.

ألم يقف الإنسان مقهورا فى خزى وعار، وهذه الكائنات المتناهية الصغر تصرعه وتأتى على قممه من ملوك وأباطره بين آن وآن. فهذا هو الإسكندر الأكبر المقدونى الذى فتح عالم الإنس فى علياء واستكبار، يطويه التراب فى شبابه تحت وطأة مرض عضال، كان بطله صغيرا من الصغار، ربما ميكروب ضال أو فيروس يختال .... إنها حقا أضحوكة .. ولكن وراءها قدير متعال !!

ألم يأتك نبأ القرد الذى قال عنه الأجداد أنه أصل الإنسان، ذلك أن له مقوماته وعنده من الذكاء مكان.

قل وما القرد إلا خلق ممن خلق الرحمن، شأنه فى ذلك شأن

الإنسان، اختص الأول ببرنامج ذكي والثاني بالذكاء .. ومن ثم فالأول منفذ والثاني مخطط .. وقد أثبتت ذلك الأيام . **فالقرد ما زال يتأرجح بين الأشجار والإنسان يجوب الفضاء في استكبار.**

سيقولون وهل تنكر أن لبعض الكائنات ذكاء فطرى : أنظر إلى الأسد وهو يخطط لاقتناص الفريسة، وللنحل والنمل فى تنظيمه لمملكته، وللقرد فى تقليد الإنسان .... الخ،

قـل : وهل خفى على الرحمن علمها ... بالقطع أن هناك منها ما هى مبرمجة من الأصل على فعل أمر دون سواه كالخلايا والنباتات والحيوانات الدنيا، ومنها ما تختص بكمبيوتر له تحميل من برنامج ذكى يختلف فى طاقته ومداه من كائن لآخر، ولكن فى النهاية يجمعها أن الذكاء هو فى البرنامج وليس فى هذه الكائنات .. ذلك أن الذكاء مناطه العقل .. والعقل هو ما اختص به الخالق الإنسان.

سيقولون: وما بال الثقلان الإنس والجان : ألم يحملا إرادة الاختيار فكان الخطاب والتكليف لهما حيث العقل والإدراك ، فلما نقصر الذكاء على الإنسان ..

قل : علمها عند ربى .. وهل أحطنا هنا بكل ما نرى من المخلوقات ليكون شاغلنا ما لا نرى .. دع الملك للرحمن.

وعموما فقد خصصنا فى دراسات مقبلة لهذا الموضوع مكان.

ثانيــا
ما يجرى على الإنسان

بينا أن الإنسان فى مجال القياس على الروبوت، هو ذلك الروبوت الذكى الذى ما زال خيالا علمياً تتناوله الروايات والأفلام . والروبوت الذكى إن قدر له أن يكون ، هو ذلك الذى يضع برنامجه ويتصرف بارادته الخاصة، بمعنى أن يتوافر لديه الإدراك والفهم والذكاء بحيث يعقل تصرفه.

والحقيقة أن الإنسان بنفخة الروح الإلهية : التى زودته بالطاقات العقلية التى أمدته بالذكاء بحيث أصبح له فكره وتقديره للأمور، وإرادته الخاصة التى يعملها فى اختيار ودون جبر : إنما هو ذلك الروبوت الذكى الذى نتصوره فى خيالنا العلمى.

وكما سبق أن بينا أن الروبوت الذكى لا يمكن تحديده بنوعه ودرجته شأن الروبوت الغبى ، وإنما يجب تحديده بنفسه وذاته وصفاته الخاصة، لأنه لا تتفق أحاده على فعل شىء نمطى، وإنما لكل منها تصرفه الخاص به، بحيث يمكن لأحدها أن يقتل ويخرب فينصرف جهدنا لإهلاكه وتدميره خشية أن يصيبنا بالسوء والدمار، فى حين يمكن لآخر أن ينفع ويفيد فينصرف جهدنا لتدعيمه ومساندته أملا فى المزيد.

وهكذا الإنسان لا يمكن تحديده بنوعه وجنسه، حيث تختلف آحاده اختلافا بينا فيما بينها ، إذ لكل منها صفاته ومقوماته الخاصة وتصرفاته الذاتية التى قد تختلف حتى ما بين الأشقاء، فهذا جبار فى الأرض وذلك ورع تقى ، ومن ثم يلزم أن يعين كل منهما بنفسه وشخصه أو بمعنى

آخر أن يكون لكل منهما نفسه الخاصة به وشخصيته المستقلة. **ومن هنا يمكن القول أن لكل إنسان نفسا خاصة به.**

ويدور السؤال عن ماهية هذه النفس وصفاتها .... الخ ، ونبدأ بما جاء عنها فى الكتاب المبين ؟

قاطعنى محدثى : تعاهدنا أن يكون حديثنا فى إطار علمى مجرد، ولكنى وجدتك قد عرجت على الدين فى الحديث عن الروح فدعمت قولك بآيات من الذكر قد يتصورها هؤلاء القوم أنها سندك الوحيد، وأنك تحاول إدراك الغيبيات بالغيبيات، فى حين أن ما تصورته عن الروح التى تبعث الحياة فى الكائنات على أنها طاقة محركة شأن أنواع الطاقة الأخرى وأن مصدر هذه الطاقة هو الأمر الإلهى، إنما هو حقيقة علمية ملموسة تجد سندها من الواقع، إذ حتى الآن لم يتمكن العلم من معرفة سر الحياة ومن خلق خلية حية .. وأن الروح البشرية تتميز بأنها نفخة إلهية أمدت الإنسان بالحياة وزودته بطاقات نورانية وعقلية، إنما هى بدورها حقيقة علمية يؤيدها الواقع، إذ الإنسان هو الكائن الوحيد بين الكائنات الذى يتمتع بالذكاء والإرادة الخاصة والعقل المميز.

ومن ثم فإنى أرى أن تواصل مسيرتك بعيدا قدر الإمكان عن ربطها بالدين، الذى هم فى غفلة عنه، وأن تقصرها فقط على الناحية العلمية المجردة حيث يدينون ، إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا. وآمل أن يكون حديثنا عن النفس من واقع علمى مجرد.

قلت : رحم الله امرئ عرف قدر نفسه، فجميعنا عند الاعتاب ، وما نطرقه علمه فى السماء .. وليس لنا إلا ما ورد ذكره فى الكتاب،

ولكن عموما سنحاول أن يكون حديثنا من واقع فكرهم وتجربتهم، والله من قبل ومن بعد المستعان.

وعودة إلى الإنسان الذى خصه الخالق بالبيان، فكان الوحيد بين الخلق الذى يتميز بالذكاء والعقل والإرادة .. ودعنا نخوض تجربتهم معه علها تكون سندنا فيما نبحثه عن النفس وما بعدها من غيبيات .

إن الإنسان فى الواقع القانونى - الذى يتقارب مع الواقع الدينى حيث ينظم كل منهما تعاملات الانسان، كل ما هنالك أن الواقع الدينى ينظم تعاملاته مع ربه ونفسه والآخرين، والواقع القانونى يقصره على التعامل مع الآخرين - هو الكائن الوحيد الذى يتمتع بالعقل والإدراك والإرادة، ولذا فإنه الكائن الوحيد الذى يخاطبه القانون فيحمله بالالتزامات ويرتب له الحقوق ويحميها.

وما عداه من كائنات أخرى ليست محل خطاب القانون وليس عليها التزامات، كما وأنه ليس لها حقوق، وإنما تعتبر هذه الكائنات من قبيل الأشياء التى يرد عليها الحق .. بمعنى أنها محل ملكية الإنسان .... كما أن الإنسان يسأل عنها وعن تصرفاتها، فالحصان لا يتملك وإنما هو محل ملكية الإنسان الذى له أن يبيعه ويتصرف فيه، كما وأن الحصان إن أصاب شخصا فإن الإنسان هو الذى يسأل عن تعويض الضرر .

وباختصار فالإنسان هو صاحب الحق وما عداه من كائنات محلا لهذا الحق.

ونتيجة لذلك فقد نظر القانون فقط إلى الإنسان باعتباره الشخص المخاطب بأحكامه واعترف له بما يسمى بالشخصية القانونية.

والشخصية القانونية تبدأ مع الإنسان منذ ولادته حيا وتنتهى بالوفاة أى بمفارقة الروح للجسد .. ولها خصائص تميزها من اسم وموطن وجنسية وأهلية وذمة مالية .... الخ، وكلها بهدف تحديد الإنسان تحديداً ذاتيا خاصا بحيث لا يختلط فرد بآخر .. بل لكل مميزاته التى ينفرد بها والتى تتكون منها فى النهاية شخصيته القانونية.

وبمقارنة ما يجرى فى الواقع القانونى الذى وضعوه بأنفسهم بذلك الذى يجرى فى الواقع الدينى المنزل من السماء نجد الكثير من التماثل بحيث لا يصير غريبا عليهم ما يقول به الدين.

فالإنسان فى الواقع الدينى هو الكائن الوحيد الذى يتمتع بالعقل والإدراك والإرادة، ومن ثم فهو الكائن الوحيد المخاطب بأحكام الدين سواء ما كان منها متعلقا بأحكام العبادات أو تلك الخاصة بأحكام المعاملات، أما غيره من الكائنات الأخرى فهى مسخرة له بحيث يكون له أن يتملكها أو ينتفع بها.

وكما بينا سلفا أن الإنسان لا تتماثل أحاده وإنما لكل خصائصه الذاتية وشخصيته المستقلة، لذا فإن الدين وهو يخاطب الإنسان قد عين كل واحد منهم بنفسه أو بمعنى آخر خص كل منهم بنفس .... شأن القانون حينما خص كل فرد بشخصية.

وعلى ذلك فإن الشخصية فى القانون هى المرادفة للنفس فيما يتعلق بالدين ، كل ما هناك أن النفس قد يتسع مفهومها فى الدين أكثر مما للشخصية فى القانون، وهذا بداهة لاختلاف الدور المنوط بكل منهما.

ونحن فيما يلى نعرض لمفهوم الشخصية فى القانون والنفس فى الدين، ثم نعرض بعد ذلك لقيادة النفس لمسيرتها فى الدين ومقارنتها بالشخصية فى القانون.

١ - مفهوم الشخصية فى القانون والنفس فى الدين

١ - **الشخصية فى المفهوم القانونى:** تقتصر على قدرة الإنسان على اكتساب الحقوق والتحمل بالالتزامات، ذلك أن القانون يخاطبه من منظور واحد وهو تنظيم علاقاته مع غيره من الأفراد أو الدولة التى ينتمى إليها.. ومن ثم فهو يبين حقوقه والتزاماته تجاه هؤلاء الأفراد أو تلك الدولة .

والشخصية القانونية يكتمل مفهومها بولادة الإنسان حيا أى بتزاوج الجسم مع الروح مبعث الحياة، ذلك أن الجسم بدون الروح جثة تأخذ حكم الأشياء، والروح بدون الجسم معنى ليس له مدلول قانونى .. هذا ولا يعتد بتصرفات الشخص القانونى، إلا إذا توافرت لديه إرادة التصرف، أى بمعنى أصبح توافر لديه الإدراك والتمييز، الذى يكفى لأن يعقل تصرفه بدءا من مرحلة تصوره ثم انعقاد العزم على أدائه ثم مرحلة تنفيذه، فإذا لم تتوافر هذه الإرادة فلا يكون لتصرفه أثر قانونى ويعتبر باطلا .

وهكذا نصل إلى أن الشخصية القانونية هى حاصل تفاعل وتزاوج الجسم الإنسانى بالروح مبعث الحياة فيه، وفى مجال الالتزامات

والتصرفات فإنه يلزمها الإرادة والإدراك حتى يعتد بهذه التصرفات ويكون لها أثر قانونى.

٢ - أما النفس فى المفهوم الدينى، فيتسع دورها، إذ هى بالإضافة إلى ما تلتزم به من التزامات تجاه غيرها، فإن عليها التزامات تجاه نفسها وخالقها على النحو الذى حددته الديانات.

وهذه الالتزامات الأخيرة لا تتأتى إلا بدراسة رأسية (تحليلية تأصيلية) لأغوار هذه النفس وباطنها، نتعرف من خلالها على بيان كيف تخطط وتقرر .... فى حين أن دراسة الشخصية فى القانون - حيث تعامل الشخص مع الآخرين - لا تتطلب أكثر من مجرد دراسة أفقية للشخصية، تتناول فقط خصائصها من اسم وموطن وجنسية وذمة مالية .... الخ.

وفى إطار هذه الدراسة الرأسية التحليلية لاغوار النفس ، فإننا نجد أن اهم ما اختص به الخالق النفس الإنسانية هى تلك النفخة الروحية التى زودته بالذات المستقلة المختارة (على نحو ما بينا سلفا).

وقد أدى هذا من الناحية العملية التطبيقية إلى اختلاط مدلول النفس الإنسانية بتلك الذات الخاصة بكل إنسان : هذه النفس التى تميزه على غيره من الآخرين ، بتلك الذات التى يشعر بها الإنسان داخل نفسه على أنها ضمير المتكلم فيه وهو الأنا .... نعم يشعر بها شعور اليقين ولكن لا يدركها بأى حس أو منطق .. إنها فى عمق الأعماق فى داخله ولكنها بعيدة .. بعيدة عن متناوله .... إعجاز والله ما بعده إعجاز .. ولكنها القدرة الإلهية .... فهل من مدكر ؟

وهكذا يمكن تحليل النفس فى الدين على أن لها :

أ - **امتدادا رأسيا حيث بحث ما يدور داخلها** وهى تلتقى وتختلط بالذات التى يشعر بها الإنسان فى اعماقه على أنها ضمير المتكلم فيه " الأنا " وهى التى تخطط وتقرر.

ب - **امتدادا افقيا حيث التعامل مع الاخرين** (حيث التنفيذ)، وهنا تختلط بالشخصية القانونية التى تتكون من تفاعل الروح والجسد ... والإرادة فى مجال الالتزامات . والتى تتميز بالاسم والأهلية والحالة والذمة .

وحتى لا نشتت الموضوع - فيصعب على البعض - ونفرق بين ما يدور داخل النفس حيث الدراسة الرأسية وما يدور على صعيد التعامل مع الآخرين حيث الدراسة الأفقية **فإنا نكتفى فقط بتعريف النفس بمنطق الواقع الفعلى على أنها هى الذات الإنسانية التى تخطط بما يتوافر للإنسان من قدرات عقلية، والتى تقرر بما يتوافر فى الإنسان من إرادة، وتنفذ بما يتوافر فى الإنسان من جسد حى .... فهى حاصل التفاعل بين هذه المكونات الثلاث.**

ولتقريب الفكرة لأذهانهم - التى سيطرت عليها الآلة - يمكن اعتبار النفس - فى الإطار الخاص - هى الطيار بالنسبة للطائرة .. والربان بالنسبة للسفينة.. والقائد بالنسبة للسيارة .... وهكذا.

فالطائرة لا تقطع مسافة فى الفضاء إلا إذا كان هناك مركبة أعدت باتقان لارتياد الفضاء، وكانت مزودة بطاقة محركة تكفل لها السير لفترة

من الزمان، ثم يأتي دور الطيار الذى ينعقد عليه قيادة الطائرة المزودة بوسائل التحكم : إن فى حرص وحذر حيث يصل بها سالما إلى بر الأمان.. وإن فى رعونه وتسرع حيث يضل الطريق أو تنفجر وتصير حطاما.

وهكذا الإنسان لا يقطع مسافة فى مسيرة الحياة، إلا إذا كان هناك جسد معدا لتحمل المسيرة، وكان مزودا بطاقة روحية تكسبه الحياة والحركة والإحساس، وطاقة عقلية حتى يتحكم فى المسيرة، ثم يأتى دور الذات التى تقود هذه المسيرة ان فى طريق الخير والبر حيث الأمن والأمان، وان فى طريق الشر والعدوان حيث الخوف والفزع .

وكما وأن الطائرة لا تستطيع أن تقطع أية مسافة إلا بتضافر العوامل الثلاث : المركبة والطاقة المحركة، والطيار، فإن الإنسان بدوره لا يستطيع أن يسير خطوة فى هذا الوجود إلا بتضافر جهازة البدنى، وطاقته الروحية المحركة وفى النهاية ذاته التى تقود المسيرة. فكأن نفسه فى إطارها العام هى حاصل تفاعل هذه العوامل الثلاث.

٢ – قيادة النفس لمسيرتها
ومقارنتها بالشخصية فى القانون

وحتى تقود النفس هذه المسيرة – أى وضع البرنامج الخاص بالإنسان – فإنه يلزمها أن تمر بمرحلة التدبر والتفكير (التخطيط) ثم العزم والإصرار (اتخاذ القرار) وفى النهاية مرحلة التنفيذ ، وسوف نشير

ونقارن بين هذه المسيرة وبين مسيرة الشخص القانونى فى هـذه المراحل الثلاث.

أولا – مرحلة التفكير والتدبير (التخطيط) :

أ – على صعيد النفس فى الدين

بينـا أن النفس عليهـا أن تنظـر فـى الخلق لتتعـرف علـى الخـالق فتخلص له العبادة، ثم عليها أن تتوغل فى أعماقها فتقوم بمغالبة شـهواتها، وفـى النهايـة تلتقـى بسـميها فـى دنيـا المصـالح الخاصـة فتتعـامل معـه بالحسنى، وقد انعقد عليها وهو الأهم أن تقود مسيرة الإنسان فى الوجود.

ومن أجل ذلك فقد زود الخـالق الإنسـان بكـل المقومـات والمكنـات وأيضا وضع أمامه العقبات والمعوقات، حتى يتسنى لـه من خلال ذاته أو نفسه اختيار السبيل الذى يرتضيه فـى مسيرة حياتـه فـى هـذا الوجـود، (طالما انعقد عليه اعداد برنامجـه باعتبـاره مـن قبيـل الروبـوت الذكـى، الذى يجب تزويده بكل الاساسيات (Data Basic) سواء الإيجـابى منهـا أو السلبى. وفيما يلى نعرض لهذه المكنات وأيضا المعوقات، وذلك على النحو التالى :

١ – المكنـــات :

أ – رسالات من السماء : تنطق بالحق يتعرف منها على خالقه فى آيات خلقه التى وسعت كل شىء ، ومنها يتفهم حقيقـة العلاقـة بينـه وبيـن الشيطان فى قضية الصراع بين الخير والشر فى مرحلة هذا الوجود الذى نعيشه .. منها يدرك حقيقة نفسه وكيف يقومها .. منها يقف علـى قواعـد

وأصوليات التعامل مع الآخرين من بنى جنسه .... كل ذلك فى إطار من آيات بينات: سواء ما كان منها للذكر أو ما كان منها لأمور العبادة أو ما كان منها متعلقا بقواعد المعاملة.

ب - **طاقات عقلية** : خصه الخالق بها مع نفخة الروح الإلهية لتكون سلاحه فى معترك الحياة التى يعيشها وسبيله إلى الحياة المقبلة ... إذ الثابت علميا أن كل المخلوقات أيا كان صورتها تختلف قدراتها وأسلحتها من كائن إلى آخر: فهى قد تكون الأنياب والمخالب بالنسبة للكاسر من الحيوان، وقد يكون زيادة التكاثر وفرط السرعة وخفة الحركة بالنسبة للفرائس منها، كما قد يكون صغر الحجم للحد الذى لا يرى بالعين المجردة كالميكروبات والفيروسات ، كما قد يكون ضخامة الحجم للحد الذى يستعصى مواجهتها كالعمالقة من المخلوقات، وقد تكون التخفى كما هو الثابت فى عالم الجان .... الخ.

أما الإنسان فهو الكائن الوحيد المجرد من كل هذه الأسلحة المألوفة حيث يمكن لأى فأر أن يسبقه ولأى ميكروب أن يصرعه ولأى طير أن ينهشه، إلا أن الخالق قد زوده فى الواقع بأمضى وأقوى سلاح فى هذا الوجود، **وهو تلك الطاقات العقلية التى اختصه بها فجعله يسود على بقية الكائنات بلا منازع.** فنجده وقد تفوق على كل أنواع الأسلحة الأخرى حيث إتخذ من تلك الأنياب المرعبة للحيوان حليا وزينة .. وسابق سرعة الطير فى الجو .. وتعاظم على قوة عمالقة المخلوقات بمخترعاته الجبارة التى تجوب الأرض .... الخ .

وهذه الطاقات العقلية قابلة للزيادة المستمرة حيث أن حلقات الفهم دائما تتواصل صعودا، فما من حلقة وإلا وبعدها حلقة وهكذا .. المهم هو

اعمال الفكر والتدبر، وبعدها ينطلق العنان لقوة جبارة وطاقة عظمى هي طاقة العقل.

ج - **طاقات نورانية** : تزاوجت مع نفخة الروح حيث كانت الضمير الحى الذى تكاملت فيه كل معانى الخير من رحمة وعدل واحسان .. نعم طاقات نورانية فاضت عليه من قدس الأقداس وهو النور الإلهى، فكانت القيد الروحى على كل تصرف يخالف مقتضاها .. ذلك أن كل تصرف يجافيها يظلم هذه الطاقة النورانية شيئا فشيئا حتى يغشاها فى النهاية السواد والعتامة، وكل تصرف يسايرها يزيد الطاقة النورانية شيئا فشيئا حتى تصير قبسا من نور علوى. ولايجد فى النهاية إنسان تنفعه الذكرى إلا تقوية هذه الطاقة النورانية، ليجد له من بين يديه ومن خلفه نورا يسعى فيه، فيكون مشعا بالخير من داخله ويصير وضاحا بين الخلق.

ولتقوية هذه الطاقة النورانية لابد أن يكون الإنسان صافى السريرة، حتى تنفذ هذه الطاقة إلى عمق داخله، وأن يكون عمله على محاور العلاقات الثلاث (بينه وبين ربه ونفسه والآخرين) حتى يحيط به النور من كل جانب.

٢ - العقبات :

أ - **غرائز وشهوات** : الإنسان بطبيعة خلقه من تراب الأرض، يشارك غيره من الكائنات الحية التى تدانيه فى الخلق كالحيوان، فى أن له ذات الغرائز التى تسيطر على تصرفاته باعتبارها من أهم متطلبات الجسد .. ومن هذه الغرائز مثلا الغريزة الجنسية التى تجتاحه ، ومنها

غريزة حب البقاء حتى ولو اضطره الأمر إلى الإطاحة بغيره، ومنها غريزة الجوع والعطش والأمومة....الخ. وهذه وتلك تفرض نفسها بحيث يصعب التحكم فيها أو السيطرة عليها إلا بصعوبة بالغة ولمدى معين.

وهناك العديد من الشهوات التي جبل عليها الإنسان بحيث يجد نفسه فى النهاية أثيرها ومن ذلك مثلا شهوة الإنتقام والتملك وحب الذات والاستئثار بما عند الآخرين .... الخ.

ب - **وسوسة الشيطان** : نلاحظ جميعا فى واقع حياتنا، أن ما من أمر، يحتاج منا إلى إتخاذ قرار، إلا ونجد من يوحى الينا باتخاذ موقف يجافى الحق أو يتفق مع الهوى أو فيه حيدة عن الصواب، ويظل هذا الإيحاء يتردد ويتوالى المرة تلو المرة، ومع كل منها يجد من يبرره ويزينه له حتى يجد الإنسان نفسه وقد وقع فى المحظور وفات الأوان على الإمساك بزمام أمره، فتأخذه الحسرة على مافرط .

وهذا الموقف الذى نلاحظة والذى يتكرر معنا فى كل الأوقات ومعظم المواقف هو ما نطلق عليه وسوسة الشيطان. حتى نجد فى واقعنا من ينطق بها من العامة عندما يرتكب جرما كقتل أو سرقة إذ يقولها فى استسلام وحسرة لقد " ضحك على الشيطان ".

ويختلف اسلوب الشيطان وكيفية وسوسته للإنسان بإختلاف درجة نضج الإنسان، وما وصل إليه من علم، ودرجة انفعاله، ومدى حاجته .. وهكذا. المهم أنه يتحايل حتى يصل بالإنسان إلى انتهاج سبيله بصورة أو بأخرى، فى أقوى معركة فى الصراع بين الخير والشر.

ولا سبيل للوقوف فى وجه هذا السيل الجارف من وسوسة الشيطان أو الحد منها، إلا بإدراك حقيقة الصراع بينه وبين الإنسان، وتقوية الذات الإنسانية بالقيم الأصيلة والمعانى السامية، والإرادة القوية والتمسك بالمعتقدات الدينية والاستعاذة بالإله الخالق من مكر هذا الشيطان ووسوسته [1] . وبقدر نجاح الإنسان فى خوض هذه المعركة تكون درجة فلاحه وصلاحه والعكس صحيح.

وهكذا نصل فى النهاية إلى أن هناك عديدا من المكنات التى خص الله بها الإنسان كالرسالات السماوية والطاقة النورانية والعقلية بحكم تكوينه الروحى، وأيضا العديد من المعوقات التى منها الشهوات التى جبل الإنسان عليها بحكم تكوينه الجسدى .... وهناك عدوه اللدود وهو الشيطان الذى يصل إلى عمق وجدانه بما يوسوس له به.

وكل هذه المكنات والطاقات التى تدفع إلى طريق الخير والنور، وكل هذه العقبات التى تدفع إلى طريق الشر والضلال، تمثل شقى الرحا التى تجتاح النفس البشرية التى عليها أن توازن وتقدر وتترسم أى الطريقين تختار وعند أى مدى تقف.

وحسم هذه القضية يتطلب فى ذاته الكثير من المجاهدة التى دونها الجهاد فى الحروب .. إذ أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر كما يقولون :

---

[1] وفى ذلك يقول الحق " قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس " سورة الناس ، آية ١ - ٦.

حيث أن الميل لاتجاه الخير يتطلب :

إعمال الشرائع السماوية موضع التنفيذ فيكون نهجه الكتاب المنزل بكل ما ورد به من أحكام، كما يفرض أيضا تقوية الطاقات النورانية بحيث تصل مداها فتكشف له عن خبايا الكون الذى يعيشه والحياة المقبلة التى تنتظره فتقوى البصيرة ويمتد النظر وتنقشع الظلمة، كما يؤدى إلى تقوية الطاقات العقلية عن طريق تنمية الفكر وزيادة المعرفة وذلك بالتدبر فى آيات الكون وشئون الخلق .

كما يتطلب الحد من سيطرة الغرائز والشهوات التى تجتاح الإنسان بحكم تكوينه الجسدى، والوقوف فى مواجهة الشيطان ووسوسته بكل طاقاته النورانية والعقلانية والتعبدية فيقهره .. ذلك أن كيد الشيطان كان ضعيفا.

أما الميل لاتجاه الباطل والضلال فيتطلب النقيض مما هو مطلوب لطريق الخير.

والنفس أو الذات الإنسانية فى اختيارها لأى الطريقين قد تجنح لهذا تارة وللآخر تارة أخرى، المهم هى فى أى الطريقين قطعت مسافة وعند أى الدروب تقف:

فإن كانت وقفتها فى درب العلاقة بين الفرد وربه عند حد الإيمان واليقين فقد أشرق لها النور والهدى وفازت بالرضوان، وإن كان حد الإنكار والشرك فقد باءت بالخسران المبين بحيث لا ينفع لها عمل ولا شفاعة.

وإن كانت وقفتها فى درب العلاقة بين الفرد ونفسه فقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها.

وإن كانت فى درب العلاقة بين الفرد وغيره فتزداد المجاهدة حدة، إذ جبل الإنسان على الطمع وحب الذات والاستئثار بكل الخيرات، والانتقام الذى يصل لحد العدوان، ناهيك عما تتحكم فيه من الغرائز التى يتطلب إشباعها التصارع مع الغير. ويتطلب التحكم فى هذه الشهوات والغرائز وإحلال الاستئثار بالأثرة، والطمع بالكرم، والانتقام بالعفو والسماحة .... معاناة بالغة للنفس إذ تسير على غير هواها .

والملاحظ أن هذه المجاهدة قد لا تستغرق من فرد سوى لحظات أو دقائق معدودات إذ يكون قد درب نفسه وروضها سلفا على فعل الخيرات وقد يحتاج الأمر إلى أيام وشهور لمن كان فى بداية التجربة .... والأمر فى النهاية يتوقف على نوعية التصرف ومداه، إذ من الأمور ما هو دارج بحيث يتم بطريقة تلقائية ومنها ما يحتاج إلى وقفة طويلة .... وهكذا.

وهذه المجاهدة التى تدور داخل الإنسان، هى قدر النفس الإنسانية لأن الدين يركز عليها وتحتسب عنده فى الميزان. ذلك أن الدين كما يهتم بالظاهر فإنه يهتم بما يدور فى الباطن.

ب - على صعيد الشخصية فى القانون

أما القانون فلا يهتم بما يدور فى الباطن، إذ أنه فقط من علوم الظاهر، ومن ثم فما يدور داخل الشخصية القانونية ليس محل اعتباره وليس له من حساب فى نصوصه ... اللهم إلا إذا صدر تصرف خارجى ينبئ عنه.

أى أن النية بالنسبة للنفس فيما يتعلق بأمور الدين تختلف عنها فى القانون بالنسبة للشخص.

ذلك ان الدين يتوغل إلى داخل النفس فيتعرف على ما يدور فيها **وما انعقدت عليه النية والعزم** ، بينما الأمر بالنسبة للقانون قاصر **فقط على التصرفات الخارجية** ، حيث أنه لا يحيط بما يدور داخل النفس إلا بعد أن يظهر التصرف الخارجى، حيث يتعرف حينئذ على النية والقصد فيدخلها فى اعتباره .. وذلك فى إطار التصرفات التى تنظم علاقة الفرد بالآخرين، حيث يشترك الدين مع القانون.

كما وأن الدين يمتد إلى أعمال **تعتمد فقط على ما يدور داخل النفس.** ذلك أن منها ما يتعلق بعلاقة الفرد بربه وبنفسه، وهى أمور فى صلة خاصة بينه وبين الخالق وبينه وبين ذاته، ومن ثم فهى أمور داخلية محضة تعتمد على النفس وما يدور فيها. فحسن الظن بالله والإخلاص فى العبادة واليقين بقدره ، والاعتراف بالذنب ، وتطهير الذات ، ودرء الشبهات، ونبذ الشيطان ، والبعد عن المنكر والبغى، وطلب المغفرة وستر العيوب .. كلها أمور تدور داخل النفس .. وصلاحها بقدر صلاح النية وصدقها والعكس صحيح .... ومن ثم حق القول فى الدين " **بأن الأعمال بالنيات** ".

بينما القانون لا يهتم بكل هذه الأعمال السابقة، حيث أنه قاصر فى تنظيمه على تلك الأعمال التى تنظم علاقة الفرد بالآخرين.

ثانيا – مرحلة العزم والتصميم (إعمال الإرادة) :

أ – على صعيد النفس فى الدين

بعد أن تنتهى الذات الإنسانية – فى إطار كل المتناقضات التى تتكون منها – من التفكير والتدبير فيما هى مقدمة عليه من تصرف أو عمل ، وبعد استعراض كافة البدائل وبعد خوضها لتجربتها فى المجاهدة، فإنها تصل لمرحلة العزم والتصميم، أو ما نطلق عليه بلغة القانون مرحلة اتخاذ القرار أو انعقاد النية على التصرف.

وهذا التصرف الذى ينعقد العزم عليه، والذى يتم بمعرفة الذات أو النفس البشرية، هو الذى يميز الإنسان عن غيره من الكائنات، ذلك أن الإنسان هو وحده صاحب قراره وعنه يصدر الفعل، بينما كل الكائنات الأخرى لها برنامجها الموضوع سلفا، سواء تمثل فى الغريزة أو الفطرة أو غيره بحيث لا يصدر عنها إلا عمل فطرى أو غريزى أو بالأصح رد فعل. ومن ثم لا مجال للبحث عن النية والقصد بالنسبة لهذه الكائنات.

والواقع أن الإنسان قد تميز بقدرته على اتخاذ القرار لأنه وحده من بين الكائنات الذى يستقل بإرادة ذاتية مستقلة، أو بمعنى أدق له قدر من المشيئة، تلتاها مع نفخة الروح الإلهية، فحق له بهذه المشيئة الذاتية أن يكون خليفة فى الأرض .

ويشترط فى هذه الإرادة حتى يعول عليها فى اتخاذ القرار أن تكون إرادة مميزة مدركة وأن تكون إرادة حرة مختارة.

والإرادة المدركة المميزة، هى تلك الإرادة الصادرة عن إنسان قطع مرحلة من العمر تمكنه من التمييز بين الصواب والخطأ، وألا يكون مصابا بعاهة عقلية تفقده القدرة على التمييز والإدراك كالجنون والعته.

والإرادة الحرة المختارة هى تلك الإرادة التى تتخذ قرارها وفق مشيئتها الذاتية فى رضائية كاملة ودون أن يشوبها عيب من عيوب الرضا كالغلط أو التدليس أو الإكراه أو الاستغلال .. أما لو اعتراها احد هذه العيوب فإنه لا يعول عليها ولا أثر لها ... وثم فتصرف المكره لا يعتد به.

ب – على صعيد الشخصية فى القانون

ويشترك الدين مع القانون فى وجوب أن تكون الإرادة التى يعول عليها فى القيام بالعمل أو إبرام التصرف القانونى، إرادة صحيحة أى صادرة عن شخص مدرك وعاقل، وأن تكون إرادة حرة، بمعنى أن تكون خالية من عيوب الرضا كالإكراه والغلط .... الخ.

ثالثا – مرحلة التنفيذ :

وهى مرحلة انتقال التصرف من حيز النفس .. أى الباطن إلى حيز الواقع أى الظاهر بحيث يلتقى بعلم الآخرين .

أ – التصرف الظاهر فى الدين

التصرف الظاهر بالنسبة للدين يتجاوز هذا المدى المعروف عنه فى القانون بكثير.

إذ أن الدين ينظر للتصرف الظاهر على أنه مجرد انعكاس مادى للتصرف الباطن .. بحيث يمكن للإنسان أن ينال تقدير تصرفه الباطن حتى ولو حالت ظروف دون ظهور هذا التصرف إلى حيز الوجود.

كما وأن الدين يطالب الإنسان بحسن أداء العمل أى النظر لأداء التصرف على اعتبار ما يجب أن يكون عليه هذا الأداء حتى ولو تجاوز ذلك ما يتطلبه القانون بكثير.

فالتصرف الظاهر مرحلة من مراحل التصرف الدينى الذى تتكامل حلقاته حتى يظهر إلى حيز الوجود. فالعمل الخارجى صدى لتصرف داخلى، والتصرف الداخلى وليد موازنات تدور داخل النفس بين نوازع الخير والشر.

ومن ثم فإذا تكامل للعمل الخارجى صدوره عن إرادة حرة مدركة وبعد موازنات بين عناصر الخير والشر، وانتهى إلى انتهاج سبيل الخير بعمل مادى ملموس، كان هذا هو التصرف الدينى المطلوب والذى عليه ينعقد الأجر.

أما إذا فقد العمل الخارجى أحد مراحله بأن كان صادرا عن غير إرادة كما لو كان رد فعل لحدث فجائى ألم به ، أو كانت الإرادة غير واعية أو غير مختارة، **فإن هذا العمل ليس محل التقدير الدينى.**

وقد يكون العمل الخارجى نتيجة لإرادة مدركة وواعية ولكنها صادرة عن موازنات بعيدة عن المفاضلة بين طريق الخالق وطريق

الشيطان، **فإن هذا العمل لما قدر له.** وبالتالى فإن القاعدة الأصولية فى هذا الشأن هى تلك التى وردت بالشريعة الخاتمة ، " إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ".

فإذا أضفنا أن الدين يتطلب نهوض الإنسان بأعمال جسمانية معينة تكمل شكل التصرف كالصلاة والصيام والحج وزيارة المريض والسعى فى الأرض طلبا للرزق، والهجرة إلى حيث مكان الوفرة .... الخ. وكلها أعمال تتطلب مجهودا جسمانيا (يتفاوت فى مداه باختلاف نوع العمل) ومن ثم يجب قهر البدن عليها .. وإلا لو ترك على هواه ما قام الإنسان بعمل منها .. بل وما هو أكثر كان اسير شهوات وغرائز هذا الجسم التى قد تفرض على الإنسان عملا مضادا.

ولذا فإن الأمر لا يقتصر على مجاهدة ما يدور فى النفس من تطاحن بين كل مقومات الخير ونوازع الشر، وانتهاج الحق بإرادة وعزم، وإنما أيضا مجاهدة كل العناصر السلبية فى هذا البدن من كسل وتراخ وتحكم الغرائز، واستبدالها بأخرى إيجابية من نشاط وهمة وتحكم فى الغرائز .... أى قهر الجسد على أن يكون أداة طيعة لتأدية الفرائض والعبادات وغيرها من الأعمال الصالحات.

والإنسان مسئول عن الحفاظ على الجهاز البدنى، باعتباره الأداة التى يحقق بها رسالته فى هذه الحياة.

ولكن بدون إفراط بمعنى ألا يصل الأمر لحد تقديس هذا الجسد، وجعل حركة الحياة كلها تدور فى فلك اسعاده وتحقيق الرفاهية له، سواء كان ذلك على مستوى الفرد أو على مستوى الدول.

وأيضا بدون تفريط بمعنى ألا يبعثر الإنسان طاقاته البدنية فيما لا طائل منه كتحقيق ملذاته وشهواته بإفراط مبالغ فيه، أو بتصرف فى بعض أجزاء منه – ككلية من كليتيه أثناء حياته – إذ أن هذا الجسد قد وهبك الخالق أياه لغاية قدرها، وهى عبور الإنسان مرحلة الوجود بهيكل يساير طبيعة الحياة فيه، حتى يحقق الدور الذى ارتضاه له الخالق.

وقد زود هذا الهيكل بكل وسائل الأمان الذاتية فيه، فجعل هناك ازدواج فى بعض الأعضاء رغم أن الحياة يمكن أن تسير بإحداها .. كالكلية والعين والأذن .. الخ . وهذا بهدف أن يكون شاغل الإنسان الدور الذى عليه أن يؤدية بكفاية وأمان من خلال هذا الإزدواج فى بعض الأعضاء. والتصرف فى واحدة من هذه الأعضاء وإن كانت لا تقضى على الإنسان، إلا أنها ستجعله مهددا ما بقى له من الحياة فتفقده عنصر الأمان، وهذا الخطر فى ذاته يصرفه عن أداء الدور المقدر له على النحو المطلوب، فيقع عليه مغبة تفريطه دينا فيما وهبه الله إياه من تكامل الجسد الذى وهبه إياه الخالق على سبيل عارية الاستعمال.

ومن ثم فالإنسان مطالب دينا بالحفاظ على بدنه واعطائه حقه " إن لبدنك عليك حقا "، وذلك حتى يتسنى له القيام بالعمل الظاهر على أكمل وجه.

ب – التصرف الظاهر فى القانون

التصرف الظاهر هو ما يعول عليه القانون فقط : فمن اعتزم القتل دون أن يقتل فلا جناح عليه من حيث القانون .. أما لو قتل – أى صدر التصرف الظاهر – فإن القانون يتدخل وهنا يتابع قصده ونيته حتى

إذا ما اسفر عن سوء القصد ونية القتل كان قتلا عمدا مع سبق الإصرار وقضى عليه بالإعدام، وإذا لم يتوافر القصد كان قتلا خطأ وقضى عليه بعقوبة أخف . أى أن القانون لا يتدخل من الأصل إلا إذا صدر التصرف الظاهر وبعدها يبحث عن النية والباعث لتكون عاملا مؤثرا فى تقدير العقوبة .

كما أن القانون لا يتدخل إلا إذا كان التصرف مخالفا لحكم من أحكامه، أما حسن أداء التصرف فإنه يخرج عن دائرة القانون.

وهكذا نصل فى النهاية :

إلى أن النفس التى ورد ذكرها فى الدين (فى مدلولها الخاص حيث الدراسة الرأسية) هى الذات الإنسانية التى يعبر عنها المتكلم بلفظ " **أنا** " على النحو الذى يستشعره كل فرد منا داخل أعماقه، دون أن يصل إلى إدراكه أو فهمه، شأن كل الأسرار الإلهية التى لا يحيط بها.

والنفس أو الذات أو الأنا – بهذا المدلول الخاص – كانت نصيب الإنسان فقط من بين كل الكائنات، حيث تميز بوضع خطته أو مسيرته عبر هذا الوجود بإرادته الذاتية وفكرة المستقل، أى استقل بوضع برنامجه الخاص. فى حين أن غيره من الكائنات أعد لها هذا البرنامج سلفا من الخالق.

والنفس أو الذات فى قيادتها لمسيرتها فى الحياة التى نعيشها، لها غطاء من جسم مادى من عناصر هذا الكون يكسبها التفاعل والتعايش مع بقية الكائنات والموجودات، كما وأن لها طاقتها المحركة وهى الروح التى تكسب هذا الجسم المادى الحياة والحركة والإحساس، وفى النهاية التسوية

والنفخة الإلهية التى أمدتها بالطاقات العقلية والنورانية فاكسبتها الإرادة الذاتية الواعية المختارة.

وبالتالى نجد النفس أو الذات الإنسانية (حسب الواقع العملى أو المدلول العام، حيث الدراسة الأفقية) تتكون من عناصر مختلفة تماما: منها ما هو من أعلى عليين، ومنها ما هو من تراب الأرض، ومنها ما هو من نفحات الذات الإلهية. كل ذلك فى إطار مزيج قدسى، يصب فى عمق أعماق الإنسان فيتملكه كيانا ووجدانا، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يميز نفسه بين أى من هذه العناصر، فما يصيب جسده يتألم له وجدانه وقد يزهق روحه .. وهكذا...

والنفس بهذا المفهوم الواقعى لها امتداد افقى، بمعنى أنها تتشابه مع الشخصية فى القانون من حيث أن لها اسما وأهلية وحالة .. وبالتالى ينعقد عليها العمل وتكون مناط الحساب وتوقيع الجزاء.

والنفس بهذه التركيبة العجيبة هى إعجاز ما بعده إعجاز .. إذ بقدر قربها من الإنسان بحيث تمثل ذاته والأنا فيه، بقدر بعدها عن فهمه وإدراكه .. وتلك آية من آيات القدرة الإلهية *"وفى انفسكم أفلا تبصرون"*[1] .

---

[1] سورة الزاريات ، آية ٢١.

المرحلة الثانية

﴿ مرحلة الموت ﴾

(طريق السفر)

خـط السيـر :

علـــى بدايـة الـدرب فـى هـذه المرحلـة التـى نجـــوب فيهـا عــالم المجهول بكل ما فيه ، وقف صديقى خائفا مترددا ومحاذرا ، وقد هاله مـا نحن مقدمون عليه ..

قلت له (معنفا) : لا تدعنى أقول لك كمن قال لصاحبه .. لـك هنـا ألا تصاحبنى وأهجرنى مليا.

قال : وما عذرى فى الوقوف ها هنا وقد جئتك سعيا ، بنـا نكمـل الطريق، فإنى لا أخافه ما دمنا سويا.

قلت : عسى أن يهدينا ربنا إنه كان بالمتوكلين حفيـا .. فتلـك وقفـة عند نزلة الموت نلاقيها، وأخرى إلى حيث الوجود فـى الـبرزخ، وأخـيرة نرقب فيها عذاب القبر ونعيمه .. ودعنا نطرق ما لهـذه وتلـك مـن أبـواب على النحو التالـــى :

البـاب الأول : المـــوت.
البـاب الثانى : الوجود فى البرزخ.
الباب الثالث : عذاب القبر ونعيمه.



البــاب الأول

المــــوت

بدأني محدثى القول : بأنه لا داعى للحديث عن الموت، ذلك أنه لم نقرأ عن إنسان مـر بتجربـة الموت وحدثنـا عنهـا، ثم أن المـوت مخيـف ومؤلم .. وما هو أكثر فإنه كريه على النفس – رغم أنه حقيقة – خاصـة بالنسبة لهؤلاء القوم الذى يهيمـون فقـط بـالحديث الطيـب الـذى يمـتزج برحيق الشراب اللذيذ.

قلت : وما سبق أن تكلمنـا عنـه مـن الغيبيـات عـن الـروح والنفس هل كـان عـن تجربـة قام بهـا الآخـرون ؟ انـه فقـط مجـرد تفسير علمـى ذاتى عن بعض الأمور التى نشاهدها أو نسمع عنها:

فإذا كنا قد تكلمنا عن الروح بأنها طاقة تبعث فينـا الحركـة والحيـاة فهى حقيقة نشاهدها، فما من كائن حى إلا وكـان يتمتـع بطاقـة تبعـث فيـه مظاهر الحياة من حركة وإحساس ونضـرة .. ومن ثم كان تفسيرنا لـلروح على أنها هذه الطاقة.

وما من شخص فينا، إلا ويشعر بداخله بذات تمـيزه عـن الآخريـن، وتقود مسيرته فى هذا الوجود بكامل بنيانه الجسدى والوجدانى عن إرادة وقصد .. ومن ثم كان تفسيرنا لهذه الحقيقة الوجدانية بأنها النفس.

واليـوم ونحـن نعـرض للمـوت، فلأنـه فقـط مجـرد ظـاهرة ملموسـة نشاهدها فى كل يوم.

ولذا فإننا نتناوله فقط بالتفسير العلمى الذاتى فى إطار ما نشاهده، وليس علينا أيضا من جناح أن نتناول ما نسمع عنه من غيبيات أخرى كالبرزخ وعذاب القبر .. طالما أن ما نبحثه هو مجرد تفسير علمى ذاتى عن أمور تبلغ حد اليقين الدينى .

ومعلوم علميا أن التفسير لا يغير من طبيعة الأمور والأشياء، وإنما هو فقط الذى يطرأ عليه الخطأ والصواب .. ومن ثم فإن قداسة الغيبيات ستظل بكامل جلالها حتى ولو أخطأ التفسير.

تحديـــد : تتعثر رؤيتنا الفكرية للموت – من هذا المنعطف البعيد– بحيث نكاد لا نرى منه إلا موضوعات باهتة واهية، ولكننا سنمعن النظر فيها عسى أن نتعرف عليها بشىء من الوضوح .. وهذه الموضوعات هى : حدث الموت ، خصائصه، طبيعته، قوانينه، الآثار المترتبة عليه .

أولا
حـــدث المـــوت

الموت واقعة وحدث نشاهده جميعا مع كل الكائنات الحية .. حيث نجد أن مظاهر الحياة من الحركة والحس والنضرة قد اختفت فى لحظة من هذا الكائن، رغم تكامل كل أعضائه وأجزائه ودون أن نجد له تفسيرا علميا فى الكثير من الأحيان .. بل وبالعكس ورغم كل المحاولات العلمية الممكنة لاستمرار هذه الحركة حتى ولو بالأجهزة الحديثة المتطورة، إلا أنها فى النهاية تكون قد اختفت. وبالتالى لا تجدى معها أية محاولة أيا كان نوعها أو مداها : ومن ذلك توصيل الأجهزة الصناعية

بالقلب لاستمرار حركته، بحسبان أن حركة القلب هى مصدر الحياة فى الجسم، إلا أن هذه الحركة الصناعية تستمر، ومع ذلك يكون الموت قد أدركه.

وحدث الموت يتناول جميع الكائنات من إنسان وحيوان ونبات وطير .. وباختصار كل كائن حى. فالموت هو وجه العملة المقابل للحياة.

والغريب أنه يصادف كل من هذه الكائنات فى أية مرحلة من مراحل حياتها . فهو قد يصادفها فى مرحلة ميلادها، وقد يعتريها فى مرحلة شبابها، وقد يأتى عليها فى مرحلة الشيخوخة. وقد يكون راجعا لمرض أصاب الجسم أو حادث ألم به، وقد يكون تلقائيا دون مقدمات .

فهو فى النهاية حدث واقع لا محالة ولا مجال لتجنبه أو تحاشيه، وما كل الأبحاث الطبية والمعملية المعاصرة إلا فى محاولة لدرء حدث الموت أو تأخيره .. ولكنها فى النهاية لم تسفر عن جديد ، إذ الموت واقع فى تحد بالغ لكل هذه المحاولات.

وليس هناك من تفسير لحدث الموت أكثر واقعية من ذلك الذى قال به الدين حينما اعتبر الموت هو مفارقة الروح للجسد، فى التوقيت والمناسبة التى قدرها الخالق لهذه المفارقة .... وحينئذ تختفى مظاهر الحياة من هذا الجسد، ويتوارى إلى حيث أصله من تراب الأرض.

وهذه الحقيقة الواقعة التى لا نملك لها تعديلا أو تبديلا ولو اجتمعنا لها، هى الحقيقة الدينية التى تناولتها الشريعة السماوية الخاتمة فى كثير من آياتها " *فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب*

*إليه منكم ولكن لا تبصـرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين"* [١]، *" أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة "* [٢]، *" إنك ميت وإنهم ميتون "* [٣] ، *" لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد "* [٤] ،*"كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور "* [٥] ، *" كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون "* [٦]، *" قل يتوفاكم ملك الموت الذى وُكِل بكم ثم إلى ربكم ترجعون "* [٧].

والموت بهذا المفهوم الدينى على أنه مفارقة الروح للجسد، لا يتأتى إلا إذا فسرنا الروح على أنها طاقة تبعث الحياة فى الكائن الحى إذا التقت بالجسد، وتعدم فيه الحياة بكل مظاهرها بمجرد مفارقتها له... وأن مصدر هذه الطاقة هو الأمر الإلهى الذى يقدر لهذه الطاقة متى تلتقى بالجسد ومتى تفارقه، وذلك بالنسبة لكل كائن، أيا كان حجمه أو نوعه أو زمانه أو مكانه .

والموت كحدث لا يقف عند مجرد مفارقة الروح للجسد، وإنما هو انتقال من عالم إلى عالم آخر، وبمعنى أصح هو طريق السفر الذى يفصل بين حياة الإنسان فى الدنيا وحياته المقبلة فى الأبدية.

---

(١) سورة الواقعة ، الآية ٨٣ – ٨٧.

(٢) سورة النساء ، آية ٧٨.

(٣) سورة الزمر ، آية ٣٠.

(٤) سورة ق ، آية ٢٢.

(٥) سورة آل عمران ، آية ١٨٥.

(٦) سورة الأنبياء ، آية ٣٥.

(٧) سورة السجدة ، آية ١١.

وسوف نتعرف على شواهد وعلامات هذا الطريق، من خلال التعرف على خصائص الموت وطبيعته وقوانينه، كما سيبين من سياق بحثنا للموت فى النقاط المقبلة.

ثانيا
خصائص الموت

يمكن تحديد خصائص الموت بحسب ظاهر الأمور على أنه حدث مخيف ومؤلم وبغيض، وذلك على النحو التالى :

١ - الموت حدث مخيف :

لا جدال أن الموت مخيف ومرعب، إذ كيف لأى منا وهو بين الأهل والرفاق يتنفس معهم نسيم الحياة، يتصور نفسه وهو يتوارى فى باطن الأرض حيث يكيل عليه الأحباب التراب، ليودعوه إلى الأبد، ويتركوه يلقى مصيره بلا شفيع ولا نصير.

إنها حقا لحظة الحسرة على ما تركه من مال وبنين، والفزع من الوحدة التى يلاقيها فى القبر، والرعب من السكون القاتل بين الأجداث فى حلكة الليل .. نعم إنها لحظة تقشعر من هولها الأبدان.

ومع ذلك فقد يتصور البعض منا فى الموت راحة من مرض ألم به، أو سبيلا للحاق بمن ودعه من الأحبة، أو لحظة اللقاء بالخالق.

وأيا ما كان تصور كل منا عن الموت، فالمحصلة فى النهاية أنه مخيف ومرعب. وربما يرجع السبب فى الحقيقة إلى أن الموت :

حدث مجهول، لم يحدثنا عن واقعة وما نصادفه فيه أحد مر به من قبل، وإنما هو غيب عنا. والخوف من المجهول هو أشد أنواع الخوف خاصة إذا تعلق الأمر بمصير الإنسان ونهايته.

والأدهى والأمر أنه ليس هناك من ظاهر الحال بالنسبة للموت إلا الدفن والقبر والصراخ والعويل والفرقة .... الخ. وهى أمور تجعل الولدان شيبا.

وإذا ما تجاوزنا مرحلة التصور عن الموت إلى حيث حقيقته العلمية لوجدنا :

أن الموت حدث بيولوجى يتعرض له الكائن الحى كأحد مراحل تطوره، إذ هو يقابل مرحلة بداية ميلاده وخلقه .. فكما أن الكائن قد خضع من قبل للميلاد كإيذان ببدء الحياة، فإنه يلاقى الموت كنذير بنهايتها .. والميلاد والموت كلاهما عملية بيولوجية تقتضيها مسيرة الكائن فى الحياة.

ثم أن ما يتصوره الإنسان عن الموت من مخاوف : بداية من دفنه فى باطن الأرض ، ومواراته بالتراب فى القبر، وتركه وحيدا يعانى الظلمة .... الخ، **إنما هو تصور من منطلق كائن مازالت تغمره الروح ويتنفس نسيم الحياة** .. أما وقد فارقته الروح وفقد الحياة والإحساس، فلم تعد ظلمة القبر تخيفه، ولا دفنه فى الأرض يفزعه، ولا مجاورته الأجداث يرهبه .... **ذلك أن الخوف من هذه وتلك هى من قوانين الحياة، والموت تحكمه قوانين أخرى مختلفة.**

٢ - الموت حدث مؤلم :

شاهدنا وسمعنا الكثير عما يعانيه الإنسان لحظة الموت من أوجاع وتأوهات وآلام، بحيث لا تنتهى هذه وتلك إلا لحظة مفارقة الروح للجسد، وكم يتدخل الطب فى الكثير من الحالات بالمسكنات لتخفيف تلك الأوجاع والآلام.

وإن كان البعض يرى أن هذه الأوجاع والآلام لا ترتبط بالموت نفسه، وإنما هى ترتبط بنوع المرض الذى يصيب الإنسان ومداه .. فهى أوجاع مصاحبة للمرض. فإذا كان المرض لا يصاحبه أوجاعا أو آلاما كالصدمة المفاجئة (السكتة القلبية أو جلطة المخ) فإن الإنسان لا يشعر بالآم الموت من الناحية البيولوجية إلا فى حدود هذه الصدمة المفاجئة.

ويحدثنا أهل الدين عن الموت ،فيقولون أن له سكرات مصداقا للآية الكريمة " *وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد* " [(١)] وهذه السكرات تعتصر الإنسان من الألم بحيث أن دعواهم "اللهم خفف عنا سكرات الموت" ، ذلك أن هذه السكرات يخف وقعها على من شملهم الخالق برحمته، وهى خلاف ذلك بالنسبة للعاصين المتكبرين.

والتفسير العلمى يكاد يساير ما ذهب إليه أهل الدين، ذلك أنه بالضرورة لابد أن يصاحب الموت آلامه، وخير تعبير عن هذه الآلام بالسكرات. وذلك بغض النظر عما يقوله البعض من أن هذه الآلام فى حقيقتها مصاحبة للمرض بحيث لو كان المرض لا يرتب مثل هذا الآلام

[(١)] سورة ق ، آية ١٩.

(كجلطة المخ أو الموت فى حادثة قضت عليه فى لحظة) فإن الإنسان لا يشعر بآلام الموت.

ويرجع ذلك إلى أن الموت فى ذاته هو فراق الروح عن الجسد وهى عملية ليست بيولوجية فقط كما يقولون، وإنما هى مسألة قدرية، بمعنى أنها تتجلى فيها القدرة الإلهية بنقل الإنسان من مرحلة الوجود إلى مرحلة ما بعده، تاركا من ورائه غطاءه الجسدى .... فهذه المرحلة هى مرحلة خلاص الروح من الجسد، ومن ثم فهى ترتبط بالإحساس الروحى بأكثر من إرتباطها بالإحساس الجسدى المعروف.

ومعلوم أن مرحلة الخلاص أو فك الاشتباك والتلاحم بين أى قطبين، يكونان شيئا واحدا كالذرة مثلا، جد عسيرة وتحتاج إلى مجاهدة متوالية على فترات.

ومن ثم فإن مرحلة خلاص الروح من الجسد، فى ذاتها لها آلامها المنفصلة عن آلام المرض، بحيث يمكن أن يلاقيها الإنسان حتى ولو مات فجأة، **ذلك لأنه يتعرض لسكرات الموت وآلامه فى مجال معنوى روحى أكثر مما يتعرض لها فى واقعه المادى.**

وإذا ما قسنا الموت على الولادة ، باعتبار أن كلا منهما يتعرض له الإنسان عندما يمر بمرحلة انتقال من طور إلى آخر عبر مسيرته فى الأبدية، بما يتبع هذا الإنتقال من خلاص خلق من خلق، لأمكن تصور وجود آلام للموت قياسا على آلام الوضع وإن اختلفت فى نوعها ومداها.

وربما تكون آلام الموت التى نلاقيها من بعد أخف من آلام الوضع

التى مررنا بها من قبل .. وحتى ولو لم تكن أقل فلا اعتقد أن أحدا منا يفضل أن يترك الحياة من ذلك الباب الذى دخل منه، فلا أتصور إنسانا يختار لنفسه رجعة إلى الوراء بحيث يعادوه شبابه فى لحظات، ثم يتبعه مسيرة نحو الصبا والطفولة السريعة، ثم تعاوده آلام الوضع ليكمن فى رحم أمه حيث يصل إلى مضغة ثم علقة ثم حيوان منوى .... الخ.

وعموما فقد هون علينا الخالق آلام الموت وسكراته بمجرد تدريب عملى وواقعى، وهو مجرد إيمانك بالموت، وتحسبك له، والاعداد لملاقاته فى أية لحظة.

حقا إن الإيمان بالموت على هذا النحو يدفع إلى الإيمان بالخالق والإيمان بالآخرة والحساب والتزام النهج الدينى .... الخ. وهى أمور لها أثرها الدينى عند الموت على نحو ما سيبين بعد، إلا إنها فى ذاتها كافية للتهوين من وقع الموت وآلامه.

وأذكر أنى قرأت عن إحدى الطرق الصوفية أن هناك تدريبا يقومون به، مفاده أن يتصور المريد، بعد أن يكون قد عزل نفسه فى مكان مظلم وساكن تماما لمدة نصف ساعة على الأقل - أن لحظة الموت قد أزفت، ويتابع فى تصوره الأحداث التى تليها من صراخ الأهل، وفشل محاولة النجدة والإنقاذ، ثم الفراق وما يتبعه من إجراءات حتى دخول القبر.. وانصراف الأهل .... الخ. المهم ألا يترك فى تصوره صورة أو حدثا يمكن أن يحدث حتى ولو كان بسيطا .... ثم تبدأ عملية الحساب بحضور الملكين، واستعراض ما فعله فى يومه من تصرفات وأفعال أيا كان حجمها أو نوعها أو مداها .. وهكذا.

والحقيقة أنى مارست هذه التجربة بنفسى لسنوات، كانت بدايتها منتهى القتامة والسواد، وأنا استعرض لحظات الموت واعيشها . . ثم بدأ بالوقت يخف وقعها . . حتى إنى فى النهاية كنت اجدها - من فرط ما عشتها - لحظة انتظرها فى يومى قبل النوم، بحيث تفوتنى لو لم اعيشها . . . . كمهدئ للأعصاب ليحل بعدها نوم عميق .

واعتقد أن معايشة لحظات الموت فى وجدان الإنسان واستحضاره لها لفترات، يخفف إلى حد كبير من تلك الآلام الحسية التى تصاحب الموت .. **ذلك أنى اتصور أن هذه الآلام أغلبها يتركز فى عنصر المفاجأة والمباغتة التى يجد الإنسان أنها قد حلت به، دون أن يعد لها العدة، فيجد نفسه وقد دقت من حوله كل الأجراس فى لحظة واحدة :** فارق الدنيا التى استحوذت على كل فكره وعقله ووجدانه بحيث يصعب اقتلاع جذوره منها .. كيف تنزع منه ماله الذى جمع.. وسلطانه الذى قاتل من أجله .. وولده الذى نشأه وزوجته التى أحبها !! كيف تلقى به فى هذا المجهول الرهيب الذى لا يعرف عن كنهه شيئا !! حقا إنه شيء مؤلم مؤلم إذا لم يكن الإنسان قد أعد له نفسه سلفا.... ولكنه على أية حال قدرنا .. **فهل من مدكر ؟.**

٣ - الموت حدث بغيض :

يكاد محدثى لا يتجاوز الحقيقة حينما يقول أن الموت حدث بغيض .... خاصة لمن ينقل عنهم القول .. ولكن علينا أن نبحث ذلك بالمنطق العلمى المجرد، فنقول إن الحكم على شيء بالبغض أو الكره أو الحب إنما يتم فى إطار نسبى محض، بمعنى أن ما قد يكون بغيضا لشخص قد يكون محبوبا لآخر. فإذا كانوا قد خلعوا على الموت البغض والكره فهذا شأنهم ، ولغيرهم أن يحبوه ولا جناح .... والحق أن لكل أسبابه :

أ - **فعند من ينظر إلى الموت على أنه الفناء والعدم،** فهو كريه وبغيض للدرجة التى تصيب الإنسان بالكآبة والظلمة طيلة حياته فى هذه الدنيا .. إذ كيف تمر على النفس اشراقة والإنسان يعلم أن هذا الوجدان الذى بداخله ، بكل مقوماته الحسية والذاتية تفنى مع هذا الجسد لتصير حفنة من تراب هذه الأرض !! كيف ينمى فى نفسه الإحساس بالحب وهو يعلم أن الحب قيمة راقية وخالدة لا مجال لها فى دنيا الملذات المبتذلة !! كيف يرعى القول وهو يعلم أن صداه يطويه النسيان !! كيف يحافظ على ود وهو يدرك أن هذا الود مقطوع بالموت !!

إن القيم جميعها عنده لا مجال لها إلا بالقدر المفروض عليه فى المجتمع الذى يعيشه، ومن ثم فهو ينهل من ملذاته بقدر ما يستطيع ويهوى، قبل أن يدركه الفناء والعدم. فهو إنسان بوهيمى.... أجوف من كل المعانى والقيم .... يجد ذاته فى ملذاته التى يقتنصها فى هذه الحياة الموقوتة التى يعيشها، والتى يطويها بعد فترة محدودة النسيان إلى أبد الآبدين، حيث رقدة لا قيام بعدها.

والحق أن هذا الفكر مجافى لطبيعة الذات البشرية، إذ أن الإنسان بطبعه فى داخله بصمة الخلود التى يحسها بوجدانه دون أن يدركها بعقله، ومن ثم فأى فكر يحاول أن يقضى على هذه البصمة فيه تقاومه طبيعته الإنسانية بانكارها واستهجانها - بديهى إلا من كان على عقله غشاوة، إذ أنه بدلا من أن يقاومها بإنكارها واستهجانها، فإنه يقاومها بالإفراط فى الملذات وشهوات الدنيا فى محاولة لتجنبها - ويكون كرهه الذى لا يعادله للموت الذى يضع حدا لنعيم هذه الملذات الدنيوية .. ولكن ويحه، فما يجرى ويسعى إلا وراء سراب زائل.

ب – وعند من ينظر إلى الموت على أنه إنتقال من حياة إلى حياة، فإن كرهه وبغضه للموت يقل ويقل بحسب درجة يقينه بهذه الحقيقة الإيمانية عن الموت، حتى إذا ما وصل اليقين عن الموت مداه تبدل كره الإنسان للموت إلى حب باللقاء. وانتظر لحظته بفرحة غامرة .

فكان الأمر مناطه فى النهاية هو فى درجة إيمان الفرد ويقينه بأن وراء الموت حياة أخرى أفضل، وإله صادق الوعد عن الآخرة ونعيمها، وأن أول منازل هذه الحياة الأبدية المرتقبة هو الموت، عندها يكون التعلق بهذه اللحظة – التى عاش من أجلها وسعى لها سعيها وأحسن العمل بقدر صلاح إيمانه – هو هدفه ومراده فيتقبلها بشغف ويدركها بحب ويستقبلها بفرحة.

ثالثـــا

طبيعة المـوت

خير ما نتعرف به على طبيعة الموت هو ما جاء عنها بالأديان، إذ لا يعنى الموت العدم والفناء.

وإنما الفكر الدينى مستقر – كما ورد فى الرسالة الخاتمة (التقنين الإلهى الخاتم) على أن :

١ – الموت خلق شأن الحياة تماما .... " ***الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا*** " [1] ومفاد أن الموت خلق يتعارض مع النظر على أنه عدم وفناء .... إذ الخلق عكس العدم .

---

[1] سورة الملك : آية ٢.

٢ - الموت مرحلة من مراحل الأبدية، وفى ذلك ورد التقنين الإلهى الجامع *" الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم "* [1] .

ويترتب على أن الموت خلق وأنه مرحلة من مراحل الأبدية ضرورة البحث عن تحديد طبيعة عالم الموت.

ويمكن بالتحليل العلمى القائم على المنطق وسياق الأمور، التكهن بطبيعة عالم الموت على أنه عالم نورانى، كما وأنه عالم الحقيقة، وفى النهاية عالم السكينة ، وبيان ذلك :

١ - الموت وجود فى عالم نورانى

يعنى الموت بالنسبة للأحياء فى الحياة الدنيا مفارقة الروح للجسد، ومن ثم فما يتبقى من الإنسان فى هذه الحياة إلا جثمان يتحلل ويصير من تراب الأرض يتوارى فى ظلمة القبر، **وبتالى يعنى عندنا الفناء والعدم بحسب الظاهر من طبيعة الأشياء.**

ولكنه يعنى بالنسبة لمرحلة الموت ذاتها ميلاد جديد يساير كنه هذه المرحلة أو بمعنى أصح العالم الآخر الذى انتقل إليه.

هذا العالم الآخر لم نحط بواقعه حيث لم يصلنا منه شاهد عليه يدلنا على حقيقة كنهه على وجه القطع واليقين .... وإن كان لى فى هذا المقام، رؤيا منامية لا أذكر منها إلا أنى وجدت نفسى أمر بسرعة مذهلة داخل سرداب طويل،

---

[1] سورة الروم : آية ٤٠.

سرعان ما بدت طلائع من نور أخذت تزداد وتزداد حتى صارت خضما وتراكمات من نور تتميز بالزرقة والصفاء، دونها كل ما شاهدته في يقظتي من ضياء .

واستيقظت وأنا أقول في نفسي هناك أفضل من هنا بكثير فلما الخوف من الموت . أما ما دار هناك فلم أتذكر منه شيئا رغم إحساسي بأنه دار هناك الكثير.

والغريب أني قرأت في العديد من المجلات عن بعض هؤلاء الذين تعرضوا لبعض حالات الموت المؤقت، حيث عاودتهم بعد ذلك الحياة، وكان يحكي كل منهم تجربته التي تبدأ بالمرور سريعا داخل امبوبة طويلة تنتهي بهذا النور، ليجد نفسه وقد انفصل عن جسده ليراه مسجا على الأرض، بينما هو طليق يتحرك في كل اتجاه .... الخ، وقبل أن يبتلعه النور .. يجد نفسه يعادو الحياة مرة ثانية .

ولن نخوض في معرفة واقع هذا العالم وكنهه على وجه القطع حيث أن رحلتنا رحلة فكرية تقوم على التصور، وليست رحلة وصفية تقوم على المشاهدة الفعلية.

ويقودنا التصور ومنطق الأمور إلى أن نرقى بفكرنا إلى حد المقام الذي نتناوله : فإذا كنا نتكلم عن الملكوت بمراحله مرورا بمرحلة الوجود الذي نعايشه (الحياة الدنيا) ثم الموت ثم الحياة الآخرة التي نؤول إليها، فإننا نجد أن الموت فاصل بين حياتين : الحياة الدنيا والحياة الآخرة .

وإذ كان قد ورد الذكر تفصيلا عن هاتين الحياتين .. من حيث طبيعتهما وخصائصهما والدور الذي يحتله الإنسان فيهما .. ولم يرد ذكر عن طبيعة مرحلة الموت وخصائصها وإنما هي رقدة للإنسان.

فليس معنى ذلك أنه ليس هناك مقومات خاصة لهذه المرحلة أو ما نطلق عليه تجاوزا عالم الموت، وإنما الصحيح أن هذه المرحلة تخضع لحكم الأصل فى التكوين (السابق على وجود هاتين الحياتين ... واللاحق لهما .... وبالأولى الفاصل بينهما) وهو النور العلوى الذى يعم أرجاء الملكوت.

وهذا الأصل يستمد سنده من هذا التقرير الإلهى الذى لا يقبل مجادلة وهو أن " *الله نور السموات والأرض* " إذ النور الإلهى - بداهة - سيعم الوجود وما قبله، وما بعده بحكم أن الخالق سابق ولاحق فى الوجود على الخلق.

ويمكن تصور ذلك إذا ما افترضنا أن الحياتين الدنيا والأخرة وغيرهما من الحيوات ، إنما هى جزر فى محيط - لا أول له ولا آخر - من النور، إذ التحديد سينصرف إلى طبيعة هذه الجزر أما الفواصل بينها فإنها بالطبيعة مغمورة بهذا النور الإلهى الذى يعم أرجاء هذا المحيط.

وهكذا نرى أنه يلزم لتحديد طبيعة مرحلة الموت أن نتعرف بشىء من الإيجاز عن هذا النور العلوى :

١ - هذا النور ليس من قبيل الضوء الذى نراه - فى حياتنا الدنيا - منبعثا عن مصباح أو نجم أو شمس من الشموس ويسير فى الفضاء، وإنما هو تراكمات وتراكمات وطبقات وطبقات يملأ أرجاء الملكوت .. خير تصوير لها " *نور على نور* " [1] بحيث يكاد يبتلع

---

[1] سورة النور : آية ٣٥

كل من يداخله .. كما صور ذلك العائدون من موت مؤقت إن صدق حدثهم.

وليس هذا التصوير بغريب على واقعنا - وإن كان القياس مع الفارق - إذ نجد فى السماء ما يسمى بالثقب الأسود وهو ما يتخلف عن نجم عملاق اندثر حتى زادت قوة جذبه لدرجة أنه يجذب الضور الذى ينبعث منه إلى حيث داخله، وكذا كل الأجرام التى تدخل منطقة جذبه. وفيه كما قال علماء الفلك ينعدم حاجزى الزمان والمكان.

٢ - **كما وأن هذا النور له من خصائص التكوين ، ما يمكن أن تخلق منه مخلوقات نورانية رفيعة القدر كالملائكة وغيرها،** لها من الطاقة والقوة ما يمكن أن تعادل ملايين الملايين من تلك الطاقة التى تحظى بها المخلوقات ذات الطبيعة المادية.

وليس هذا بغريب - والقياس هنا مع الفارق - إذ ما تصورنا أن العلم وقد قادنا فى أحدث نظرياته أن نواة الذرة التى منها تتشكل كافة التكوينات المادية إنما هى فى حقيقتها حزم من الضوء تجمعت وشكلت هذه النواة .

فإذا كان الضوء الذى لا يرى إلا بالبصر له كل هذا القدر فى حياتنا المادية، فما بالك بقدر النور.. فى ملكوت النور.. حيث الحقيقة.. حيث الملائكة .. حيث العرش .. حيث التجليات الإلهية .

ومن ثم نخلص إلى أن الموت تواجد فى عالم نورانى - حيث تلك الرحاب من النور الإلهى التى وسعت الخلق وما قبله وما بعده - ينعدم فيه قيدى الزمان والمكان، فى خلق جديد يناسبه ،لأجل يعلم الله مداه.

٢ - عـالم الحقيقـة

ويترتب على اعتبار الموت تواجد فى عالم نورانى هو الأصل وما الحياة الدنيا والحياة الاخرة إلا جزر فى محيطه، أن هذا الأصل هو عالم الحقيقة الذى يمتد فيه البصر ليكشف كل الحجب ... العالم الذى يرى فيه الإنسان ما يرى، ويمتد فيه البصر وقد ارتفع غطاؤه الذى كان يكبله فى الحياة الدنيا.

ومن ثم فالمنطق العلمى يجرنا إلى أن الإنسان سيواجه هناك بكل ما كان سترا عنه وغيبا فى الحياة الدنيا ... بحيث يمكن أن يلتقى بالأولين والآخرين فيرى أن الوعد والوعيد حق، وقد يرى فى ملكوت عالم النور من هم أهل النور وما أكثرهم فى علم الخالق، وربما يرى نفسه خلال مسيرته فى الأبدية : أين كان وإلى أين المصير، مما كان يحيره فى الحياة الدنيا. وأيضا ربما يرى قدر ضآلة حياته الدنيا وكيف أنها مرت بسرعة وخدعته .... إذ قد يراها على طول حياته فيها ساعة من نهار. وقد يراها بكل ما أمدته من جاه وسلطان كذبة كبرى خدعته . قد يبصر فيها مكانه فى الحياة الآخرة.

وفى تأكيد هذا المعنى ورد العديد من الآيات القرآنية الكريمة نذكر منها تلك التى تقرر أنه بالموت يرتفع عن الإنسان غطاؤه - والمقصود بداهة الجسم المادى - فيمتد بصره بقوة ما بعدها قوة ليرى أبعاد الملكوت العلوى، وفى ذلك ورد قول الحق " *فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد* " [1]، ولاحظ كلمة حديد بما تحمله من كل معانى الصلابة والقوة، وهى فى هذا المقام نفاذ البصر إلى أبعد مدى.

---

[1] سورة ق : أية ٢٢.

وتلك التى تقرر أن الإنسان بالموت يتحسس مكانه فى الآخرة " *فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنه نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصليه جحيم * إن هذا لهو حق اليقين* " [١] ، وأيضا التى تفصح عن أن الموت رجعة إلى الخالق جلا وعلا "*يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى * وادخلى جنتى* " [٢] وأيضا الآية الكريمة التى تقول " *كلا إذا بلغت التراقى * وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق*" [٣] وأيضا تلك التى تقرر أن الإنسان بالموت يكون قد دخل إلى حيث الحضرة الإلهية وفى ذلك تقول الآية الكريمة " *فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب أليه منكم ولكن لا تبصرون* " [٤] .

وأذكر من أقوال العارفين بالله، أن التقيت يوماً بأحدهم وقلت له ماذا عن الموت ؟ قال رجعة إلى دار الحق .. واستطرد يؤكد مقولته حين طلب منى الوقوف أمام مرآة كانت بالحجرة وقال لى ماذا ترى ؟ قلت أرانى فى المرآة ، قال ويصح أن تقول أرى صورتى .

وهكذا الدنيا يا ولدى قد ترى نفسك موجودا فعلا فيها فتستشعرها بكل جوارحك واحساسك وتملأ عليك وجدانك ويكون الموت هو الفناء

---

[١] سورة الواقعة :الآية ٨٨ – ٩٥.

[٢] سورة الفجر : الآية ٢٧ – ٣٠.

[٣] سورة القيامة : الآية من ٢٦ – ٣٠.

[٤] سورة الواقعة : آية ٨٣.

والعدم، وقد يكون ما تراه هو صورتك فيها وأما الوجود الفعلى فهو حيث الأصل حيث عالم الحقيقة، ويكون الموت حينئذ مجرد تأكيد لوجودك الحق.

وما نحن فى هذا الوجود الباطل إلا صور وظلال لا أصل لنا فيه ولا قرار، وبالموت ينقشع عنا هذا الظل حيث الصحوة الحقة فى عالم الحقيقة .. عالم النور . وفى النور ترى وترى وتدرك وتدرك حيث لاحجب ولا ظلال وإنما نور على نور.

والقليل منا من يدرك هذه الحقيقة الآن فيعايش وجوده هنا ويعيش عالمه هناك، والكثير منا يعيش حياة الظل ها هنا فيبهره النور بالموت فيقول ياليتها كانت القاضية.

والقليل منا أيضا من يفسح لبعض هذا النور أن ينفذ إلى عمق وجدانه فيعايش وجوده ها هنا مبصراً، ومنا من يسد الفرج أمام النور فيعيش حياته هنا فى ظلمة وسواد " ***ظلمات بعضها فوق بعض*** *إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور* " [1] .

وأذكر من أفعال العارفين بالله، أنى وجدت أحدهم وقد اتخذ من مسجد اقامه بين القبور مكانا لمعيشته فى الحياة، **فقلت أهلا بمن أدرك الحقيقة فعاشها قبل الرحيل** ... فسعى إليه نورها يغمره ويغمر الآلاف من مريديه ... فانقشعت به ظلمة النفوس من عتامة العيش داخل القصور، وأشرق به المكان الموحش ليقضى على سواد الليل بين القبور.

---

[1] سورة النور : آية ٤٠.

وعالم الحقيقة هذا نطوف به فى حياتنا مع كل غفوة من نعاس تغشانا فى صباح أو مساء، ولا نعود إلى عالم الظل الذى نعيشه إلا إذا استيقظنا من غفوتنا هذه .. **حيث يصحو الجسد**، فيطمس معالم النور فينا ويقضى على كل رؤية حقة لعالم الحقيقة هناك فلا ندرك أين كنا، وإنما فقط ما ندركه هو اننا انفصلنا عن عالمنا الذى نعايشه بالنوم ولم نعد إليه إلا مع اليقظة لنستأنف حياتنا هنا من جديد، وقد نسينا تماما ما كنا فيه وقت نومنا. والمقصود بالنوم هنا هو النوم العميق الذى يجاوز مرحلة الأحلام.

والمؤكد أن الموت هو انفصال بلا عودة أى هو انتقال كامل إلى عالم الحقيقة، وفقدان كامل للجسد الذى يتخلف بعد الرحيل، وتوقف كامل للحياة التى نعيشها، وظهور مطلق لما خفى من عالم الحقيقة وفى هذا تقول الآية الكريمة *" الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون "* [١] .

وهكذا ندرك أن عالم الحقيقة محيط بنا : فهو معنا فى عالم الظل الذى نعيشه – دون أن ندركه – بما يعادل تقريبا ثلث حياة الإنسان فيه، وهو الباقى للإنسان وهو فى طريقة صوب الحياة الأبدية.

ولعل أيضا ما نراه وندركه فى عالم الحقيقة أثناء النوم وننساه فى حياتنا الدنيا يرجع لحكمة قدرها الخالق، وهى أنه إذا أدرك الإنسان

---

[١] سورة الزمر: آية ٤٢.

ما يدور فى هذا العالم وشاهد النور الإلهى وترامت أبعاد نظره إلى حيث خلائق النور من الملائكة .. وامتد أفقه إلى حيث ساحة الملكوت .... الخ، فإن تسليمه بالخالق سيكون عن بينة ومشاهدة، فى حين أن الخالق أرادها للإنسان أن تكون عن قناعة واختيار ليجتاز اختباره فى الحياة الدنيا بارادة حرة وعقل مدرك متدبر.

أما فى الموت فلا غبار من معرفة الحقيقة وكشف المستور، وقد خرج الإنسان من لجنة الامتحان، وسلم كراسة الإجابة، وطويت صحيفته إلى أبد الآبدين.

ولعل عالم الحقيقة هو الذى يفرض على الإنسان النوم أثناء حياته بانتظام حتى يتسنى للنفس فيه أن تطوف بعالمها الأثيرى، وإلا لو كان النوم هو لدواعى الجسم المادى فقط فكيف نفسر النوم لمن كان مريضا لا يفارق الفراش دون حراك.

ومع ذلك يظل هناك فارق بين النوم والموت من حيث معايشة عالم الحقيقة والإحساس به، ذلك أن النوم رقدة لجسم مازالت تدب فيه الحياة، ويكسوه غطاءه المادى القادر على طمس معالم ما يرى ، بينما الموت فناء لهذا الجسم المادى وانتقال كامل لعالم الحقيقة ومن ثم تنجلى الحجب دون ما رجعة إلى النسيان.

٣ - عالم السكينة

يفقد الإنسان بالموت جسمه المادى حيث تنقبض عنه الروح التى كانت تبعث فيه الحركة والحياة، ومن ثم يتوارى الجسم المادى ويرجع

سيرته الأولى إلى حيث تراب الأرض، وترتفع الروح إلى حيث مصدرها العلوى بما تحمله من تلك النفخة الإلهية التى خص بها الخالق الإنسان والتى كانت تميزه بتلك الأنا المختارة اللازمة لاجتيازه الاختبار فى الحياة الدنيا.

وكما سبق أن بينا أن هذه الطاقة الروحية إنما هى طاقة نورانية ومن ثم ليست من مكونات الجسم المادى الذى كان يصاحبها ، ولذا كان لابد لأن تلتقى به فى الحياة الدنيا، أن يكون هناك جسم اثيرى يتقبل تلك الطاقات النورانية يرتبط بالجسم المادى خلال مسيرة الإنسان فى الحياة الدنيا برباط اشبه بالحبل السرى الذى كان يربط الجنين برحم الأم وإن كان يتميز عنه بأنه مطاط إلى ما لا نهاية إذ أنه حبل اثيرى.

وبالموت ينفض هذا الرباط، وينفصل الجسم الاثيرى بما يحمله من تلك الطاقات الروحية النورانية، ويعود إلى حيث عالمه عالم النور عالم الحقيقة – على نحو ما بينا – فى الوقت الذى يتوارى فيه الجسم المادى إلى حيث تراب الأرض. وهنا تتوقف فى الإنسان الحياة بكل مظاهرها من حركة وإحساس بالماديات.

ولنا فيما نصنعه نحن من آلة تتحرك مثل حى : فالسيارة أو القطار أو الطائرة يلزمها لكى تتحرك وتدب فيها الحياة وتؤدى وظيفتها أن تلتقى فيها الطاقة المحركة – أيا كان مصدرها – بالجهاز أو الآلة – أيا كان نوعها -- عن طريق ما يسمى بمفتاح التشغيل .. حتى إذا ما انقطع هذا الإتصال توقفت حركة السيارة أو القطار واحتفظت كل من الطاقة وهيكل السيارة بخصائصها المنفصلة : طاقة موجودة ولكنها كامنة .. وهيكل قائم ولكنه ميت لا حركة فيه.

وهكذا يترتب على الموت توقف الحياة وتظل الروح (بما يصاحبها من جسم اثيرى) وكذا الجسم المادى كل منهما فى حالة **وجود فقط وليس فى حالة حياة** طالما انقطع الاتصال بينهما، وإن كانت الروح ستكون فى وجودها البرزخى بينما الجسم المادى سيتحلل إلى حيث تراب الأرض.

فكأن الموت هو فى الواقع انتقال للروح إلى حيث وجودها البرزخى، فى الوقت الذى ينتقل فيه الجسد إلى حيث أصله من تراب الأرض.

وجه الخلاف بين الموت والحياة الدنيا والاخرة :

وهكذا يختلف الموت عبر مسيرة الأبدية للإنسان عن دنياه وآخرته. إذ الدنيا والآخرة بالنسبة للإنسان **فيهما حياة**، بينما الموت فقط مرحلة وجود بينهما ويترتب على ذلك :

أن الإنسان لا يقطع مسيرة إلا إذا تكاملت له الحياة أى التقت الروح بالجسد المادى، وهى تتوافر له فى الدنيا ليؤدى الاختبار المطلوب منه وتتوافر له فى الآخرة حيث يجنى ثمرة هذا الاختبار.

بينما الموت هو وجود بينهما بلا حياة ومن ثم لا يقطع فيه الإنسان مسيرة، وبالتالى لا يستطيع أن يضيف لرصيده فى الحياة الدنيا، ولا أن ينعم بما جناه فى الحياة الاخرة.

وهو أشبه بما يراه النائم إذ يجول ويصول حيث وجوده فى عالم الأحلام (الذى يرقد فيه الجسم المادى فقط) دون أن يحرك ساكنا أو يقطع مسيرة فى عالم الحقيقة.

وطالما الموت وجود بلا حياة، فهو وجود بلا حركة، إذ الحركة هى مظهر الحياة .. وطالما انعدمت الحركة حل السكون، وكلما انعدمت الحركة لحد الموت، كلما وصل الصمت والسكون لحد السكينة. ومن ثم فإن عالم الموت هو عالم السكينة.

السكينة التى ينعدم فيها كل مظاهر الحس المادى أيا كان شكله أو درجته. والتى ينطلق فيها الحس الروحى (المعنوى) ليصل مداه، بلا قيود من غطاء جسدى، على ما نحو ما سيبين.

رابعا
قوانين الموت

يترتب على اعتبار الموت خلق أن له قوانين تقريرية تحكمه، كتلك التى تحكم الخلق عموما .... كل ما هنالك أن هذه القوانين تتفق وطبيعة خلق الموت .

ويمكن التكهن ببعضها فقط من خلال مفهوم المخالفة بينها وبين القوانين التى تحكم الحياة باعتبار أن الحياة مضادة للموت بالنسبة لهذا البعض.

كما يمكن التكهن بالبعض الآخر باعتبار أنها لا تتأثر بالانتقال لمرحلة الموت.

أولا- القوانين التى نصل إليها بمفهوم المخالفة لقوانين الحياة:

١ - السكون والصمت :

باعتبار أن من أهم قوانين الحياة الحركة، والسكون هنا ينصرف إلى ذلك السكون المطبق الذى ينعدم فيه كل مظهر من مظاهر الحركة، وتلك بديهية طالما فقد الإنسان بالموت جهازه الحركى وهو الجسم المادى.

٢ - انعدام الإحساس المادى :

ذلك أن من أهم مظاهر الحياة الحس المادى. وإنعدام الإحساس هنا ينصرف إلى عدم الإحساس بالوقت والمكان والحرارة والبرودة .... وكل ما يرتبط بماديات الحياة .

ثانيا - القوانين التى لا تتأثر بمرحلة الموت :

أما البعض الآخر من القوانين فيمكن التكهن بها أيضا باعتبار أنها لا تتاثر بالانتقال لمرحلة الموت، حيث أن لها صفة الاستمرارية عبر مسيرة الابدية ومنها :

١ - استمرارية الطاقة الروحية بعد الموت :

ذلك أن الطاقة بطبيعتها لا تفنى ولا تستحدث ولكنها تنتقل وتتحول من وضع إلى وضع وهكذا فالطاقة الروحية تنتقل بالموت فقط إلى الوضع الجديد الذى شاءه لها الخالق فى هذه المرحلة.

٢ - استمرارية الذات أو النفس :

ذلك أن النفس أو الأنا فى الإنسان لها من خصائص التكوين العلوى

صفة الدوام، ولذا تتخطى مسيرتها الوجود الذى نعيشه لتكملها فيما عداه من مراحل بالصورة التى اعدها لها خالقها.

٣ - استمرارية الحس المعنوى :

ذلك أن الحس المعنوى مرتبط بالنفس أو الذات وليس بالجسم المادى ولعله فى فناء الجسم المادى **يزداد الحس المعنوى لدرجة أكبر وأكبر** حيث ينطلق هذا الحس بلا مقاومة من الجسم المادى، على نحو ما سيبين فى حينه.

خامســا

أثـر الموت

يترتب على إعمال قوانين الموت السابقة بالنسبة للإنسان ما يلــى :

١ - انقطاع عمل الإنسان :

ذلك أن مفارقة الروح للجسد تعنى أن النفس قد فقدت غطاءها المادى وجهازها الحركى، ومن ثم لم تعد قادرة على أن تقوم بعمل من أعمال الحياة الدنيا، أو تتعامل مع مكوناتها أو تقطع أية مسيرة أو ترقى صوب الأبدية ، ذلك أنها كانت تجاهد من خلال الجسم التى تقوده وتحدد مسيرته . ومن ثم ينقطع عمل الإنسان بالموت [1] .

---

[1] " وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى " سورة النجم : الآية ٣٩ - ٤٢.

٢ - فقدان الشعور بالماديات :

أى يترتب على إنعدام الإحساس المبنى على فقدان الحياة وفناء الجسم المادى عدم الشعور بالوقت ولا بالمكان ولا بآلام المرض ولا برودة أو حرارة الجو ولا لهيب النار ولا الضجيج ولا ظلمة المكان .... الخ، إذ تفنى كل الأجهزة والحواس التى تعكس الشعور بهذه المحسوسات المادية وذلك بعد الانتقال إلى عالم آخر من طبيعة مغايرة .

٣ - وجود الروح فى عالم يناسبها :

ويترتب على استمرار الطاقة الروحية بعد مفارقتها للجسد، كما يترتب على بقاء النفس بعد كشف غطائها الجسدى، أن تظل النفس فى وجود....

وجود يناسب وضعها الجديد، الذى فقدت فيه احد مقوماتها وهو الجسد واقتصر وجودها على الوجه الأثيرى للجسد الذى ينقل تلك الطاقات النورانية للروح .... وجود يتقبل هذا القصور فى الذات والنفس.

هذا الوجود لا يمكن أن يكون الحياة الدنيا حيث لا تتعامل معه النفس إلا من خلال الجسم المادى، ويكون التعامل فى إطار ما يقوم به الإنسان من أعمال وتصرفات فى ساحة الصراع الدائر بين الإنسان والشيطان.

كما أن هذا الوجود لا يمكن أن يكون الحياة الآخرة، حيث أن تلك الحياة تتطلب تكامل مقومات النفس ومنها الجسد ، ليتم الحساب وما يترتب عليه من ثواب وعقاب.

وإنما هو في الحقيقة وجود بين حياتين لكل منهما مقوماتها وخصائصها، ومن ثم فهو **وجود برزخي** يفصل بين حياتين بحيث لا تبغي إحداهما على الأخرى. وسوف نفرد الحديث عن البرزخ في موقع آخر مستقل.

٤ - الإحساس المعنوي بالعذاب والنعيم :

ويترتب على استمرارية الحس المعنوي بعد الموت، أن يستشعر الإنسان كل الآلام النفسية المصاحبة لأعماله في الدنيا، للحد الذي تصل به لقمة العذاب أو النعيم ، حسب نوع العمل ووقعه على نفسه. وسوف نعرض تفصيل ذلك عند حديثنا عن عذاب القبر ونعيمه في موقع آخر.

الباب الثانى

الوجود فى البرزخ

البرزخ - بمفهوم العلم المجرد - هو وجود يفصل بين تكوينات وحيوات لكل منها مقوماتها الخاصة، بحيث لا تبغى إحداها على الأخرى [1]

وهو فى المفهوم الدينى يعنى وجود للنفس بين حياتين: الدنيا والأخرة، كمرحلة انتقالية تصفى النفس فيها أعمالها الدنيوية وتتهيأ لملاقاة حياتها الأخرى، التى تبدا بيوم القيامة أو البعث العظيم الذى يشمل الخلق اجمعين.

ويكاد الوجود فى البرزخ يشبه ذلك الوجود فى الأرحام الذى يفصل بين حياة الإنسان فى الذر وبين حياته الدنيا، فهو مرحلة انتقالية لاستقبال الحياة الدنيا بذلك البنيان الجسدى والروحى الملائم لها ولقوانينها.

ويكاد ينطبق هذا الوجود على ما نلاحظه مع الكائنات التى تمر بأكثر من حياة فى الوجود الذى نعيشه .... فهذا هو الوجود فى الشرنقة الذى يفصل بين حياة الحشرة وهى فى حياتها الأولى كدودة، وبين حياتها الثانية كفراشة، وذلك كمرحلة انتقالية تتغير وتتبدل فيه لاستقبال حياتها الجديدة .. وهكذا.

---

(1) " مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان " سورة الرحمن : الآية ١٩ ، ٢٠.

وهكذا فالوجود فى البرزخ مرحلة لازمة لتصفى النفس فيها اعمالها فى الحياة الدنيا، كما وأنه مرحلة لازمة لتهيئة النفس لاستقبال الحياة الأخرى. وفى النهاية فهو لازم ليوم البعث وبيان ذلك يتضح من الآتى :

أولا - تصفيه النفس فى البرزخ لأعمالها فى الحياة الدنيا:

وكما بينا فإن **النفس تفقد فى هذا الوجود البرزخى البنيان الجسدى الذى كان يربطها بالحياة الدنيا** حيث كان يجرى التعامل به مع الموجودات التى يتكون منها الوجود الدنيوى، وحيث كان يسيطر هذا الجسم المادى على النفس بفرض غرائزه ومتطلباته على قراراتها فى تحديد مسارها : إن نحو طريق الخالق بما رسمه لها من رسالات سماوية أو طريق الشيطان بكل ما زينه من صنوف الشر ... ويترتب على ذلك :

١ - **أن النفس تفقد صلاحيتها على العمل الدنيوى**، وبذا ينقطع عمل المرء تماما من الحياة الدنيا بفقدان الجسم المادى كما تتحرر من كل القيود التى كانت تحدها فى الحياة الدنيا كقيد الزمان والمكان، والأحاسيس المرتبطة بها : كالبرودة والحرارة والضجيج، وكافة الآلام الجسمانية .. إذ أن كل هذا مرتبط بالجسم المادى.

٢ - **ولكن إن كانت النفس قد فقدت صلاحيتها على العمل فى هذا الوجود البرزخى لفقدان الجسم، إلا أنه ليس هناك ما يمنع علميا أن يضاف إليها آثار ما قام به الإنسان من أعمال فى الحياة الدنيا، إذا كان لها إمتداد دينى يطول بعد فراق الإنسان للدنيا.**

إذ هو فى هذه الحالة يجنى ثمرة ما قدمت يداه من عمل دينى قام به فى حياته الدنيا له أثره الممتد. فيكون الكل حريصا على القيام بالأعمال ذات الأثر البعيد، حيث يظل ينعم بخيرات العمل طيلة بقائه حتى ولو تجاوز حياته .

وبالتطبيق لهذا يمكن للإنسان أن يجنى ثمرة عمله فى مرحلة الوجود فى البرزخ، إذا بنى مسجدا يمتد لمئات السنين بعد وفاته، إذ له من ثواب كل من صلى فيه حتى بعد موته .. وكذلك من بنى ملجئا أو مستشفى أو مصحة .. وهكذا، إذا كان ذلك من ماله الخالص وكان يبغى به وجه الخالق .. وكذلك من ربى ولدا على دين الله يدعو له بالخير .. أو أعد كتابا أو علما ينتفع به .

وهناك من الأعمال مالها الخلود وهى الأعمال ذات الأثر الدينى البالغ، كتبليغ رسالات السماء على من اختصهم الخالق بهذا الفضل من أنبياء ورسل. فبالتأكيد لرسول الإسلام مثلا من ثواب كل من آمن بربه، وإتخذ الإسلام دينا، وانتهج سنة الرسول .. وينطق بذلك قول الحق *" إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما "* [1] فهو نداء لكل مسلم بالصلاة والسلام على رسول الإسلام فى كل وقت وحين. مما يقطع بأن ثواب هذا يرفع من درجات الرسول عند الله بعد وفاته، فى مرحلة الوجود التى هو فيها.

وهكذا كل عمل يقوم به الإنسان يثاب عنه فى حياته بقدر جهده، ويظل ينعم بهذا الثواب ما بقى هذا العمل قائما بعد موته.

وبالمقابلة يصدق هذا على كل عمل حتى ولو كان ضالا .. كمن نادى إلى الشيوعية مثلا وهجر الأديان، فإن له فى دنياه بقدر ما أضل من العباد، وله بعد موته وزر من امتد إليهم أثر هذا الضلال، فى مرحلة الوجود التى يكون فيها.

---

[1] سورة الأحزاب ، آية ٥٦.

وهنا يكون الإنسان حريصا أن يقوم فى دنياه بالباقيات من أعمال الخير أياً كانت صورتها ومداها، كمن يوصى بماله أو جزء منه لأعمال البر، أو يقف عقارا على أعمال الخير، أو يؤدى رسالة علمية ينتفع بها لأجيال، أو تكون له مدرسة فى التفسير والاجتهاد يمتد فكرها لمئات السنين كأصحاب المذاهب من المجتهدين .... وهكذا. إذ لهؤلاء جميعا من ثواب ما قاموا به فى دنياهم، فى وجودهم الذى هم فيه بعد الموت.

كما يكون الإنسان حريصا أيضا على تجنب أعمال الضلالة التى يمتد أثرها بعد موته .. كأصحاب المذاهب التى تدعوا إلى الكفر وإنكار الخالق أو سن بدعة تدعوا للفسوق والعصيان أو خوض حرب عرقية مدمرة لا هدف لها إلا إعلاء الذات .. وهكذا، إذ سيناله من وزر ما قام به بقدر ما أضل حتى فى وجوده الذى هو فيه بعد الموت.

ومن ثم فالوجود فى البرزخ قد يكون سببا لأن ينال الإنسان من ثواب ما قام به فى دنياه من أعمال الخير، وأن يمتد إليه وزر ما قام به من أعمال الضلالة .... كل ذلك بطريق غير مباشر بعد موته.

وربما هذا هو السبب فى دعاء أهل الدين لموتاهم، وللمؤمنين والمؤمنات ممن سبقوهم، وللأنبياء والرسل والشهداء والمقربين .... إذ سينال هؤلاء ثواب دعائهم فى وجودهم البرزخى الذى هم فيه .

ثانيا – الوجود فى البرزخ كتهيئة للنفس لاستقبال الحياة الآخرة :

لا جدال – بالمنطق العلمى المجرد – أن الحياة الآخرة باعتبارها حياة ثانية، لها مقوماتها وقوانينها الخاصة التى تختلف عن الحياة الأولى.

فالحياة الدنيا كما هو معلوم **حياة عمل واختبار**، والحياة الآخرة **حياة حساب وجزاء** .... الجسم البشرى شريك النفس فى الحياة الدنيا فى أداء العمل حتى ولو اقتضاه الأمر كبت غرائزه وشهواته، والجسم البشرى شريك النفس فى الحياة الآخرة فى الاستمتاع بنعيمها حتى ولو تضاعفت رغباته ... كما وأنه شريكها فى العذاب بجحيمها وسعيرها.

والنفس فى حاجة لأن تتهيأ لاستقبال حياتها الجديدة : وذلك بأن تتبدل من نفس قوامة إلى نفس لوامة ، من نفس ناصبة إلى نفس خاشعة، وبيان ذلك :

أ - كانت النفس فى حياتها الدنيا **قوامة على أمرها** لها إرادة الفعل والنهى .. لها قدرة العمل والامتناع .. لها مشيئة الاختيار والمفاضلة بين الأضداد، بينما هى فى الحياة الأخرى مجرد نفس **لوامة لمآلها** تضيق بما انتهى إليه أمرها، تضجر بما قامت به من أعمال السوء، وتندم على ما فاتها من أعمال الخير، وقليل منها ما تكون راضية لسعيها فى الحياة الدنيا.

ب - كما وأن النفس تحتاج لأن تتبدل من نفس **عاملة ناصبة** إلى نفس **خاشعة**، ذلك أن النفس فى الحياة الدنيا شاغلها العمل حتى العناء والنصب، بينما هى فى الآخرة خاشعة ليس لها إلا ما سعت، تترقب قدرها وحسابها فى تطلع لمغفرة أو رحمة من خالقها.

كل هذا التبديل والتغيير وغيره كثير يحتاج بالمنطق العلمى إلى وجود للنفس **تخلع فيه رداءها الدنيوى لترتدى ثياب الحياة الآخرة** عند أول منزلة من منازلها .. وهى منزلة الوجود فى البرزخ.

ثالثا – الوجود فى البرزخ ضرورى – بالمنطق العلمى – ليوم البعث العظيم :

ذلك أن يوم البعث – على نحو ما سيبين – يمتد إلى كل الخلق السابقين واللاحقين، حيث يهلك كل من فى الكون [1] ، ويتوفى الله كل الخلائق حتى الملائكة .. وبعدها يكون البعث لاستقبال الحياة الأخرى حيث تتجلى الذات الإلهية، ويكون اللقاء المرتقب فى مشهد يوم عظيم .. يوم العرض ويوم الحساب.

وهنا وحتى تقوم الساعة لابد من وجود لكل هذه الأنفس السابقة واللاحقة حتى تحين الآزفة .. هذا الوجود هو الوجود البرزخى.

وهكذا يمكن القول أن الوجود فى البرزخ يعتبر محطة تجمع لكل الأنفس على توالى مفارقتها لهذا الوجود الذى نعيشه لحين بعثها يوم القيامة دفعة واحدة. *"ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون "* [٢].

---

[١] " ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون " سورة القصص ، آية ٨٨.

[٢] سورة يس، آية ٥١ – ٥٣.

الباب الثالث

عذاب القبر ونعيمه

١ - عذاب القبر

نتناول الحديث عن عذاب القبر ونعيمه فى إطار الخط الذى التزمنا به، وهو مجرد التعرض له من الزاوية التى يتفهمونها، وهى الزاوية العلمية المجردة عن أى إنفعال دينى .. كى يدركوا إمكانية وجود عذاب بعد الموت.

نعم سيقولون وفر عليك الحديث فمنا من يوصى بحرق جثمانه وبالتالى لن يتعرض لعذاب القبر، ومنا من قد يهلك فى البحر او طائرة أو فى الغاب فيكون طعاما للطير أو السمك أو الوحوش .. وهو أخف وطأه مما سمعناه منكم عن عذاب القبر وما فيه من الأفاعى التى دونها ما نعرفه منها .. والكائنات المرعبة التى لم نسمع عنها إلا فى الأساطير.

قل دعكم مما سمعتم وهلمَّ إلى كلمة سواء تفصل بيننا، وأستميحك محدثى فى قولها .. نعم سأقولها فى إطار تسلسل البحث - من خلال منظور علمى - الذى تناولناه من قبل دون سواه .. لقد علمنا من قوانين الموت أن يظل الإحساس المعنوى والنفسى قائما رغم الموت، طالما بقيت النفس أو الذات قائمة بعد تحررها من غطائها الجسدى.

وهذا الإحساس المعنوى بالألم يتنامى مع الموت للحد الذى يشكل عذابا يفوق فى وقعه ما تصوره البعض عن عذاب القبر المادى بمراحل. والسبب أن الموت يعدم فى الإنسان الجسم المادى، والجسم المادى كان

قيدا علـى الإحسـاس المعنـوى المرتبـط بـالنفس .. إذ كـانت تنعكس بيـن جوانحه تلك الآلام النفسية فترتد دون أن تصيب النفس بوقـع هـذه الآلام أو تحد منها إلى حد بعيد .. ونضرب لذلك مثلا : قاتل نادم على مـا فعل أو خائن يتعذب من جرمه .. قد ينشغل فـى الدفـاع عن نفسـه أو ينهمك فكره فى امور أخـرى فيتجنب وقـع هـذه الآلام النفسية مـن نـدم وعـذاب ضمير، وقد يعمد إلى تجنبها وتحاشيها بل وأدها إذ مـا احتسى كأسا مـن خمر أو حبوب مهدئه أو تمادى فى ملذاتـه أو حـاول تـبرير فعلتـه بمكـره ودهائه.

وهكذا فالسبل كثيرة للحـد مـن وقـع هـذه الآلام النفسـية بحيـث بعـد فترة، يتمكن من نقلها من مرحلة الشعور إلـى مرحلـة اللاشـعور، فتصير نسيا منسيا لا يوقظهـا فـى نفسـه إلا تشـابه الأحـداث أو تجـدد الذكـرى أو يقظة من ضمير .. وهكذا.

أما الموت فهو يعدم هذا المصدر وهو الجسد، بحيث يظهر كل مـا كان خافيا فى اللاشعور إلـى حيث واقـع النفس، بكـل مـا فيـه مـن آلامـه وأحاسيسه ودون ما قيد يحد من أثره أو يتحاشاه فتكون الطامة الكبرى، إذ يجد الإنسان نفسه فى مواجهة صريحة وسافرة مع آلامه وعذاب ضميره فى لا نهائية ودون أن يملك لها درءا.

وهذه الآلام النفسية التى قد يبتلعها الإنسـان فـى حياتـه الدنيـا المـرة تلو المرة بحسب ترتيب وقوعها، يجترها فى الموت دفعـة واحـدة، بحيث تظهر جميعها على صعيد النفس فتشد كل منها أزر الأخرى حتـى تصـير كتلة من العذاب تنوء عن حملها النفس فتضجـر وتضجـر ولكـن هـل مـن مجيب.

هذا العذاب يفوق فى مداه كل ما ورد عن عـذاب القبر مـن صـور وروايـات، ذلـك أن العـذاب الحسـى إيـا كـان سـيقف عنـد مـدى الطاقـة والاحتمال وإلا اصاب الإنسان صدمة عصبية يفقد بعدهـا الإحسـاس، أمـا العذاب النفسى فليس له مدى إذ هو كالصيحة فـى الفضـاء الخـارجى .... تظل تتردد وتتردد بلا نهاية وحتى أبد الآبدين، طالمـا لـم تصطـدم بجسـم خارجى تنعكس عليه، وقل ما تصطدم لشساعة هذا الفضـاء.

هكذا فالنفس يمكن أن تجتر آلامها النفسية بعد الموت فيكون عذابهـا الذى لا يدانيه عذاب، وقد تكون سعادة ما بعدها سعادة إذا كان مـا اجتـره بعد الموت هو الرضا والسرور.

سيقولون وما دليلك على ما تقول من واقع الحال ؟

قل عليكم بما ترونـه فى الأحلام، فمن منا إلا وكانت له ذلة تؤرقـه، تغلب عليها فى واقعه بالنسيان، فإذا هى توقظه تـارة فـى منامـه فـى حلـم صارخ بالالم ينهض بعدهـا مذعـورا ليهـرب مـن هـذا الكـابوس الفظيـع. مابالك لو عاش الإنسان هذا الكابوس إلى أبد الآبدين بعـد المـوت دون أن يملك له درءا .... إنه حقا فزع ورعب دونه حية لها ما يزيد على سبعين رأسا .. ذلك أن الحية قد يعتادها وقد يقاومها فى القبر، ولكـن الأدهـى أن تلك الآلام النفسية بعد الموت فى ديمومة كاملة وليس لردها من سبيل.

وقـد أثبـت ذلـك عندهـم بعـض علمـائهم، ممـن يقومـون بتحضـير الأرواح فى الجميعات الروحية .... إذ عندما استحضروا روح إنسان قد انتحر، وجدوها تتألم وتتعذب، إذ أنهـا علـى حد قولهم كـانت تعـانى آلام الانتحار التى عاشتها لحظة الموت، وذلك فى ديمومـة متصلـة، ولا تملـك

لذلك درءا ... والكثير من الروايات الآخرى عن القاتل الذى يعيش فى ديمومة كل آلام الندم، وتلك القاسقة التى لا ينقطع عنها خزيها وعارها...

وقل لهم أيضا مضاحكا إن كان ما تتواصون به من حرق الجسمان بعد الوفاة هربا من عذاب القبر، فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئا .. إذ الأمر على الأقل أنك تعيش فى عذاب ما فعلت من أمر السوء فى وجودك بعد الموت (بعد ما تتجرد من كل ما يحول بين هذا العذاب من جسم مادى) إذ ستلقاه سافرا فى أغوار النفس، وعاما يملأ عليك كل مرحلة الموت .... وعندئذ لن ينفع حرق الجسمان حيث أن ما تلقاه عذاب نفسى، ولن يفيدك الهروب من القبر إذ سيلقاك العذاب فى كل الوجود الذى تكون فيه بعد الموت حتى إذا كان جسمك ذرا من تراب.

سيقولون وما ضرورة هذا العذاب وهناك حساب بعد البعث يتلوه العذاب الأعظم فى نار الجحيم ..

قل إن كنتم تعنون ما تقولون بصدق وإيمان، فإن الله سيفتح بينكم وبين علمه .... وإن كنتم تحاجون وتجادلون فقط فإنا معكم فى إطار مناقشة جدلية محضة يعلم الله مدى حقيقتها وصدقها.

فالعذاب بعد الموت – فى إطار الجدل العلمى – هو امتداد لأثر فعل السوء على النفس فى مرحلة لا تملك فيها تغليفه ولا تقيده، وإنما تلقاه سافرا وعنيفا فتتجرعه جرعه يطول مداها إلى يوم البعث.
خاصة وأن النفس فى هذا الوجود لن تجد شيطانا يزين لها ما فعلت ويهون عليها ما قامت به أملا فى أن تزيد من فعل السوء فى حياتها الدنيا، وإنما تجد شيطانا ماكرا ساخرا يقلب لها ظهر المجن ليزيد من ذلك الالم النفسى فى وقت أصبح لا حول لها ولا قوة وذلك بعد الموت .

ومن ثم فالعذاب فى مرحلة الموت أثر وامتداد لعمل الإنسان فى الدنيا وبالتالى فهو مرتبط بذات العمل .. ويقع على النفس فقط.

أما العذاب الأكبر يوم القيامة بعد الحساب، فهو جزاء وعقاب هو حكم وقضاء لا يرتبط بذات العمل ولا هو من أثره، وإنما هو جزاء من نوع آخر له مقوماته الخاصة التى تتمثل فى الجحيم والسعير، يتناول نفس المسئ بعد أن تكون قد تكاملت بالجسد أى هو عذاب حسى ونفسى. على نحو ما سيبين عند الحديث عن العذاب فى الآخرة.

سيقولون لقد جعلت من الموت حملا ثقيلا.

قل ولما لا يكون سعدا ونعيما. إنها فقط وقفة مع النفس فى حياتها الدنيا تبصرها فيها بما يدور فى ذلك المجهول الذى ستلاقيه حتما، ولن يغنيها عن ذلك إهمال التفكير فيه أو تجنبه أو حسن الظن به .. وذلك حتى تحتاط لهذا اليوم وتعد له العدة .

وكل السبل متاحة، فكما أن هناك السئ من الأعمال فأيضا هناك الخير منها، وكما أن هناك طريق الشيطان .. هناك أيضا طريق الحق والنور، وكما أن النفس يمكن أن تتألم فإنها أيضا يمكن أن تسعد .. المهم هو فيما تختار وفيما تريد أن يكون عليها الحال فى الدنيا وبعد الممات. وهذا الاختبار الحقيقى للنفس هو السر وراء خلق الموت والحياة ، وفى ذلك تقول الشريعة الخاتمة " *الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور* " [1] .

---

[1] سورة الملك ، آية ٢.

أى أن الخالق قد جمع بين الموت والحياة فيما يتعلق باختبار الإنسان فى الدنيا واختياره لأى الطريقين.

٢ - نعيم القبر

سيقولون فى النهاية افضت فى الحديث عن عذاب القبر، وماذا عن نعيمه ؟

قل ليس هناك أبلغ فى تصوير النعيم من تلك الآية الكريمة التى جمعت فأوعت " *فأما إن كان من المقربين **فروح وريحان وجنة نعيم** وأما إن كان من اصحاب اليمين **فسلام لك من اصحاب اليمين*** " وهنا مع هذه التجليات الإلهية التى تشع نورا، يعجز أى بيان عن إدراك حدود هذا النعيم حتى ولو اجتمع له اساطين الفكر والعلم.

واذكر فى الكتاب منزلة من انعم الله عليهم بالشهادة" *ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون* " [١]

نعم أنهم يرزقون من فيض الله، جزاء لما قاتلوا فى سبيل الله. ولا حدود لعطاء الله.

أما عن طبيعة النعيم فى القبر ومداه، فإنه يصدق عليه ما قيل بالمقابلة عن عذاب القبر.

---

[١] سورة آل عمران : آية ١٦٩.

المرحلـــة الثالثـــة



(محطــة الوصــول)

خـط السيـر :

وقف صديقى هذه المرة واجما مشدوها، وكأنما على رأسه الطـير.. يقول بصوت خافت متردد هيا بنا نقنع بما جاء فـى الكتـب السماوية عن الحديث عن الآخرة .. ولهم أن ينكروه أو يصدقوه بمنطقهم العلمـى كيفما شاءوا، إذ لا أريدك أن تخـوص فـى غيبيـات هـى فـوق إدركاتنـا وطاقتنـا العقلية بكثير.

قلت له : لا عليك .. لـو كـانت الحيـاة الآخـرة ظنـا يفـوق طاقاتنـا العقلية، ما كان قد أخبرنا به الحق على أنها يقين يجب الإيمان به، كجـزء مكمل لما يجرى الإيمان به فى عالم الشهادة وفى ذلك تقول الآية الكريمـة *" الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك* ***وبالآخرة هم يوقنون*** "[1] .

وبديهى أن اليقين بالآخرة (وهى عالم الغيب) يجد سنده فـى صدق القائل والإيمان به، وتلك حقيقة لا تقبل الجدل أو التحليل ..

ولكن ما بالك إذا كان ما ورد عن الحياة الاخرة من غيبيات كالبعث والحساب والنار والجنة .. تسـاير منطق الفكر وتلتزم بالمنهج العلمى الذى يدينون به .. ألا يستحق ذلك أن نقود قومك وعشيرتك إلـى

---

[1] سورة البقرة ، آية ١ - ٤ .

هناك حيث يجدوا أن دينهم الحق هو فى الإيمان بالحياة الآخرة وما يجرى فيها بمنطق العلم، بدلا من أن ينكروها بِعَتّه وجهالة.

دعنا نكمل المسيرة فقد اشرفنا على اعتاب الحياة الآخرة، فدعنا نطرق الأبواب على النحو التالى :

الباب الأول : البعث.

الباب الثانى : الحساب.

الباب الثالث : العذاب (النار) .

الباب الرابع : الثواب (الجنة) .

الباب الأول

البعث

يقتضى التعرف على البعث الإلمام بعديد من الموضوعات أهمها اليقين به، وتحديد مفهومه، وقوانين الآخرة، وكيفية البعث، ونحن نوالى عرض كل منها تباعا :

أولا – اليقين بالبعث

يرتبط اليقين بيوم البعث بالفكر الذى يؤمن به الإنسان ، كما يرتبط بالفطرة الإنسانية ذاتها ومنطق الأمور، وذلك على النحو التالى :

١- الارتباط بالفكر :

هناك من يؤمن بأنها هى الحياة الدنيا التى يحياها، وأن فيها مستقره ومقامه ومآله، وبالتالى ففيها جنته وعذابه. ومن ثم فهو يعيش واقعه كما يجب أن يكون حيث أنه لا يملك غيره ولا يتطلع إلى ما سواه.... فتكون ملذاته .. وقد تكون حسراته على شباب ولى وأدبر .. وقد تكون فجيعته عند الوقوف على اعتاب يوم اغبر يواريه فيه التراب فيبتلعه الفناء ويطويه العدم.

إنها حقا مأساة ولوعة، ولكن على الإنسان أن يجتر من الحسرات بقدر اسرافه فى أمره وسوء فكره.

إذ كيف له أن يتصور – وقد وجد كل ما حوله يسير وفق نظام غاية في الدقة والإحكام وتحكمه في النهاية قدرة عليا تجاوزت كل حدود فكره – أن هذه القدرة قد خلقته ومن قبله الوجود كله دون هدف أو غاية [١] .. وإنما كان كل ذلك نبتة شيطانية افرزتها في نظره ما يطلق عليها اسم " الطبيعة " كي يوارى بها غفلته وقدر سفهه .... ومن ثم فالموت عنده رقدة لا قيام بعدها، أو هو بالمعنى الأصح فناء وعدم، وبالتالى ليس هناك من بعث ولا نشور [٢] ولا حياة أبدية مقبلة.

وهناك من يؤمن بأن هذا الوجود الذى نعيشه ما هو إلا مرحلة من تلك الخطة الإلهية الكبرى التى تبدأ مسيرتها من قبل هذا الوجود وتستمر إلى ما بعده، وبالتالى يصير البعث عنده حدثا متوقعا يترقبه فى كل لحظة يعيشها فى حياته الدنيا .. ذلك أن البعث هو بداية حياته الأخرى المقبلة، التى يجنى فيها ثمرة أعماله فى دار الاختبار التى كان يعيشها، والتى قد يلقى فيها نعيمه المقيم أو خسرانه المبين.

وبالتالى فهى محط آماله وقمة مراده وخلاصة سعيه وعاقبة أمره.

وهكذا فاليقين هنا بالبعث هو على قدر تعلق الإنسان بتلك الحياة الأخرى وإيمانه بها وسعيه لها.

---

[١] " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم " سورة المؤمنون : آية ١١٥، ١١٦.

[٢] وفى ذلك تقوم الشريعة الخاتمة .. " وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون " سورة الجاثية ، آية ٢٤.

٢ - الارتباط بالفطرة :

لا يرتبط البعث فقط بفكرة الأديان السماوية، وإنما هو يرتبط بالفطرة، بمعنى أنه يرتبط بإحساس الذات أو النفس الإنسانية بالبقاء والخلود، حتى ولو لم يدرك الإنسان كنه هذه الذات أو النفس .... ولنا مثل على ذلك ما كان يعتقده أجدادنا من الفراعين .. إذ اليقين لديهم منذ آلاف السنين وقبل مهبط الرسالات السماوية هو بوجود البعث والحياة الأخرى، وما كل النقوش والآثار التى نكتشفها حتى يومنا هذا إلا وتنطق بهذا اليقين.

حقا إن مفهومهم للبعث قد يختلف مداه عن ذلك المفهوم الدينى، إذ كان تصورهم أن البعث فقط ملاقيهم بعودة الروح إلى الجسد فى مرحلة مقبلة من مراحل الوجود. ومن ثم كان حفاظهم على الأجساد فى ديمومة حتى لا تخطئها أرواحها، وأيضا حفاظهم على عدتها وعتادها حتى لا ينطمس سلطانها .. وهكذا.

ثانيا
مفهوم البعث

البعث فى المفهوم الضيق .. هو عودة الروح إلى الجسد أى عودة الحياة إلى الإنسان، **ولكنه فى مقام الحديث عن يوم البعث العظيم**، يوم القيامة، فإنه يحمل معنى يجاوز عودة الروح بكثير : إذ هو يحمل الفناء والعدم للحياة الدنيا، كما يحمل الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية. وذلك على النحو التالى :

أولا - فأما عن الفناء والعدم للحياة الدنيا :

يعتبر البعث ساعة الصفر التى يصدر فيها الأمر الإلهى بتخطى الوجود إلى مرحلة ما بعده فى مسيرة الأبدية.

وعلى ذلك فالبعث فناء للوجود ، الذى كنا نعايشه ملايين السنيين ، والذى كان يتسع لسبع سماوات تحتهن سبع أرضين، والذى ما تصورنا انفسنا خارج إطاره وقوانينه، حيث ينفرط عقده ويتوارى فى انصياع كامل لمشيئة الخالق.

فإذا هذا الوجود وقد دخل اللاوجود تنفيذا للقدرة الإهلية البالغة القوة والاقتدار، والتى ينطق بها قوله " *إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون* " حتى ولو كان هذا الشىء هو الكون نفسه، إذ يفقد كينونته إذا ما ارتفع عنه أمر كن كونا، ويصير الكون وكأن لم يكن.

وقد صورت الشريعة الخاتمة كيف ينفرط عقد هذا الكون فى العديد من السور والآيات منها " *إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الإنسان مالها * يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها * يؤمئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره* "[1] " *إذا السماء انفطرت* وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فجرت * وإذا القبور بعثرت * علمت نفس ما قدمت وأخرت* "[2] " *إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا * وكنتم أزواج ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما*

---

[1] سورة الزلزلة ، الآية ١ - ٨ .

[2] سورة الانفطار ، الآية ١ -٥.

*اصحاب الميمنة * وأصحاب المشامة ما أصحاب المشامة "* [١]*" إذا الشمس كورت *وإذا النجوم انكدرت* وإذا الجبال سيرت * وإذا العشار عطلت* وإذا الوحوش حشرت * وإذا البحار سجرت * وإذا النفوس زوجت "* [٢]*" إذا السماء انشقت * وأذنت لربها وحقت * وإذا الأرض مدت * وألقت ما فيها وتخلت * وأذنت لربها وحقت"* [٣] .

ثانيا – الانطلاقة نحو الحياة الأبدية :

من المعلوم أن الحياة الأبدية لها مقوماتها وقوانينها الخاصة بها والتى تختلف فيها عن قوانين الحياة الدنيا التى نعيشها، وأهم هذه القوانين هو إنعدام قيدى الزمن والمكان بالنسبة لها، ولذا نجد أن الانطلاقة نحو الحياة الآخرة لا تكون إلا بالبعث الشامل فى يوم معلوم ، بينما الالتقاء بالحياة الدنيا يكون بالخلق على تتابع وفترات.

الفرق بين البعث فى الآخرة والخلق فى الدنيا : يكمن هذا الفارق فى أن :

البعث فى الآخرة يشمل كل الخلائق فى ذات اللحظة، حيث تعاودها جميعا الروح، وتنبعث فيها الحياة من جديد دفعة واحدة بمجرد صدور الأمر الإلهى،طالما ينعدم قيد الزمن فى تلك الحياة *"ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون "* [٤].

---

[١] سورة الواقعة ، الآية ١ – ٩.

[٢] سورة التكوير، الآية ١ – ٧.

[٣] سورة الانشقاق : الآية ١ – ٥ .

[٤] سورة يس : الآية ٥١ – ٥٣.

فليس هناك من تتابع فـى البعـث، إذ التتـابع يقتضـى توافـر الزمـن، وقيد الزمن معدوم فى الآخرة .. ومن ثم فإن كل الخلائق تبعـث فـى يـوم واحد هو يوم البعث أو يوم القيامة.

بينمـا الخلـق فـى الدنيـا يتتـابع بحيـث نجـد الأوليـن والآخريـن .. والأجداد ثم الآباء ثم الأولاد ثم الأحفاد ثم أحفاد الأحفـاد .. وهكـذا. خلـق من خلق لكل زمانه إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا.

وربما تتابع الخلق مقصود فـى الحياة الدنيـا، إذ الحيـاة الدنيـا دار عمل واختبار، أقرب ما تكون بلجنة الامتحان الكل واردها على تتابع فـى الخلق، حيث يجد كل إنسان من بصمات من سبقوه عظة وعبرة قـد تعينـه فى رسم الطريق الذى يشاركه فيه البلايين من البشر الذين يجمعهم عصر من العصور .... وهكذا تتوالى العصـور وتتوالـى العظـات بحيـث تكـون حصيلـة الآخريـن أوفـر مـن تجـارب الأوليـن، فيكـون تقديرهـم للعمـل وحساباته أدق وأفضل.

كمـا أن الـدار الدنيـا بالإضافـة إلـى مايحكمهـا مـن عنصـر الزمـان يحكمها أيضا عنصر المكان، ومن ثم فهى لا تحتمل إلا بقدر طاقتهـا مـن الخلائـق فـى كـل وقـت مـن الأوقـات ... وهـذه القـدرة المحسـوبة علـى الاحتمال هى ما تشكل نقطة التوازن الأمثل .

وهكذا نجد أن الخلائق علـى اختـلاف أنواعهـا وأشكالها ومنـذ بـدء الخليقة تقف عند حد معين لا تتجاوزه ولا تجور فيـه علـى الأخـرى، وإلا عادت إلى سيرتها الأولى، لتقف من جديد عند نقطة التوازن وهكذا.

والطاقة المحدودة على الاحتمال هى التى جعلت حركة الخلائق فى تتابع لا ينقطع ، ففى الوقت الذى تستقبل فيه ميلاد خلق جديد يكون رحيل قوم آخرين .. وهكذا.

والمحصلة أن الخلق فى الدنيا محكوم بقوانين الوجود من زمان ومكان ، بينما يختلف الوضع تماما فى الحياة الآخرة طالما هى دار المستقر والمقام، وبالتالى فلها قوانينها الخاصة بالزمان والمكان. على نحو ما سيبين تفصيلا فيما يلى .

ثالثا

قوانين الآخرة

ولما كانت الحياة الآخرة فى الشريعة الخاتمة تعتبر محطة الوصول حيث أن فيها المستقر والمقام، لذا فإنها تنفرد بقوانين خاصة بها من حيث الزمان والمكان ، حيث ينعدم فيها قيد الزمان والمكان.

وهنا يعجز الفكر عن كيفية إدراك عالم ينعدم فيه قيد الزمان حيث الخلود، والمكان حيث اللانهائية، وكيف لنا أن نتصور ذلك بالمفهوم العلمى المجرد؟

والاجابة على هذا التساؤل بالمفهوم العلمى المجرد تقتضى منا أن نرتفع بتفكيرنا وتصورنا إلى مستوى المقام الذى نبحثه ، ولنا أن ندلل بعد ذلك بما ورد فى الشريعة الخاتمة، لنرى ما إذا كان العلم يسوقنا إلى ما جاء به التقنين الإلهى من عدمه. وفيما يلى نستعرض هذين القانونين :

١ - الديمومة والخلود حيث انعدام قيد الزمان :

يقودنا المنطق العلمى المجرد إلى معرفة أن كل من كان له بداية كان له نهاية . وهذه القاعدة أو الظاهرة تصدق على كل الموجودات بلا استثناء : صغيرها وكبيرها فى دنيا المتغيرات ....

فما من حضارة إزدهرت إلا وطواها الزمن بعد ذلك فاندثرت، وما من بناء شيد إلا وجاء يوم وانهدم، وما من نجم فى السماء أضاء إلا وأتى عليه يوم خبأ وأظلم .... وهكذا.

وإذا كان ذلك يصدق على كل الموجودات فى هذا الوجود، فإنه بالقياس يصدق على الوجود كله فى ملكوت يضم أكثر من وجود وحياة.. كل ما هنالك أننا لا نحيط بها لأنها خارج إدراكاتنا..

ومن ثم سيأتى يوم على هذا الوجود ليندثر ويتحلل وينفرط عقده، شأن كل من كان له بداية من الموجودات.

وإذا جاء اليوم الذى ينفرط فيه عقد هذا الوجود، فإن ما يربط منظومته ينفك بحيث تتناثر مكوناته .. تماما كالبناء إذا ما تهدم، ومن ثم تجد الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال والمجرات والأرض وقد تناثرت جميعها ودخلت إلى غياهب اللاوجود.

وإذا ما انتقلنا من هذا الوجود الذى نعيشه بعد فنائه إلى الحياة الأخرى حيث المستقر والمقام، فإننا نخضع لطبيعة هذه الحياة الأخرى. وليس بالضرورة أن يكون فيها شموس وأقمار ونجوم، إذ أن هذه وتلك هى من مكونات الوجود الذى نعيشه وقد تناثرت واندسرت، **وإنما يمكن أن تضيئ هذه الحياة بنور الذات الإلهية** - حيث أنها حياة علوية يغمرها

نور دونه كل مايصدر عن الشمس والقمر والنجوم لقربها من مصدر النور الإلهى- وذلك مصداقا للآية الكريمة "*وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون*" [١].

ويترتب على عدم وجود الشمس والقمر والنجوم إنعدام قيد الزمن، إذ أن الزمن يقاس بحركة كل من هذه الأجرام السماوية : فالأرض تدور حول محورها .. وهكذا أمكن معرفة الأيام والساعات والدقائق، والأرض تدور حول الشمس وهكذا أمكن معرفة السنين، والقمر يدور حول الأرض وهكذا أمكن معرفة الشهور .. وهكذا.

فلو تصورنا بالمنطق العلمى المجرد - أن هناك حياة بلا أجرام من شموس واقمار .. لأمكننا تصور إنعدام قيد الزمن فيها على النحو الذى نعرفه، وإنما هو زمن لا نهائى حيث الديمومة والخلود.

قال محدثى : وهل يمكن بمنطق العلم المجرد أن **نتعرف على الحكمة** من انعدام قيد الزمان فى الحياة الآخرة ؟

قلت : بينا فيما سبق أن قصة خلق الإنسان ومن قبلها خلق الوجود الذى نعيشه (الحياة الدنيا)، إنما كان نسيجا متكاملا لحسم قضية الصراع بين الإنسان والشيطان، وكانت آخر حلقات هذه القضية أن طلب الشيطان من رب القدرة **منحه مهلة أو بمعنى آخر نظرة** - يؤكد له فيها أنه الأعز بأصل خلقته من نار عن الإنسان الذى خلق الله من طين - وذلك حين

---

[١] سورة الزمر : آية ٦٩.

*" قال ربى فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم "* [١] .

ونستخلص من هذه الآية الكريمة، **أن قضية الصراع فى الأرض يلزمها الوقت أو الزمان حيث إنها المهلة أو النظرة الممنوحة للمنازلة بين الشيطان والإنسان، وبالتالى لحسم قضية الصراع.**

وهذه المهلة مقدر زمانها على مستوى الإنسان بعمره " *ولكل أجل كتاب* " وعلى مستوى البشرية جمعاء بالمدى الزمنى المقدر فى علم الخالق لحياتنا الدنيا.

فالزمن جزء أساسى من قضية الصراع، تماما كما يحدث فى واقعنا عندما نضع امتحانا للطلاب، إذ بعد أن نبين المادة المطلوب عقد الامتحان فيها والسنة الدراسية .... الخ، نحدد الزمن المقدر لأداء هذا الامتحان. وعلى ذلك فالزمن قيد أساسى وشرط من شروط الامتحان لا ينعقد الامتحان بدونه.

أما فى الحياة الآخرة التى عبر المولى عن زمانها "بيوم الوقت المعلوم" فهو الأجل الذى لا يعرف القيود، حيث أنه مستقر بكامله فى علم الخالق فى ديمومة مطلقة " *خالدين فيها ابدا* "

وهذا منطقى طالما أن الحياة الآخرة هى دار الجزاء حيث المستقر والمقام، إذ ما جدوى تقييدها بالزمان وقد استقرت أوضاع الخلائق فيها

---

[١] سورة ص ، آية ٧٩ – ٨١

وتحددت مكانتها تماما، كما يحدث فى واقعنا حينما يخرج الإنسان من لجنة الامتحان، إذ لم يعد يعنيه حتى أن تكون معه ساعة يسترشد بها لمعرفة الزمن، وقد تحددت مكانته بما أداه من إجابة فى ورقة الامتحان وفى الزمان المحدد له.

وهكذا نجد من الناحية الدينية أن الحياة الآخرة لا يحدها قيد الزمان... وأن ذلك فى الإمكان بمنطق العلم المجرد طالما أن مقومات هذه الحياة تختلف عن مقومات الحياة الدنيا.

٢ - لانهائية المكان حيث إنعدام قيد المكان :

تكاد تضيق الأرض - فى الوجود الذى نعيشه - بمن فيها ، إذ هى على شساعة مساحتها محدودة، بحيث يمكن لإنسان أن يحيط بها سيرا على الأقدام فى شهور، وتكاد تنطق بذلك حركة الطيران التى تطوى المسافة بين مشرقها ومغربها وشمالها وجنوبها فى ساعات محدودة .. ونكاد نراها من قمر صناعى فى السماء على أنها كرة بحجم قبضة اليد.

وبالتالى لو تراكم على الأرض خلق عصرين من الزمان لضاقت عليهم الأرض بما رحبت .. فما بالنا لو تراكم عليها خلق ملايين العصور.. لاستحال لمخلوق أن يجد عليها موطنا لقدم .. وهكذا.

وإذا كان البعث يشمل الخلق جميعا على اختلاف العصور، بل ما هو أكثر يكون لكل فرد منهم جنات وعيون، فلابد أن يكون البعث على أرض غير محدودة المدى أى لا يحدها قيد المكان.

وبالتالى لا يمكـن أن تكـون الأرض التـى نحيـا عليهـا ، وإنمـا هـى بالتأكيد أرض جديدة. وفى ذلـك تقـول الآيـة الكريمـة" *يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار* " [1] .

ولكن كيـف يتـأتى أن تكـون هنـاك أرض بـلا نـهايـة بمنطـق العقـل المجرد ؟

لا يمكـن أن يـدرك العقـل البشـرى أرضـا بـلا نهايـة، إلا إذا أدرك باليقين قدر جلال الخالق وقدرته. إذ لو أمكـن للإنسـان أن يـدرك أنـه فـى مواجهة خالق له قدرات غير محدودة تفوق الخيال والتصـور، لأمكـن بعـد ذلك أن يسلم بالكثير مما يفوق طاقاته العقلية بالنسبة للكثير من الغيبيـات، ومنها ذلك الوجود الذى ينتظرنا بعد الرحيل عن الحياة الدنيا ....

ولكنا مع ذلك سنساير المنطـق العلمـى المجـرد مـداه ولا نـعـول إلا على ما يقبله منطق العقل ، ومن ثم فإن المنطق يقضـى بأن الأرض التـى تستبدل بالأرض التى نعيشها فى حياتنا الدنيا، لابد وأن تكون بالقدر الـذى يفى باحتياجات الحياة الآخرة التى يعيشها الخلق أجمعين إلى أبد الآبديـن، حيث يسكن كل منهم حسب مرتبته ودرجته التى نالها بعد اجتيازه لاختبار الحياة الدنيـا، فـى المكـان المعـد لـه فـى الحيـاة الآخـرة، والـذى قـد يصـل بالبعض لحد أن تكون له جنات وعيون وأنهار وقصور.

ولنـا أن نتصـور مـدى مسـاحة الأرض التـى تفـى باشـبـاع حاجـات الخلـق أجمعين - الأوليـن والآخرين - بالنسبة لمسـاحة الأرض التـى نعيشها، إذا ما تصورنا الحياة الدنيا على أنها دار اختبار أقرب مـا تكـون

---

[1] سورة إبراهيم ، آية ٤٨.

بلجنة الأمتحان الكل واردها فى تتابع لا ينقطع، حيث يؤدى امتحانه ثم يذهب بعد ذلك كل منهم إلى واقع حياته الخاصة والعامة ليشغل مكانته بقدر نجاحه فى هذا الامتحان. وقد يغطى هؤلاء الخريجون مساحة قطر أو إقليم بأكمله.

ومن ثم يمكن أن نتصور مساحة هذا الإقليم أو القطر الذى قد يصل إلى آلاف الأميال المربعة بالنسبة لمساحة لجنة الامتحان التى لا تجاوز مساحتها بعض امتار محدودة .

وهكذا يمكن أن نتصور مساحة الأرض فى الحياة الآخرة التى وسعت كل شىء جمعا وعدا، بالنسبة لمساحة الأرض فى الدنيا التى يتداول فيها كل شىء وترا وفردا.

ولو أخذنا على هذا التدليل السابق أنه يقوم على فرضية عقائدية أساسها الإيمان المسبق بالبعث لكل الخلق فى يوم معلوم، والأصل أننا نبحث الموضوع بمنطق العلم المجرد .... ومن ثم كيف أن نتصور أرضا بلا حدود فقط من خلال منظور علمى ؟

الواقع أنه يمكن إدراك أرض لا يحدها قيد المكان، إذ سلمنا أن هذه الأرض هى فى حياة ينعدم فيها قيد الزمان بالمفهوم الذى نعرفه، وإنما هو زمان لا نهائى، حيث أن الآخرة هى محطة الوصول التى يستقر فيها المقام ... وقد سبق أن بينا أنه طالما لا توجد فى الآخرة شموس وأقمار وأجرام، وبالتالى حركة دوران لها، فلا يوجد فيها دورة عنصر الزمان ، وإنما الحال هو البقاء والخلود التى لا يحدها قيد زمنى.

وإذا سلمنا بلانهائية الزمان علينا أن نسلم بالمفهوم العلمى بانعدام قيد المكان، بمعنى أن يكون المكان لانهائيا وغير محدود.

وتفسير ذلك علميا أن المساحة التى تمثل حدود أى مكان، هى حاصل ضرب مسافتين : إحدهما تمثل مسافة الطول وأخرى تمثل مسافة العرض، حيث تتحدد فى النهاية مساحة المكان الكلية. وهى حاصل ضرب الطول فى العرض.

ولما كانت المسافة بين أية نقطتين هى حاصل ضرب السرعة فى الزمن، بمعنى أن المسافة بين القاهرة والإسكندرية تحسب على أساس السرعة التى تقطعها عربة تسير بسرعة ١٠٠كم فى الساعة فى الزمن الذى تستغرقة الرحلة والذى قد يبلغ ساعتين .. ومن ثم فإن حساب هذه المسافة يقدر بالآتى :١٠٠×٢= ٢٠٠ كم .. وهكذا تكون المسافة بين القاهرة والإسكندرية مائتى كيلو متراً .

وترتيبا على ما تقدم فإنه إذا كان الزمن لانهائيا فإن المسافة تكون لانهائية، إذ أنه بحساب ١٠٠ كم × لانهائى = لانهائى. ذلك أن عربة تسير بسرعة ١٠٠ كم فى الساعة ولكنها ستظل تسيير إلى مالا نهاية فإن المسافة ستكون ما لانهاية.

وإذا كانت المسافة فى حالة خلود الزمن تساوى مالا نهاية ، فإن المساحة بدورها تساوى مالا نهاية ، إذ هى حاصل ضرب الطول فى العرض أى مالا نهاية فى مالا نهاية.

وهكذا فالأرض فى الحياة الأخرى التى ينعدم فيها قيد الزمن – الذى نعرفه – لا تعرف قيود المساحة التى تحد المكان .. وإذا انعدم قيد المساحة كان المكان غير محدود أى لا نهائى.

سيقولون ان الأمر بعيد عن التصور والإدراك الحسى ....

قل وما تراه فى الأحلام - والقياس هنا مع الفارق - وأنت تجالس صديقا لك فى أمريكا .. بل وأنت تسايره شوارعها وميادينها .. إنه فى إطار ما يحكمنا من قوانين اليقظة ومنها قيود المكان يستحيل أن يكون ما نراه فى الأحلام حقيقة، إذ يتطلب الرحيل لهذا المكان الذى نراه قطع مسافات ومسافات دونها ذلك الراقد فى ثبات عميق.

بينما هى فى قوانين النوم قد تكون حقيقة، ذلك أنه ليس بالضرورة تفسير ما نراه على أنه رحلة للنفس انتقلت إلى حيث المكان الذى يشاهده النائم بما يستلزمه ذلك من وقت وقطع مسافات، وإنما قد يكون ما يراه النائم فى إطار قوانين النوم هو معايشة المكان الذى يراه حقيقة، حيث أن المكان فى النوم يتسع ليكون كل مكان، طالما ليست هناك قيود من مسافات ومساحات، وإنما هى مسافات ومساحات غير محدودة.

وهكذا فالمكان حتى فى قوانين النوم ملؤ الأرض وقد يجاوزها إذ ما كان الحلم سطح القمر أو غيره من الافلاك والنجوم .... وبمعنى أصح يمتد المكان - طالما ليست هناك قيود من مسافات ومساحات - ليكون كل مكان فى لا نهائية مطلقة.

رابعـــا
كيفيــة البعــث

ثار جدل كثير حول الكيفية التى يتم بها البعث، وتعددت الآراء، وذلك على النحو التالى :

١ - **ذهب البعض إلى استحالة أن يتم البعث بعودة الروح إلى الجسد،** إذ كيف لهذا الجسد وقد تحلل إلى تراب الأرض وأصبح عظاما نخره، واختلط بغيره من بقايا الأجساد، أن تعاوده الروح مرة أخرى ويستوى من جديد على عوده، ويتخذ سيرته الأولى ممشوقا متكامل الأعضاء على نفس شكله وهيئته !!

وحتى على فرض أن الجسم عاود بنيانه، فكيف للروح ألا تخطئه وقد فارقته لملايين السنين بحيث أصبح هذا الجسد بتوالى العصور والأزمان أحد ملايين الملايين من الأجساد، وقد يكون بفعل الطبيعة وتغير التربة والبيئة قد فارق مكانه إلى آخر قصى، ومن ثم يستحيل على الروح أن تتعرف على هذا الجسد وسط هذا الكم الهائل من الأجساد.

وإزاء هذه الإستحالة أنكر هؤلاء البعث أساسا وبالتالى الحياة الأخرى، والثواب والعقاب، ومن قبل ومن بعد الأديان التى تدعو إلى ذلك. وكانت عقيدتهم " *وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا فيها وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا*

يظنــون " [١] ، إذ كيـف *" أئــذا متنــا وكنــا ترابــا وعظامــا أئنــا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون "* [٢] .

إنها حقا فوق مستوى إدراكهم الذى يحكم على مثل هـذه الغيبيـات بقدر طاقاتهم وإمكانياتهم البشرية، بحيث لو تجاوزتها فـإن منطقهم يقضى بإنكارها.

٢ - **ذهب البعـض الاخـر إلـى صعوبـة البعث علـى هـذا النحـو .. فقـام بتيسيره على الخالق..** وذلك بتحنيط الأجســاد والحفـاظ عليهـا بكـل مقوماتها وأعضائها وهيئتها حتى لا تخطئها الروح يوم البعث. بـل وما هو أكثر الحفاظ علـى نفس الموقـع الـذى عايشـه الإنسـان فـى حياته وذلك بدفن الجسد المحنط فيه، حتى لا تخطئ الروح العنـوان يوم البعث ، ويمكن أن يهديها إلى ذلك بعض الخرائط والعلامات.

٣ - **ذهب فريق ثالث إلى أن البعـث يمكـن أن يتـم بعـودة الـروح فقـط،** وإن كـان لابـد لـلروح مـن أن تلتقـى بجسـد فليكـن بـالصورة التـى تناسـب حياتـه الأخـرى. ورتبـوا علـى ذلـك أن الجـزاء فـى الحيـاة الأخرى من نعيم وسعير، قد يكون معنويا ونفسيا، وليس بالضـرورة جسـديا. ومعـروف أن الجـزاء النفسـى قـد يجـاوز فـى مـداه ووقعـه الجزاء البدنى.

والملاحظ أن هذه الآراء والمذاهب، يجمعها قصور الفكر وانحصار منظورها العلمى فى حدود ضيقة، لا تتفق وقدر المقام الذى نتناوله.

---

[١] سورة الجاثية ، آية ٢٤.

[٢] سورة الصافات ، آية رقم ١٦، ١٧.

فإذا كان ما نتكلم عنه هو البعث وكيفيته، فهو مقام يرتفع بنا لعليين حيث الحياة الأخرى الأبدية، ومن ثم كان لزاما أن يسمو الفكر إلى حيث المقام، **فتكون النظرة فوقية جامعة تصل إلى حيث الهدف من البعث ، حتى يمكن أن نتعرف بعد ذلك على كيفيته بطريقة علمية مجردة.**

ولما كان الهدف من البعث – على نحو ما سيبين فى الفرعية القادمة – هو مواصلة الحياة بالجسد والروح لتكتمل للنفس مسيرتها فى الحياة الآخرة، لذا فإن البعث يتناول الأجساد التى هى من تراب الأرض.

أما كيف تحيا هذه الأجساد بعد موتها، فليس هناك أبلغ مما جاء بالشريعة الخاتمة حين تصدت بالإجابة على هذا التساؤل بقولها فى الآية الكريمة .. " *أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * **قل يحييها الذى انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا انتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلا وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون* " [١] .

والواضح من هذا الاستشهاد الذى ورد بالنص أنه استشهاد علمى محض يخاطب حتى العقول الغلف، ذلك أن **المنطق يقضى بأن القادر على الخلق حيث الابتكار والتصور، أيسر عليه بمراحل تكرار صنعته، حيث لا يتطلب ذلك إلا مجرد استرجاع ما سبق فعله.... وهكذا، فالقادر على الخلق أولى به القدرة على البعث.**

---

[١] سورة يس ، الآية من ٧٧ – ٨٣.

وإذا كان الخلق قد تم بقدرته وصار قدرا مفعولا، فالبعث القادم بمشيئته إنما هو بالأولى أمرا ميسورا .... حقا ما أيسر أمره الذى جبل هو أيضا على الطاعة والامتثال **فكان قدره** *" إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون "* **وأجل قدره حيث** *" أنه بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون "*

وقد ضرب القرآن الكريم لكيفية البعث مثلا حيا لأناس أرادوا اليقين بقدرة الخالق على البعث، فكانت الآية الكريمة *" أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها* ***فأماته الله مائة عام ثم بعثه*** *قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس، وأنظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير "* [١] .

كما صور الكتاب المنزل مشهدا عظيما يبين كيفية البعث من حيث واقعه الفعلى المنتظر، حين ورد عن الحق فى الآية الكريمة *"ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كان إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون "* [٢] ، وسياق الآية الكريمة أن البعث يبدأ بنفخة الصور التى هى إيذان من الخالق بعودة الروح إلى الأجساد.

ومتى عاودت الروح أجسادها تكامل للنفس بنيانها من جديد (الروح والجسد الذى ينهض من الأجداث) وصارت محل الخطاب وذلك بقوله

---

[١] سورة البقرة، آية ٢٥٩.

[٢] سورة يس : الآية ٥٢ – ٥٣

الحق " *فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون* " "وهم" تصدق على الانفس (التى هى الأنا والهو والأنت حسب توجه الخطاب) ومتى تكامل البنيان النفسى عاودتها الفطرة بكل ما فيها من خوف وهلع ويقظة ودهشة وذلك حين " *قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا* " وكان الرد الإلهى الذى نطق بالحقيقة التى كانوا فى مرية منها "*هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون* " [١] .

ثم ختم التصوير القرآنى مشهد هذا اليوم العظيم بقوله الحق " *إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميعا لدينا محضرون* " ولك أن تتصور مدى القدرة الإلهية المفعمة بالقوة والاقتدار التى تؤدى إليها مجرد صيحة واحدة صدرت بأمر ربها ، فإذا كل الخلائق جميعا وفى لحظة واحدة إلى ربهم محضرون أى مسوقون إلى حضرة الله ليبدأ الحساب" *فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون* " [٢] .

---

[١] سورة يس، الآية ٥٢.

[٢] سورة يس آية ٥٤.

الباب الثانى

الحساب

يبعث الإنسان يوم القيامة ليحاسب عما قدمت يداه من أعمال فى الحياة الدنيا، *" فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ماهيه * نار حامية "* [١] .

ونحن نتكلم عن الحساب من حيث مقارنته بالمحاكمة فى القانون الوضعى ثم عن بيان أهميته ، وطرق الإثبات فيه، والوقائع والتصرفات محل الحساب، وفى النهاية القانون المطبق.

أولا
مقارنة بين الحساب فى الآخرة والمحاكمة فى القانون الوضعى

الثابت فى علمنا (حيث نشاهد) هو نظام المحاكمة، والمرجح فى ظننا (حيث نتصور) هو نظام الحساب فى الآخرة .. وعلينا أن نبدأ بالثابت حتى نحيط بما نظن، ومن ثم نعرض أولا لنظام المحاكمة فى القانون الوضعى ثم نقارن بينه وبين الحساب فى الآخرة.

---

[١] سورة القارعة الآية : ٦ - ١١.

نظام المحاكمة فى القانون الوضعى :

يعتبر نظام المحاكمة أو بمعنى أصح حق المحاكمة العادلـة، خطـوة متقدمة جدا فى مضمار الحضارة الإنسـانية .. للحد الذى يمكن معه أن نقيس تقدم الحضارة بقدر ما وصلت إليه فى رعايتها لحق الإنسان فى المحاكمة العادلة.

ونظرا لأهمية هذا الحق، فقد نصت عليه المواثيق الدولية والدساتير الوطنية تحت مسميات مختلفة، باعتباره دعامة رئيسية من دعامات حقوق الإنسان.

والمحاكمة لا تكون إلا عن فعل مؤثم إرتكبه الإنسان، وتأثيم الفعل وتجريمه لابد أن يكون بنص موضوع سلفا فى القانون " حيث لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص فى القانون " وهناك العديد من الضمانات التى تضمن عدالة المحاكمة كحق المتهم فى الدفاع عن نفسه وإثبات براءته .... الخ.

وجه الشبة والخلاف بين المحاكمة فى القانون والحساب فى الدين :

وجه الشبه : تتشابه المحاكمة بهذا المفهوم مع الحساب فى الآخرة من حيث أن الحساب فى الآخرة بدوره يعتبر ضمانة رئيسية من أهم ضمانات حقوق الإنسان .... وأن الإنسان لا يحاسب إلا إذا كان هناك نص يحرم الفعل ...." *وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا* " [1] يبين لهم ما حرمه الله وما أحله.

وجه الخلاف : ولكن مع ذلك يظل وجه الخلاف بين المحاكمة والحساب قائما .... ذلك أن المحاكمة لا تكون إلا عن جرم ارتكب بقصد

---

[1] سورة الإسراء : الآية ١٥.

تحديد العقوبة المقررة لهذا الفعل، بينما الحساب أوسع وأعم إذ يشمل بالإضافة إلى تقرير العقوبة عن الفعل المحرم ، تحديد الثواب عن فعل الخيرات.

والمحصلة : أن التسمية بيوم الحساب فى الآخرة أصح من حيث التعبير والمدلول القانونى من يوم المحاكمة.

ثانيا
أهمية الحساب

الواقع أن الحساب يوم القيامة له أهمية بالغة، إذ أنه يجعل للحياة الدنيا التى نعيشها قيمة ومعنى، إذ يكفى أن يشعر الإنسان أن ما يقوم به من أعمال ستكون محل التقدير والحساب فى الآخرة. أى أن هناك هدفا يسعى إلى تحقيقه الإنسان من وراء سعيه فى الحياة الدنيا.

وما أدل على ذلك ما قرأته عن إمرأة فرنسية أسلمت وتزوجت من مصرى حين أجابت عما أعجبها فى الإسلام، فقالت كنت انفق بعض مالى على الفقراء حبا فى العطاء وإرضاء لنفسى، ولكننى علمت بعد إسلامى أن ما انفقه رصيد باق لى يوم الحساب . . . . فكان حبى للإسلام الذى جعل لعملى هذا قيمة ومعنى فى حياتى المقبلة.

وهكذا فإن الحساب فى الآخرة يجب أن يكون شاغل الإنسان طيلة مسيرته فى الحياة الدنيا، وبالتالى لا يغفل عنه لحظة ولا يفوته عند القيام بتصرف، ذلك أن مجرد سهو الإنسان عن الحساب:

١ - يفقد العمل والتصرف وزنه عند التقدير،على نحو ما سيبين عند التعرض لمحل الحساب.

٢ - قد يميل بالتصرف إلى حيث هوى النفس ومرضاة الشيطان، فيرتكب الخاطئ من الأعمال .
وهنا تظهر أهمية التذكرة بالحساب، إذ حتى لو وقع مثل هذا التصرف الخاطئ فى غفلة من الإنسان بيوم الحساب فعليه أن يلوم نفسه ويعنفها ويقهرها على تصرف آخر أكثر طاعة لله.
والحقيقة أن هذه النفس اللوامة لها درجاتها عند خالقها، لأنها قد لا تقاوم فى بعض الحالات شهواتها وجنوحها .... ولكنها لا تستسلم لضعفها وإنما هى تقاومه بعدم مرضاتها لما اقترفته ... وتزيد فى كبحها بقهرها على الباقيات من الأعمال عوضا عما فاتها من الفانى منها.

٣ - والتذكرة المتصلة فى الدنيا بيوم الحساب لا تفيد فقط من يتق الله أملا فى المزيد، وإنما هى تفيد حتى العاصى والكافر بالله.
ذلك أن العاصى قد يلين قلبه وتتفجر فيه طاقات الخير إذا ما اتصل فكره بالحساب، ومدى الجرم الذى يلاقيه عن عمله فى يوم لا تزر فيه وازرة وزر أخرى ولا تنفع فيه الشفاعة والأمر يومئذ لله.
وقد يجد الكافر بدوره فى الحساب ورهبته بدوره صحوة لفكره المتبلد وقلبه المتحجر، فينقلب بنعمة من الله من الكفر إلى الإيمان.

٤ - والإيمان بالحساب هو قمة الإيمان بالله .... ذلك أن من يؤمن بالله، فإنه يخشاه فى كل تصرفاته وأفعاله، حتى يلاقى ربه بقلب سليم وعمل طاهر ونية حسنة فيكون له الفوز يوم العرض عليه.

ومن الناس من يؤمن بالله حبا وطواعية .. ولكن حتى هذه فيها التعلق بالحساب .. ذلك أن نتيجته هي شهادة الحب والعبادة الخالصة .

ونظرا لهذه الأهمية البالغة لليقين بالحساب، فإنه يجب أن يكون شاغل الإنسان في حياته الدنيا، وخير ما يعينه على ذلك هو أن يقهر نفسه ويدربها على الحساب عند كل تصرف، وإن تعذر فمرة في يومه يجمع فيها شتات أعماله وتصرفاته .... وقد سبق أن ذكرت أني قرأت عن إحدى الطرق الصوفية، أن اتباعها يعيشون ساعة الموت حتى نزول القبر وحضور الملكين، حيث يجري حسابهم عن حصيلة أعمالهم في ذلك اليوم.

وقد مارست هذه التجربة لسنوات حتى اعتدتها فكانت خير رقيب وحسيب على كل ما أمارسه من أعمال وتصرفات.

ثالثا
طرق الإثبات يوم الحساب

تتعدد طرق الإثبات في القانون الوضعي وتتنوع وسائله، وذلك بهدف إثبات الحقوق المدنية أو الجرائم الجنائية : فهناك الدليل، والبينة (شهادة الشهود)، والقرائن، والإقرار، واليمين .... الخ، وكلها ترمي - رغم تدرج قوتها - للوصول إلى حقيقة الواقع للحق المتنازع عليه.

وقد انفرد موضوع الإثبات بمؤلفات في القانون واحتل مكانة هامة في المحاكم وعند المتقاضين .. إذ ليس المهم أن تكون صاحب حق وإنما

الأهم أن تثبته .... وأكثر القضايا لا يحكم لاصحابها رغم أنهم أصحاب حق ...، لعجزهم فى الواقع عن إثبات هذا الحق .. رغم كل هذه الطرق المتعددة التى خولهم القانون إياها. وحتى إذا قضى لصالح شخص أو ضده، فإنما ذلك إعتمادا على وسيلة الإثبات ومدى صدقها وفى ذلك ورد ذلك القول المأثور فى الشريعة الخاتمة " قاتلاك شاهداك " أى أن الذى قتلك هم فى الحقيقة الشهود عليك، وليس قاضيك .

ولم يصل القانون الوضعى فى أية دولة من الدول حتى المتقدم منها، أن يستعرض واقع الجريمة أو وقائع الحق المتنازع عليه لاستحالة العودة بالزمن إلى الوراء ... وإن كانت هناك محاولات لم يتحقق لها بعد النجاح لالتقاط صور لأحداث مضت لفترة وجيزة من خلال ما تتركه الأجسام من طاقة.

والهدف يوم يصل العلم إلى هذه النتيجة أن يكون هناك دليل قطعى لا يقبل أى مناقشة أو جدل حول صحة الواقعة . وهنا تنتهى الخلافات التى تشغل المحاكم لسنوات حول إثبات هذه الوقائع [1] .

والعجيب حقا أن الحساب الإلهى للناس قد وصل إلى هذا الدليل القطعى الذى يجاوز الاعتراف فى قوته .. **حيث يجد الإنسان شريط أعماله فى الحياة الدنيا محضرا يوم الحساب** .... نعم

---

[1] والملاحظ أن بعض الدول المتقدمة قد توصلت فعلا لوضع كاميرات الفيدو الخفية فى المحلات التجارية والبنوك لتصوير ما قد يحدث من عمليات السطو والسرقة فتواجه المتهم بدليل قطعى لا يقبل الجدل، إلا أن هذه الوسيلة مازالت قاصرة على بعض الدول وبعض المحلات الكبيرة وفى إطار بعض الأماكن المحدودة وبالتالى لم يصل الأمر بعد لأن تكون مع الإنسان فى كل تحركاته وسكناته فى ليله ونهاره .... الخ.

إنه شريط أعماله بكل ما فيه، من صغيرة أو كبيرة وكل ما أظهره أو أخفاه، حتى إذا ما حاول أن ينكره شهدت عليه جوارحه وأعضاء جسمه *" اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون "* [١] .

وهكذا نصل إلى أن :

١ - الإثبات يوم الحساب ينفرد بوسيلة خاصة في الإثبات، تفوق في صدقها ويقينها كل الطرق والوسائل المعروفة لدينا في القوانين الوضعية، وهي استعراض واقع الفعلة أو الحدث .

٢ - كما وأن الإثبات يوم الحساب يفوق حتى أكثر الطرق المعروفة عندنا عن الإثبات وهو الدليل الكتابي في مجال إثبات الحقوق، إذ أن هذا الدليل لا يعتبر حجة على الغير فيما يتعلق مثلا بنقل ملكية العقار إلا إذا سجل عقد البيع في الشهر العقاري .... في حين أن الإثبات الإلهي لكل أعمال الإنسان أيا كانت هذه الأعمال (خيرا أم شرا) وأي كان حجمها أي حتى ولو كانت بحجم الخردلة، وأيا كانت ما تتعلق به (أمور الدنيا أو أمور الدين) إلا ويتم حصرها وكتابتها .... بل وما هو أكثر تسجيلها في وقتها بمعرفة حفظة كاتبين عن اليمين والشمال قعيد [٢] ، لايعصون لله أمرا ويفعلون ما يؤمرون.

---

[١] سورة يس ، آية ٦٥.

[٢] " إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " سورة ق آية ١٧، ١٨ ، وأيضا " وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين، يعلمون ما تفعلون " سورة الانفطار آية ١٠ - ١٢.

حقا إنه قمة الإعجاز أن يحدثنا التقنين الإلهى عن وسائله فى الإثبات فى الآخرة التى لم يصل إليها إدراكنا بعد وهو استرجاع واقع التصرف أو الفعل بحيث يصير محضرا.

وحتى فى إطار ما نعرفه يحدثنا عن اسلوبه الذى فاق فى إحكامه وتقدمه ويسره كل الطرق المعروفة ، إذ لك أن تتصور أن الإنسان يتحرك ويفكر ويصحو ويغفوا يرافقه جهاز يفوق فى صدقه وإحكامه جهاز الشهر العقارى بكل ما فيه، يدون كل أفعاله وتصرفاته وحتى ما يدور داخل فكره ويسجله عليه لوقته، فى حين أنه قد لا يذهب إلى الشهر العقارى فعلا إلا مرة فى حياته، وقد لا يذهب إليه أبدا .

والعجيب أنه فى إطار مالا نعرفه من وسائل الإثبات عندنا، وهى شهادة بعض أعضاء الجسم كالأرجل والأيدى يوم الحساب، وما كان يثيره ذلك من دهشة .. **إذ كيف لهذه الأعضاء أن تشهد على الإنسان وهى تصلى معه نار الحريق ؟**

إلا أن الإجابة الآن أصبحت واضحة بعد أن تبينا أن هذه الأعضاء لها كيانها المستقل الخاص بها، بحيث يمكن أن تؤدى وظيفتها فى هذا الجسم أو ذاك بعد نجاح عمليات نقل الأعضاء وزراعتها.

وبالتالى أصبحت هذه الأعضاء بالنسبة للإنسان **من الغير الذى تجوز شهادته** والأهم أن هذه الشهادة فعلا قاطعة إذ أنها صادرة عن عضو جبل على الصدق باعتبار أن ما يحكمه هو القوانين التقريرية التى تحكم الأشياء.

ولن يجدى هؤلاء إخفاء واقع الجريمة بلبس قفازات لستر بصمات هذا العضو فى الحياة الدنيا، إذ أن هذا العضو سينطق بشهادته يوم الحساب فى الآخرة حتى ولو كبلوه بقفازات من حديد، حتى ولو شارك بقية الجسم عذاب الحريق.

رابعا
الهدف من الحساب

الحقيقة أن الإنسان إنما هبط إلى الأرض وعاش حياته الدنيا لتحقيق هدف أراده الله تعالى، وهو إعمال الحكمة الإلهية من وراء الأمر الإلهى للملائكة للسجود لآدم بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه. والتى سلم بها الملائكة وعارضها الشيطان، بدعوى أن الله قد خلقه من نار وخلق الإنسان من طين.

ومن ثم كان الصراع فى الحياة الدنيا بين الشيطان الذى يريد أن يثبت لخالقه أنه الأعز بأصل خلقته من النار وينتقم من الإنسان الذى جره إلى هذه الهاوية، وبين الإنسان الذى عليه أن يثبت أنه أهل الخلافة فى الأرض بتسوية الخالق له، وانفراده بنفخة الروح الإلهية رغم طبيعته البشرية وأصل تكوينه من تراب الأرض.

وهو صراع له طبيعته الخاصة، لأنه ليس بين ندين يتعاملان بنفس السلاح، وإنما هو بين خصمين لكل منهما طبيعته الخاصة وسلاحه المتميز عن الآخر. ومن ثم فالهدف من الصراع يختلف بالنسبة لكل منهما على النحو التالى :

١ – الشيطان

أولا – فالشيطان من طبيعة نارية والطبيعة النارية من خواصها أنها شديدة الانفعال، تتأجج من مستصغر الشرر لا تبقى ولا تذر. وهذه الطبيعة النارية أيضا تجعله من تردد أعلى من طبيعة الإنسان المادية ومن ثم تجعله نفاذا لا يرى، وبالتالى فهو يرى الإنسان ويتوغل داخل أعماقه ويسرى فى جسم الإنسان سريان الدم فى العروق، وبالتالى يطلع على كل تحركاته وسكناته، ولا يستطيع أن يراه الإنسان ولا أن يحيط به طالما أنه خفى عنه.

ثانيا – وسلاح الشيطان فى صراعه مع الإنسان يتفق وطبيعة تكوينه النارية، ومن ثم يتوغل داخل نفس الإنسان ليشعل نار الفتنة ويأجج فى الإنسان ثورة الغضب حيث يفقد الإنسان السيطرة و التحكم فى الأمور بمنطق العقل، ويلهب فى الإنسان شهواته ورغباته بحيث يقوده إلى مواقع الذلة والخطأ.

والهدف الذى يسعى إليه الشيطان فى النهاية هو أن يجر الإنسان للخروج على طاعة الله وعصيان أوامره ونواهيه ليصير من حزبه، فيؤكد الشيطان منطقة فى الخروج والاعتراض على الحكمة الإلهية من وراء **الأمر الإلهى بالسجود** لآدم. وهكذا طلبها الشيطان حين *" قال أرءيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفورا * "*[1] .

---

[1] سورة الإسراء ، الآية ٦٢ – ٦٣.

٢ - الإنســــان

أولا - والإنسان من طبيعة مادية صلبة وهى الطين ومن ثم تتأجج فيه شهواته البشرية وغرائزه الحيوانية، ولكنه مزود بتلك التسـوية العقليـة التى جعلت عنده القدرة على التحكم فى تلـك الشـهوات والغرائـز، وأيضـا النفخة الروحية التى أمدته بالذات المختارة التـى ابت السـموات والأرض والجبال أن يحملنها واشـفقن منهـا وحملهـا الإنسـان لأنـه كـان فـى الواقـع ظلوما جهولا.

فأمانة الأختيار والمفاضلة بين البدائل جد عسيرة، خاصة وإذا تعلق الأمر بقهر النفس وكبت الشهوات وكبح جماح الغرائز، والأهم الانتصـار على الشيطان بكل قوته واعوانه ووسائله..كل ذلك طاعة ومرضاة للخالق وإعمالا للحكمة الإلهية الكامنة وراء الأمر الإلهى للملائكة بالسجود لآدم.

ثانيا : وأما سلاح الإنسان فى صراعه مع الشيطان فهو كامن فـى تلك التسوية العقلية التى منحها الخـالق إيـاه ... ذلـك أنـه بـالعقل يسـتطيع الإنسان أن يعى مكر الشيطان ويغالب الاعيبه، ويسيطر ويتحكم فى دهائه فلا يترك للشيطان من سبيل ينفذ منه إلى حيث كوامن نفسه.

ثم أنه بالعقل يسـتطيع أن يتفهـم رسـالات السـماء، ويتعـرف بجـلاء حقيقة دوره فى الدنيا وموقعه من الصراع مع الشيطان، بعد أن يتجلى لـه من نصوص الشريعة ما غاب عنه عن عدوه الشيطان.

كما أن سلاح الإنسـان أيضـا كـامن فـى تلـك الـذات المختـارة التـى تحمـل الإرادة أو المشيئة، التـى إذا اسـتطاع الإنسـان أن يكشـف عنهـا

الحجب من حوائج دنيوية زائلة وشهوات جسمانية فانية، ويطهرها ويزكيها بالطاعة ويوجهها فى إتجاه مصدرها الأعلى. لكانت أقوى من كل اسلحة الخلق أجمعين بما فيهم الشيطان وغيره *"إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين"* [1] .

وعلى ذلك فوسيلة الإنسان فى قهر الشيطان هى :

١ - **إعمال العقل فى كل التصرفات،** ذلك أن العقل هو القيد على جنوح النفس وغلبة الشهوات والغرائز، فإذا احكم القيد أمكن السيطرة على مثل هذا الجنوح والهوى .... وقد حرمت الرسالة الخاتمة الخمر وكل ما يذهب العقل حتى لا يجد الشيطان على الإنسان سبيلا.

٢ - **الالتزام بأحكام الرسالات السماوية** سواء كان هذا الإلتزام فيما يتعلق بأحكام العبادات، أم كان فى المعاملات :
ذلك أن العبادات - كما سبق أن ذكرنا فى موضوع سابق- بالإضافة إلى أنها طاعة لله فهى تحصين ضد نفوذ الشيطان وسلطانه على الإنسان حيث لا سلطان للشيطان على عباد الله المخلصين.
والمعاملات بدورها تمثل الصراط المستقيم الذى يجب أن يسود علاقات البشر، وكل ما يملكه الشيطان أن يقعدن لهم على الصراط ترقبا لإنسان يحيد عنه فيتلقفه، أما من التزم الصراط فليس للشيطان عليه سبيلا.

وهكذا يدور الصراع بين الشيطان والإنسان فى الحياة الدنيا.

---

[1] سورة الحجر : آية ٤٢.

والهدف المطلوب من الإنسان من هذا الصراع المفروض عليه مع الشيطان :

أن يؤكد أنه يستحق الخلافة فى الأرض، وأن له الغلبة على الشيطان رغم خداعه وأساليبه وطاقات الشر فيه، وهو أمر ليس بالمستحيل ذلك أن كيدالشيطان - مهما بلغ حجمه وعلا شأنه - كان ضعيفا.

وأن يعمل الحكمة الإلهية من وراء خلقه وهى أنه الأعز بين باقى المخلوقات بنفخة الروح الإلهية فيه - رغم طبيعته البشرية التى تم تسويتها تسوية عقلانية مبصرة - حيث إرادة التصرف والاختيار بين البدائل ، فيوجهها شطر قداسة الحق والنور ملتزما طريق الدين فى العبادة مع الله والمعاملة مع الناس، ويتجنب طريق الشيطان فى الخروج عن طاعة الله وإتباع طريق الباطل والهوى.

خامسا

محل الحساب

بعد أن بينا حقيقة الصراع بين الإنسان والشيطان فى الحياة الدنيا ، والهدف المطلوب من الإنسان فى هذا الصراع فى حدود ما زوده الله به من وسائل لتحقيق هذا الهدف .. **فمن البديهى أن يكون محل حسابه فى حدود ما التزم به تحقيق المطلوب من عبادة للخالق، وبقدر ما ابتعد به عن طريق الشيطان.**

وبمعنى آخر يكون حسابه بقدر ما قام به من أعمال الخير وما ابتعد به عن أعمال الشر.

والمقصود هنا بأعمال الخير هى أعمال الخير بالنسبة للإنسان نفسه، وهى تمثل ما يحققه لنفسه من رصيد حسنات عن أعمال فى مجال العبادة لله، والمعامله مع نفسه والآخرين .. حسبة وطاعة وامتثالا لله، والتزاما بنهج الشريعة ومنطق العقل فى تصريف الأمور صغيرها وكبيرها، بحيث تكون فى النهاية خالصة لله حتى ولو كانت هذه الأعمال ليس لها نفعا دنيويا له .... **إذ يكون الإنسان قد حقق الحكمة الإلهية من وراء خلقه ويستحق أن يباهى الله به ملائكته يوم العرض العظيم.**

والمقصود بأعمال الشر بداهة هى أعمال الشر بالنسبة للإنسان، بمعنى أنها الأعمال التى تفقده رصيده فى مجال العمل الدينى حتى ولو كان العمل ذاته يمثل نفعا للإنسان فى مجال العمل الدنيوى .. **طالما كانت غايته تحقيق الذات أو إرضاء الشهوات .. إتباعا للشيطان فى تزيين أمور الدنيا للإنسان ليلهيه بها عن إتباع طريق الله.**

ومن حصيلة ما يدور داخل هذا الصراع بين الإنسان والشيطان، والغاية من هذا الصراع يمكن تحديد الأعمال التى تكون محل الحساب فى الآخرة، وهى لا تخرج عن :

الكيفية التى يؤدى بها الإنسان دوره على مسرح الحياة.

وقيامه بالتصرف الدينى.

وبيان ذلك تفصيلا يتضح من الآتى :

أولا
كيفية إداء الإنسان لدوره على مسرح الحياة

بينا سلفا أن الإنسان على مسرح الحياة مقدر له دور يلعبه ويؤديه ليس له فيه خيار وإنما هو قدر مكتوب، فهذا أمير وذاك فقير وثالث ضرير ورابع جميل .. وهكذا.

فالإمارة والفقر والمرض والشكل كلها أدوار توزع على الإنسان ليس له فيها مشيئة، **والمطلوب منه أن يؤدى دوره باقتدار**، ذلك أن ميزانه فى الحساب يكون على حسب إتقانه لهذا الدور.. فبقدر صبر الإنسان على الفقر والمرض، وبقدر شكره على الغنى والجمال، يكون الحساب .... وهكذا.

ولكن هل يستوى دور الفقير والغنى !! حقا إنه ليس اختيار الإنسان وإنما هو قدره .. ولكن مع ذلك فمن يؤدى دور الغنى له من نعيم الدنيا ما يفوق بمراحل دور الفقير للحد الذى يخل بالتساوى فى المراكز النسبية عند النظر فى تقدير الجزاء .... ولك معى جولة نطوف بها إنفعالات هذا الصبى الذى جاء لتوه من القرية ليخدم عند علية من القوم وهو يرقب تلك الأنواع الشهية من اللحوم وهى تتدفق على مأدبة العشاء - التى شاء القدر أن أكون أحد المدعوين لها - وقد أخذت تتضاءل رويدا رويدا رغم كثرتها .. نعم لقد كان يتلوى مع حركة اللحوم وهى تملآ الأطباق وتختفى .. حقا كنت أرقبه من أول لحظة فقد أحاطنى سهم مسلط من نظراته شغلنى عما أنا فيه لأتابعه بكل انتباهى، وكان ذلك يسيرا فرغم ضآلة جسمه وصغر سنه كان بريق عينية يتوهج مع كل قطعة لحم تبرز وتختفى، فيشع

فيه الأمل وقت أن تظهر على الساحة وتصيبه الحسرة وهى تتلاشى، إلى أن تباطئت حركة هذه اللحوم وانعدمت وانصرف الجميع فاكهين، إلا من طفل صغير مدلل تجاوره أمه كانت قد تكدست أمامه الكثير من قطع اللحوم، تأمره والدته بين الحين والحين تناول هذه حتى إذا ما أعرض فتكون الثانية . . وإذا ما خاب الأمر كان الرجاء . . . . والصغير المدلل مصر على عناده رغم كل المحاولات . . فتسلطت عليه نظرات هذا الجائع المترقب، وقد انكمش على عوده أكثر وأكثر كما لو كان يستعد للإنطلاق ، يحدوه الأمل أن له من بين هذه القطع المتراصة من اللحوم إحداها أو على الأقل بعض من عظامها . ولكن سرعان ما انطفأ وهيج هذه النظرات وغمرت عيونه سيل من الدموع، عندما غافل ذلك الطفل المدلل والدته والقى بما أمامه من اللحوم إلى قطة كانت تقف بجوار قدميه أتت فى لحظات على هذا الكم من اللحوم، وعندها اصابنى دوار أشبه بالغيبوبة .

وقد أجاب مضيفى على سؤالى بأنه استحضر هذا الطفل شفقه على أهله بعد أن مات والده منذ أيام، تاركا إياه وثلاثة أصغر منه ووالدته المريضة . . وكان لابد لهذه الأسرة من عائل . . وكان مضيفى ينتظر أن أثنى على شهامته وبطولته . . وقد فعلت .

ولكن ما فعلته أكثر أن انطويت على نفسى اتساءل : حقا إن هذا الطفل قد قدر عليه أن يؤدى دور الطفل الذليل المهان الجريح الفؤاد المحروم، وكلها أحاسيس تعصف بالفؤاد وتدمى القلوب وتذهب العقول .... حياة حالكة دونها ظلمة القبور .. ونار حارقة دونها عذاب السعير.

والطفل الاخر المدلل الذى قدر له أن يؤدى دور وحيد والديه حيث العزة والمنعة، فهو قرة العين وغاية المنى، يجتر ما يأكل والداه، ويلهو

بما اكتنزاه، تنتظره الأشباح من السيارات، ويتجرع الشهد المصفى فى أكواب وأباريق وكأس من معين .... إنه يعيش فى جنات وعيون.

نعم تجمع الطفولة بينهما ويشتركان فى السن ويشتركان فى تنفس الحياة .... **ولكن هل يستويان مثلا ؟**

من قال أن من فاز بالنعيم كل النعيم فى الحياة الدنيا عن دور أداه فيها يستوى بمن أدى دورا كان ملؤه العذاب والضياع والمرض !!

نعم كلا الدورين مقدر ولكن " *ثم لتسألن يومئذ عن النعيم* " [1]، كلمات ملؤها التحذير لمن فاز بالنعيم فى الحياة الدنيا ، كما أنها بالمقابلة ملؤها العزاء لمن فاته هذا النعيم :

ذلك أن من فاز بالنعيم فى هذه الحياة قد نال قسطا يكفيه، وعليه إن أراد له الدوام، أن يضاعف الجهد ليلقاه فى الحياة الأخرى. **أى عليه القيام بعمل إيجابى فعال** قوامه الإدراك بيقين. أن هذا النعيم إنما هو مجرد إبتلاء يحتسب عليه، فيعيش دور الغنى دون أن يستشعره فى قلبه .. ومن ثم عليه الشكر عن النعمة والعمل بها والخوف دائما من عاقبتها (وهى جحود القلب والإفراط فى التمنى) وهذه وتلك عسيرة إلا على من كانت بصيرته نافذة وإيمانه كامل بيوم الحساب.

أما من فاته نعيم الدنيا وعاشها عيشة الحرمان والضياع والفقر والمرض، فعزاؤه أن لهذه الحياة امتدادا علويا من حياة أخرى يجد فيها ما فاته محضرا. كل ما عليه أن يجاهد ويصابر .. وهذه وتلك أيسر من

---

[1] سورة التكاثر : آية ٨.

الشكر على النعمة والعمل بها، إذ أنها مجرد عمل سلبى يفرض نفسه على الإنسان الذى عليه أن يتقبله بتسليم ورضا، وإلا كان قانطا من رحمة الخالق منكرا لعدله يوم الحساب.

وهكذا يجب أن يدرك الإنسان أن النعمة ليست دليل الرضا، وأن الفقر ليس دليل الغضب، وإنما كلاهما ابتلاء للإنسان وأدوار توزع عليه فلا يغتر بالنعمة ولا يجزع للفقر .. وفى ذلك تقول الآية الكريمة *" فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى اهانن "* [1] وقد حسم رب العزة هذه القضية بقوله الحق .... كلا .

أى أنها أدوار توزع ليس إلا، وإن كان حساب من ابتلاه ربه بالنعمة اشد عسرا ممن قدر الله عليه رزقه ... ومن ثم لا يغرنك بالله الغرور، واعلم أن من فاز بالنعيم هو من فاز فى النهاية يوم الحساب، وما النعيم فى الحياة الدنيا إلا متاع، وإنه فى الحياة الآخرة محل الحساب.

ثانيا
القيام بالتصرف الدينى

١ – ماهية التصرف الدينى

يجرنا التعريف بماهية التصرف الدينى، إلى ما سبق بيانه من أن

---

[1] سورة الفجر، أية ١٥، ١٦.

الوجود هو مسرح يحده الزمان والمكـان، أعـد تصميمـه وتزيينـه بطريقـة معينة تناسب الدور الذى يؤدية كل مخلوق تجاه خالقه فى هذه الخطة الإلهية الكبرى الذى لا يعرف كنهها إلا خالقها، وأن الإنسان قد تلقى نصيبه من هذه الخطة بما قدر له الخالق من احكام وقواعد ضمنها الأصول التى نزلت بها الأديان كى يعبر بها مسيرة هذا الوجود إلى ما بعده.

ومن ثم فالتصرف الدينى المطلوب هو العمل الذى تتجه به الإرادة الإنسانية نحو أحداث الأثر الدينى [1]، وهو تحقيق الدور الذى خص الخالق به الإنسان من الخطة الإلهية الكبرى، والتى ضمنها الأصول والأحكام التى نزلت بها الأديان.

ولما كانت الأدوار الإنسانية تتوزع بين بنى الإنسان على مسرح هذا الوجود، بحيث نجد أن هناك الملك والغفير والضابط والعسكرى والغنى والفقير والقوى والمريض والرجل والمرأة .... الخ، فإن التصرف الدينى المطلوب بالنسبة لأى من هؤلاء، هو ذلك العمل الذى تتجه فيه الإرادة والنية صوب تلك الأحكام الكلية التى تنزلت بها الإديان.

وبقدر إتجاه النية والإرادة، وبقدر الامتثال لتلك الأحكام التى تنزلت بها الأديان - سواء فى مجال العبادات أم المعاملات - يكون تقدير هذا العمل فى الحساب الدينى، وذلك بغض النظر عن حجم العمل

---

[1] وهو فى هذا يتشابه مع التصرف القانونى الذى تتجه فيه الإرادة نحو احداث الأثر القانونى، وان كان يختلف عنه فقط من حيث أن الأول يعمل فى دائرة الدين حيث الأحكام المنزلة من السماء، بينما الثانى - أى التصرف القانونى - يعمل حيث الأحكام القانونية الموضوعية التى وضعها البشر.

ومداه : فتبرع الغنى بمليون جنيه، قد يعدله فى ميزان تقدير العدل الإلهى تبرع المعدم بثمرة من بلح هى كل ما يملك.

وهكذا نجد أن تقدير العمل فى الحساب الدينى ليست بذات الأعمال، وإنما بما تحمله هذه الأعمال من معانى الصلة بالخالق، والتفانى فى مرضاته، والامتثال لأوامره ونواهييه، والتعلق بحبه، والاستسلام لقدره... أيا كان الشكل الذى يتخذه العمل على مسرح الواقع الذى أعد الخالق عن قصد وتدبر لكل من هذه الأشكال موقعا فيه.

فهناك بالتأكيد لكل إنسان فقير يطعمه.. فيتواصل مع الخالق بالجود والكرم، ومظلوم ينصره .. فيتواصل مع الخالق بالعدل والانصاف ، وعزيز يفقده .. فيتواصل مع الخالق بالصبر والسلوان، وضعيف يعطف عليه .. فيتواصل مع الخالق بالرحمة والحنان وقريب يوده .. فيتواصل مع الخالق بالمودة والقربى .... الخ.

وهو من قبل ومن بعد يملك نفسه التى يروضها على الطاعة والامتثال لكل أنواع العبادات المفروضة .. فيتواصل مع الخالق بالحب والإيمان، وغير المفروضة..فيتواصل مع الخالق على البر والإحسان.. وهكذا.

فالعمل إذا هو فى مغزاه ، هو فى القرب والتقرب به من الخالق، هو فى منتهاه يوم اللقاء، هو فى اليقين بأنه رصيد يوم الحساب، هو فى التعلق بالرضوان والخوف من العقاب، أى باختصار هو عمل له ما بعده.

أما العمل المجرد الذى يقومون به بقصد تحقيق قيمة دنيوية، العمل الخالى من القصد والنية تجاه مرضاة الخالق، أى باختصار العمل الذى ينقطع بأدائه ولا يتواصل مع حياة أخرى هى المستقر ... هذا العمل ليس محل التقدير الدينى لأنه عمل دنيوى ابتر.

ولكن ليس معنى ذلك أنه عديم الفائدة، وإنما هو لما قصد له سواء كان التفاخر الاجتماعى أو الاستمتاع الشخصى او اكتساب عرض من عروض الدنيا .. وهكذا.

وبالتالى فما يدعيه قومك هناك من قيامهم بالخير من الأعمال - ومن ثم لهم المثوبة إن صدق واقع الآخرة، ولم يخسروا دنياهم إن كانت رقدة واحدة لا قيام بعدها - هو إدعاء قاصر من الناحية الدينية إذ تقدير العمل فى الآخرة هو بما قصد به.

ومن ثم دعهم وما يفعلون .. فقد عملوه .. ولكنهم لم يقدروه يوم يعز الحساب .. واعرض عن الجاهلين ولو ادعوا العلم .. وادعو الهداية للقوم الغافلين.

٢ - دائرة التصرف الدينى والتصرف الدنيوى

قال محدثى: معذرة .. استيقن فقط رغم علمى بالإجابة - من خلال ما تم عرضه - **عما إذا كان القصد أن هناك تصنيفا للأعمال، بعضها فقط يدخل إلى دائرة الحس الدينى والأخرى بعيدة عنه .... فهل لى فى معرفة دائرة كل منهما ؟**

قلت : يجب التفرقة بين من ينظر إلى الوجود على أنه مرحلة قائمة

بذاتها، ومن ينظر له على أنه مرحلة فى خطة آلهية كبرى تمتد إلى ما بعد الوجود. وبيان ذلك :

١ - الوجود مرحلة قائمة بذاتها ليس لها امتداد سابق أو لاحق :

تكون القضية فيه صراع بين الغنى والفقر، بين الرفاهية والعوز بين الامتلاك والاستجداء .. **تكون القضية عن الذات أين هى ؟؟**

الذات التى تأخذ من طبيعة الوجود المادى الذى تعيشه، فتسعى للمزيد من إمكانياته وطاقاته وثمراته وخيراته ، فتحيا جنته على الأرض، وإلا فتصلى سعيره فى نار الفقر والعوز، فى حياة لا ترحم الضعفاء.

ولها فى سبيل حسم هذه القضية (الغنى والفقر) انتهاج كل المتاح من السبل ومنها:

أ - **العمل الجاد** المتواصل فى إطار القيم التى تعارف عليها المجتمع الذى تعيشه، دون ما اعتداء على حقوق الآخرين، بهدف الحصول على النصيب العادل المقابل لهذا العمل والجهد .

ب - **المكر والدهاء والخديعة** بهدف الحصول على ثمرة كفاح الآخرين .. وهنا أعمال النصب وخيانة الأمانة والسرقة والتدليس والاختلاس .... الخ .

ج - **العنف والقوة الغاشمة** للإستيلاء على حقوق الآخرين .... هنا تكون أعمال القتل والضرب .... وعلى مستوى الدول تكون الحروب المدمرة بهدف الاستعمار والاحتلال .... الخ.

فقضية الغنى والفقر هي نعيم الذات وسعيرها في الحياة المغلقة التي تعيشها في هذا الوجود، ومن ثم فلها كل المتاح من السبل، وكل السبل مباح لها .... المهم في النهاية هو تحقيق الذات ولو على أنقاض الآخرين.

٢ - الوجود مرحلة في خطة إلهية كبرى تمتد إلى ما بعده :

تكون القضية هنا صراع بين الخير والشر، صراع بين الفضيلة والرذيلة، صراع بين الحلال والحرام .... **تكون القضية صراع في الذات .. فيما هي ؟؟**

الذات أو بالأصح النفس القادرة على أن تعبر الوجود إلى ما بعده حيث تجد هناك مستقرها ومنتهاها، حيث تجد نعيمها وسعيرها..

ولها في سبيل حسم هذه القضية (الصراع بين الخير والشر) انتهاج بعض السبل المحددة في هذا الوجود ومنها :

أ - عمارة الكون :

وذلك فقط بالعمل الجاد في إطار القيم العليا - دون ما اعتداء على حقوق الآخرين، والحصول فقط على النصيب العادل لهذا الجهد والعمل - دون غيره من أعمال المكر والدهاء والخديعة، وأعمال العنف والقوة الغاشمة للإستيلاء على حقوق الآخرين.

والهدف النهائي هو إحياء الدار .. التي يعيشونها فترة من الزمن ليعمرها بعدهم آخرون بصورة أفضل .. بيقين أن هذه الدار هبة من الخالق ورحمة :

هبـــة لأن فيها النماء والخير الوفير، فى أرضها وسمائها فى باطنها وعلى سطحها فى مائها وهوائها وفى صحاريها .... المهم أن تتكاتف الجهود فى تعاون وتآخى بين بنى الإنسان جميعا بالعمل المادى والفكر، بالعلم والمعرفة، لاستخراج كنوزها ونبتها التى تفى حاجة البشر كل البشر وتزيد .... فتتحقق نعمة الخالق على خلقه.

ورحمة لأن الخالق مع قدرته البالغة على أن يسويها جنة وارفة، هيئها فقط بالصورة التى تجعل منها مسرحا معدا لأداء كل الأدوار الإنسانية التى يجرى عليها الخالق حكمه بالنسبة لكل شخص من الأشخاص على حدة، من خلال ما يقوم به من أعمال ومنها عمارة هذا الكون الذى يعيشه فى حدود طاقاته وإمكانياته .. فرحمة الله هى لمن سعى فى الأرض وعمر فيها فاحسن صنعا.

ب - عمارة النفس :

وذلك بحسبان أن النفس تجنح ذات اليمين وذات الشمال بنفس القوة، وتترجم ذلك إلى عمل مثمر وآخر مدمر.

فالنفس الراضية المطمئنة (هى التى تتجه صوب اليمين) زرعها صالح الأعمال من الإخلاص الصادق فى أداء كل العبادات المفروضة ونوافلها، وفى التعاون والتضافر والرضا بلا جشع أو طمع أو استئثار فى كل ما يتعلق بالمعاملات من أعمال، وحصادها تطهير النفس من عوالقها الخبيثة كالطمع والعنف والخديعة والمكر السيء ... الخ.

والنفس الحاقدة الجشعة (التى تتجة صوب الشمال) تطلق العنان لكل أعمال الغدر والخيانة والتسلط والتحكم بلا رابط من قيم أو أخلاق ولا

وازع من دين، ومن ثم كانت أعمال القتل والسرقة والنصب والاعتداء على حقوق الآخرين.

وعمارة النفس تكون بترويضها وقهرها على إتباع الصالح فقط من الأعمال، بما أوتى الإنسان من ملكة العقل والإدراك، وبما استقر فى داخله من الإيمان بحقيقة المرحلة التى يعيشها، **وهى مسألة غاية فى الصعوبة** : إذ أن الإنسان لا يواجه عدوا من خارجه فيصرعه، وإنما يقابل نفسا بين جنبيه هى كل حبه وهواه فيحرمها شهوة الإنتقام والغدر والعنف والاستئثار التى جبلت عليها بالفطرة.

٣ - وجه الإلتقاء بين التصرف الدينى والتصرف الدنيوى

وهكذا أمكن فى عجالة تصنيف الأعمال وتحديد دائرتها بحسب النظرة إلى ما إذا كان الوجود مرحلة منتهية أم أنه امتداد لمرحلة بعده، **بقى أن نتعرف على ما إذا كان هناك نقطة التقاء بين هذين الصنفين من الأعمال .**

١ - يقودنا التحليل السابق إلى أن اللقاء فيما يتعلق بالأعمال اللازمة بعمارة النفس غير وارد أساسا.

لأن جوهر الذات فى الفكر الأول الذى يعتبر الوجود مرحلة منتهية هو ذلك الجسم البدنى الأولى بالرعاية والإشباع، ومن ثم تدور حركة الحياة جميعا فى فلكه.

بينما الفكر الثانى - الذى ينظر للوجود على أنه مرحلة ممتدة - يركز على النفس وبنيانها وعمارتها .. والأهم تزكيتها فى مصفاة هذا

الوجود، لتلتقى بالأبدية مطهرة من عوالقها وأوزارها، مطمئنة إلى مصيرها راضية بما قدر لها .

ومن ثم فكل الأعمال التى تؤدى إلى تزكية النفس سواء على مستوى العبادة أو المعاملة ليس لها ما يقابلها فى الفكر الأول.

٢ - أما الأعمال التى تتعلق بعمارة الكون فهى وحدها التى يمكن أن يكون على صعيدها بعض اللقاء مع تحفظ هام وهو الاختلاف فى الهدف، الوسيلة، والنتيجة.

أ - اختلاف الهدف :

بينا أن العمل والسعى فى الأرض لاستخراج نبتها وزرعها، ولتفجير ينابيعها وطاقاتها لتأخذ زينتها وزخرفها، إنما هو لتحقيق هدف ذاتى محض فى الفكر الأول (الذى ينظر إلى الوجود على أنه مرحلة منتهية) أساسه صنع المال للحد الذى يطلق أصحابه على انفسهم Money makers، فهى قضية امتلاك واستحواذ شخصى ولو على حساب انقاض الآخرين فى الصراع الدائر بين الغنى والفقر.

بينما الهدف من العمل فى الفكر الثانى (الذى ينظر للوجود على أنه مرحلة ممتدة) تفاعل مع الوجود والواقع بتطويره وتحديثه وإنمائه أملا فى حياة أفضل فى الدنيا لبنى الإنسان ، واستحواذ على كم أكثر من صالحات الأعمال : ومنها عمارة الدنيا عندما تترجم هذه الأعمال إلى حسنات فى رصيد كل إنسان يوم الحساب.

ب - اختــلاف الوسيلــة :

ليس هنـاك مـن وسيلة محددة بعينهـا فـى الفكـر الأول، فكـل مـا يوصـل إلـى غنـى الإنسـان مباح، حتـى أن شـعار أصحـاب هـذا الفكـر، أن القاعدة الرئيسية للغنى " هى فى عدم وجود قاعدة "

The main rule that there is no rule

فالظلم والقهر والعدوان والحيلة والخديعة مبـاح كـل منهـا إن كـانت ستوصل إلى الغنى .. فعندهم الغاية تبرر والوسيلة.

بينما الفكر الثانى محدد باستخدام الأمثل مـن الوسـائل فقـط، حيث أن رصيـده ليـس فيمـا يمتلـك مـن أشـياء، وإنمـا فيمـا يجنيـه مـن خـيرات الأعمال الصـالحات أى حسنات.

ومـن ثـم يحكمـه الطاعـة والامتثـال عندمـا يتعلـق الأمـر بأعمـال العبـادات، والرضـا والسـماحة وحسـن الوفـاء عندمـا يتعلـق العمـل بـأمور المعاملات، والقوة والحسم لحد الحرب والقتال عندما يتعلق العمل بالدفـاع عن العقيدة أو النفس أو المال .... الخ.

ج - اختــلاف النتيجــة :

قد يتقارب اصحاب الفكر الأول بحكـم الواقـع ومـا أدى إليـه تطـور الفكر مع الفكر الثانى فى شكل النتيجة النهائية للعمـل، إلا أن جوهـر هـذه النتيجة يظل مختلفا تماما.

فمن حيث الشكل يوجد هناك تقارب

أدى إليه تطور الفكر المادى والاقتصادى فى هـذا العصـر: إذ نجـد دعاة الفكر الأول (الذى ينظر للوجود على أنه مرحلة منتهية) وقد أصبـح

الغنى عندهم له ثوب جديد . فلم يعد كالماضى الغنى يعنى كثرة امتلاك الأشياء كالذهب أو الفضة أو الإبل والماعز وما إليه، وإنما تطور الفكر.. إلى أن أصبح الغنى يعنى امتلاك ما يقابل هذه الأشياء فى القيمة ، مما أطلقوا عليه اسم العملة التى تطور وضعها إلى أن أصبحت عملة ورقية .

وفى تطور أكثر تقدما انتقل الغنى من امتلاك الأوراق النقدية وحيازتها، إلى قيود مصرفية فى حسابات البنوك، بحيث أصبح الغنى يقاس بقدر الرصيد الدائن فى الحسابات الجارية وحسابات الودائع فى البنوك .... وهكذا.

وأصبح لكل من هؤلاء حساب مفتوح بالبنك يودع فيه ما يشاء من العملة النقدية ويسحب منه ما يشاء .... وفى تيسير أكثر على أصحاب الحسابات فإن الإيداع والسحب يمكن أن يتم الآن بمجرد مكالمة هاتفية حتى ولو كان صاحبه فى مكان قصى .... الخ.

وشاغل أصحاب هذا الفكر فى الوقت الحاضر هو اختيار انواع العملة الأكثر ثقلا " الدولار أم الاسترلينى أم الريال" ، والبنوك الأكثر إئتمانا " بنوك سويسرا أم انجلترا أم أمريكا " والبلاد الأكثر أمناً واستقراراً فرنسا أم المانيا أم السعودية " وهكذا.

وهكذا نجد الغنى وقد أصبح من حيث الشكل اصفارا على اليمين فى حسابات افتعلها الإنسان من عندياته يقدر فيها نصيبه من الغنى .

وهنا يتقارب هذا الحساب المفتعل مع ما آمن به أصحاب الفكر الثاني من شكل إلهي للحساب أكثر دقة ويسرا .... حيث أن لكل إنسان حسابا مفتوحا يمكن الإيداع فيه ليل نهار وبلا مكالمة هاتفية ولا حتى

تحريك شفاة أو قلم ... وإنما يتم الإيداع فور العمل ، فمجرد التبرع لمحتاج حتى بكسرة من خبز يكون القيد فى الجانب الدائن من الحساب، ناهيك عن مجرد القاء تحية سلام على آخر ، قول الحق، رفع الظلم، إكرام الضيف، ستر العرض، حفظ الأمانة، زيارة المريض .... وهكذا.

وما يقال عن الإيداع يقال عن السحب حيث يمكن السحب من الرصيد فور النطق بالباطل أو وقوع الظلم أو الاعتداء على حق .. وهكذا .... فهو حساب حساس يقوم عليه حفظة كاتبين، أيسر واسرع من ذلك الحساب الذى تجرى به البنوك. وإن اتخذ شكله .

أما من حيث جوهر النتيجة فهناك اختلاف جذرى

إذ أن جوهر نتيجة حسابات البنوك - بالنسبة لأصحاب الفكر الأول - هى فى تحقيق الأمان لاصحابها، **ولكن أين الأمان فى عالم المتغيرات ؟**

حقا إن شاغل أصحاب الفكر الأول لتحقيق الأمان فى الوقت الحاضر - كما سبق أن ذكرنا - هو فى اختيار أنواع العملة الأكثر ثقلا " الدولار أم الاسترلينى أم الريال " والبنوك الأكثر إئتمانا " البنوك السويسرية أم الانجليزية أم الفرنسية " والبلاد الأكثر أمانا واستقرارا " أمريكا أم انجلترا أم سويسرا " وهكذا .. ولكن هل تحقق الأمان فعلا ؟

بنظرة نجد الفكر الشيوعى بكل منظماته ودوله وقد إنهار فى لحظة من الزمن بعد أن كان يحتل مكانة متقدمة فى عالمنا .. وبالتالى إنهارت كل مؤسساته المالية وعلى رأسها البنوك بكل أرصدتها.

وما يقال عن بنوك الإتحاد السوفيتى اليوم، يمكن أن يقال غدا عن أكثر البنوك ائتمانا، وأكثر الدول امانا واستقرارا .. وهكذا. **فأين هو الأمان الذى تحققه البنوك فى وقتنا الحاضر**، خاصة بعد أن تحول الغنى إلى مجرد أصفار على اليمين فى حساباتها المصرفية .... بالقطع لن يتحقق الأمان.

ومن ثم أصبح أصحاب هذا الفكر اسيرى القلق والخوف، يدفعهم تعطشهم لمزيد من الأمان السعى لمزيد من الغنى، ومزيد الغنى يؤدى إلى مزيد الخوف والقلق، وهكذا يسير هؤلاء فى حلقة مفرغة، إلى أن يتم إخطار البنك بأن ما لديه من رصيد لأحدهم قد أصبح تركة لورثته.

أما جوهر الحساب بالنسبة لأصحاب الفكر الثانى فجد مختلف، إذ فيه الأمان كل الأمان فما من صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها عدا، وما من عمل إلا ضاعفه أجرا : حساب رصيده حسنات وضامنه رب القدرة الخلاق، لا يتغير بدنيا المتغيرات، فهو مدون بالسماء ولا ينتهى بموت صاحبه، وإنما يتبعه إلى حيث مستقره فى الآخرة يوم الحساب الأعظم .... **فأى أمان أكثر من ذلك**.. إنه حساب يؤدى إلى حلاوة الإطمئنان والرضا والتفاؤل .. ومن ذاق حلاوة الرضا والأمان دفعه ذلك إلى مزيد من الأعمال، وهكذا تدور الدائرة أسرع وأسرع فى هذا الحساب الإلهى.

والمحصلة أنه حساب يؤدى إلى الرضا والأمان فى الدنيا ، والفوز والفلاح فى مرحلة الأبدية المقبلة، وهنا يكمن جوهر الخلاف بينه وبين حسابات البنوك.

سادسا
كيفية الحساب

يلزم لبيان كيفية الحساب أن نتعرض للنقاط التالية : وحدة القياس التى يجرى على أساسها رصد مفرداته، علانية الحساب، حق الدفاع، شخصية الحساب. ونتناول كل منها على النحو التالى :

١ - وحدة القياس

يلزم لإجراء الحساب بصفة عامة، توحيد وحدة القياس أو العملة التى يتم بها قيد حساب مفرداته بحيث تكون نتيجته عملية حسابية بسيطة هى حاصل طرح مجموع ما لدى الشخص من التزامات مقومة بعملة ما، من مجموع ما لدى الشخص من حقوق مقومة بذات العملة.

ونفس الأمر هو ما يتم به الحساب في الآخرة .... كل ما هنالك أن العملة التى يتم بها ليست ما نعرفه من نقود، وإنما هى عملة لها طبيعة خاصة : **إذ يختلف مسماها باختلاف ما إذا رصدت فى الجانب الإيجابى من الحساب حيث تعتبر حسنة بينما تعتبر سيئة إذا ما رصدت فى الجانب السلبى.**

فما يجريه الإنسان فى حياته الدنيا من أعمال حسنة يثاب عليه بحسنات .... فهذا يساوى حسنة، وآخر يساوى عشرة .... كل ذلك بحسب قدر العمل وما يمثله من الوجهة الدينية، وبغض النظر عن قيمته الدنيوية التى قد تساوى ملايين الجنيهات ولا يحسب له عنها ولو حسنة فى رصيد الحسنات.

وما يجريه من أعمال سيئة يجازى عليها بسيئات .. فهذا يساوى سيئة وآخر يساوى عشرة ... بحسب قدر العمل، ما يمثله من الوجهة الدينية، وأيضا بغض النظر عن قيمته الدنيوية.

وهذه العملة سواء كانت حسنة أو سيئة، إنما هى مقابل لما هو مثقال ذرة ... وفى ذلك تقول الآية الكريمة .." *فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره* "[1] .

ومن مجموع الحسنات يتكون الجانب الإيجابى من ميزان الحساب، ومن مجموع السيئات يتكون الجانب السلبى من هذا الميزان " *فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية* "[2].

أى أن هناك مقاصة تجرى فى هذا الحساب وفى ذلك تقول الآية الكريمة " *ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة* "[3] وأيضا " *إن الحسنات يذهبن السيئات* " [4] .

ولما كان الإنسان يجر وراءه حملا ثقيلا - جسم مادى بكل غرائزه وشهواته، وصراع مع شيطان يجهله - فإن القيد فى الحساب يختلف فى الجانب الإيجابى عنه فى الجانب السلبى، **إذ تقيد له الحسنة الواحدة بعشر أمثالها، بل وقد تضاعف عن ذلك ، بينما تقيد السيئة بمثلها.**

---

[1] سورة الزلزلة : الآية ٧،٨.

[2] سورة القارعة : الآية ٦ - ٩.

[3] سورة الآعراف : الآية ٩٥.

[4] سورة هود : الآية ١١٤.

والهدف بداهة من تيسير الحساب على هذا النحو فى الآخرة، أن يلتزم الإنسان بعمل الصالح من الأعمال فى الدنيا دون تفرقة بين كبيرها وصغيرها إذ لا يعلم أكثرها أجرا، وأن يكثر منها خاصة ما كان فى متناوله كتحية الجار والسؤال على المريض، والعطف على الصغير .... وحتى إن تعذر عليه ذلك فالتسبيح والدعاء وذكر الله، وحتى إن تعذر عليه ذلك باللسان فليكن بالقلب.

المهم ألا يترك من الوقت لحظة فى ليله أو نهاره إلا ويحصى فيها حسنة عن عمل أداه، فجمع العديد من الحسنات أيسر بكثير من كسب دراهم معدودات.

وشغل الإنسان هكذا بجمع الحسنات يصرفه عن إرتكاب السوء، وإن صادف وارتكب السوء فإنه يسارع إلى درئه بمزيد من الحسنات.

وهكذا يتأهب الإنسان للقاء يومه الموعود بنفس راضية مطمئنة حيث يجد ما عمله من خير محضرا .. فينال الرضا والقبول وفى ذلك تقول الآية الكريمة *" يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى * وادخلى جنتى "* [1] .

٢ - علانية الحساب

الحساب باعتباره من قبيل المحاكمة التى نعرفها فى القانون- وإن كان يتميز عنها بأنه يحاسب عن أفعال الخير والشر فى آن واحد- يسرى عليه ذات المبدأ المستقر عليه فى القانون وهو علانية المحاكمة.

---

(١) سورة الفجر، الآية ٢٧ - ٣٠.

وعلانية المحاكمة مبدأ مستقر عليه فى القانون كأحد ضمانات التقاضى بالنسبة للمتهم حيث تجرى محاكمته علانية، فيكون للجماعة مراقبة كافة ما اتبع من إجراءات التقاضى، وما وجه إلى المتهم من إتهام، وما أبداه من دفاع، وما إنتهى اليه الحكم.

بالإضافة إلى أن علانية المحاكمة قد تكون رادعا لمن تسوله نفسه أن يرتكب ذات الفعل، إذا ما رأى وسمع ما يدور فى محاكمة من سبقه إلى الفعل.

وهذا المبدأ – علانية المحاكمة – مستقر أيضا بالنسبة للحساب فى الآخرة حيث يجرى على الملأ، وقد ورد فى ذلك العديد من الآيات منها : *" كلا إذا دكت الأرض دكا دكا * **وجاء ربك والملك** صفا صفا "* [1] *" **يوم يجمع الله الرسل** فيقول ماذا أجبتم * قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب"* [2] *."ويوم نحشرهم **جميعا** ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم"* [3] *"ويوم يحشرهم **جميعا** يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس "* [4] ، *" ويوم نحشرهم **جميعا** ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم "* [5] . *" ذلك يوم **مجموع له الناس** "* [6] . *" إن يوم الفصل ميقاتهم **أجمعين** "* [7] ،

---

[1] سورة الفجر، آية ٢١، ٢٢.

[2] سورة المائدة ، آية ١٠٩.

[3] سورة الأنعام ، آية ٢٢.

[4] سورة الأنعام ، آية ١٢٨.

[5] سورة يونس ، آية ٢٨.

[6] سورة هود ، آية ١٠٣.

[7] سورة الدخان ، آية ٤٠.

" يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا " [١] ، *" يوم يقوم الروح والملائكة صفا "* [٢] .

والهدف هنا من علانية الحساب أن يشهد الخالق وملائكته، والشيطان وقبيله، والناس بعضهم لبعض :

فالخالق سبحانه ليقضى بين الناس بالحق وليجزى كل نفس بما كسبت وفى ذلك ورد العديد من الآيات : *" فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون"* [٣] ، *"ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون"* [٤] ، *" واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون "* [٥] ، *" وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون "* [٦] ، *" ونضع الموازين القسط ليوم القيامة "* [٧] .

والملائكة ليروا أنه قد حقت كلمة الله بخلافة الإنسان فى الأرض فيزيدهم شكرا أن هداهم الله إلى الإيمان والتسليم بالحكمة الإلهية.

والشيطان وقبيله لتنجلى له الحكمة الإلهية التى اعترض عليها وأنكرها و *" قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين"* [٨] .
وهو يرى الإنسان وقد *" سيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا "* [٩] .

---

[١] سورة النبأ ، آية ١٨.

[٢] سورة النبأ، أية ٣٨.

[٣] سورة آل عمران ، أية ٢٥.

[٤] سورة الزمر، آية ٧٠.

[٥] سورة البقرة ، آية ٢٨١.

[٦] سورة يونس ، آية ٥٤.

[٧] سورة الإنبياء ، آية ٤٧.

[٨] سورة ص، آية ٧٦.

[٩] سورة الزمر ، آية ٧٣.

وأخيرا علي الإنسان نفسه وهو يرى أن ما أخفاه فى حياته الدنيا ، واضحا جهارا أمام الخلائق فيناله خزى ما اقترفه من أعمال السوء " *ويقول الإنسان يومئذ أين المفر* "[١] . ويفرح بما آتاه من أعمال الخير .... ثم هو يرى مصيره ومن أضلوه ، وفى ذلك تقول الآية الكريمة " *وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار* "[٢] ، " *وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا اجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص*"[٣] ، *وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا* " [٤] .

ثم هو يرى الشيطان وقد أنكره .... وفى ذلك تقول الآية الكريمة " *وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم* " [٥] .

وفى النهاية وهو يرى الخالق وقد أنبه " *ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن أعبدونى هذا صراط*

---

[١] سورة القيامة ، آية ١٠.

[٢] سورة البقرة ، آية ١٦٧.

[٣] سورة إبراهيم ، آية رقم ٢١.

[٤] سورة الأحزاب ، آية ٦٧، ٦٨.

[٥] سورة إبراهيم ، آية ٢٢.

مستقيم * *ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلا تكونوا تعقلون * هذه جهنم التى كنتم توعدون * اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون* " [١] .

٣ - حق الدفاع

يعتبر حق الدفاع من أهم ضمانات التقاضى. إذ يكون للشخص أن يدحض العمل المنسوب إليه، وأن يبين مبرراته، أو يطلب الرأفة .. وهو قد يترافع بذاته عن نفسه وقد يوكل آخر من المحامين للدفاع عنه بحسبان أنه أكثر منه دراية بالقانون .. وهكذا.

والواقع أن هذا الحق موجود بالنسبة للحساب فى الآخرة، ولكن ربما بصورة أبلغ بالنسبة لدفاع الشخص عن نفسه، أما شفاعة الغير عنه فهى مقيدة :

إذ يكون للشخص أن يجادل عن نفسه فيما ارتكبه من أعمال فى الحياة الدنيا حيث يوفى أجره على قدر عمله دون ما ظلم أو جور وفى ذلك تقول الآية الكريمة " ***يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى*** *كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون* " [٢] .

أما حقه فى الشفاعة له يوم الحساب - أى طلب الرحمة له والمغفرة - فذلك فقط لمن أذن الله له بالشفاعة، وفى ذلك تقول الآية الكريمة " *من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه* " [١] ، " *قل لله الشفاعة* جميعا

---

[١] سورة يس ، آية ٦٠ - ٦٤.

[٢] سورة النحل ، آية ١١١.

[١] سورة البقرة الآية ٢٥٥

له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون " [١] *."يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن "* [٢] *. "ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن اذن له "* [٣] .

وربما اطلاق حق الدفاع فى القانون وتقييده (الشفاعة) بالنسبة للحساب فى الآخرة هو أن حق الدفاع ربما لجلاء حقيقة وضع الجريمة وظروف المتهم بحيث يكون القاضى على بينه بملابسات القضية. فى حين أن الشفاعة فى الآخرة هى لتكريم الشفيع وإظهار منزلته يوم العرض العظيم، وليس لبيان ظروف كل نفس والدفاع عنها، وهو الله الحكم العدل الذى لا تخفى عليه خافية.

٤ - شخصية الحساب

مرت البشرية بمراحل طويلة فى مضمار التنظيم القانونى الوضعى، حتى استقر مبدأ **شخصية العقوبة**، بمعنى أن الذى يحاسب عن الفعل هو فقط من ارتكبه ولا يمتد إلى غيره من الأفراد، وإلا كانت العقوبة جماعية شأن المجتمعات القبلية. إذ كان يتحمل وزر الجريمة فى هذه المجتمعات ربما القبيلة بكاملها كرد فعل للعصبية فى الجاهلية.

وحتى بعد أن خطت المدنية خطوات نحو التقدم، كان النداء بأن تتحمل الأسرة بكاملها فيما بعد وزر الجريمة، على أساس أن هذه الأسرة

---

[١] سورة الزمر : الآية ٤٤.

[٢] سورة طه ، آية ١٠٩.

[٣] سورة سبأ ، آية ٢٣.

هى التى انبتت هذا المجرم ومن ثم فقد تأصل الإجرام فيها، وبالتالى يجب اقتلاع جذورها من المجتمع.

أما فى الدين فهذا المبدأ " شخصية الحساب " مستقر كأصل عام من أصوله، وفى ذلك وردت العديد من الآيات "*ولا تزر وازرة وزر أخرى*"[١] . "*ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله*" [٢] . "*يقول ياليتنى قدمت لحياتى * فيومئذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد*" [٣] . "*ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين * يوم لا يغنى مولىً عن مولىً شيئا ولا هم ينصرون*"[٤] . "*يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور*" [٥] . "*وكلهم آتيه يوم القيامة فردا*"[٦] . "*ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاؤا لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون*"[٧] .

---

[١] سورة فاطر ، آية ١٨.

[٢] سورة الانفطار، الآية ١٨ ، ١٩.

[٣] سورة الفجر ، الآية ٢٤ – ٢٧.

[٤] سورة الدخان ، الآية ٤٠، ٤١.

[٥] سورة لقمان، آية ٣٣.

[٦] سورة مريم ، آية ٩٥.

[٧] سورة الانعام ، آية ٩٤.

سابعا
القانون المطبق يوم الحساب

تقتضى العدالة أن يكون هناك قانون موضوعا ومعلوما سلفا تجرى على أساسه المحاكمة، وتلك دعامة رئيسية من دعامات حقوق الإنسان خولتها كل التشريعات الوضعية والمواثيق الدولية.

والتشريعات الوضعية تختلف باختلاف الزمان فى المكان الواحد، وباختلاف المكان فى الزمان الواحد، وتلك سمة رئيسية من سمات التشريعات الوضعية التى وضعها البشر لتجارى اختلاف أماكنهم وأزمانهم .... ومن ثم ما قد يعتبر جريمة فى تشريع ما قد لا يعتبر كذلك فى تشريع آخر .. وما يعتبر جريمة فى عصر من العصور بالنسبة لدولة ما قد لا يعتبر كذلك فى عصر آخر ... وهكذا.

ويعهد بتطبيق هذه القوانين الوضعية لقاض يكون له سلطة فى تقدير الدليل والعقوبة المقررة على الجريمة، ومن ذلك مثلا يكون للقاضى تقدير ما إذا كان الفعل الذى ارتكب يشكل جريمة على ضوء ما هو متوافر لديه من أدلة، ثم يكون له تقدير العقوبة .

وغالبا ما تخوله القوانين الوضعية سلطة واسعة فى هذا المضمار على ضوء ظروف كل حالة على حدة، فنجد العقوبة المقررة فى القانون تتراواح ما بين ثلاثة سنوات سجن وسبعة مثلا .

وهناك ظروف مخففة قد تنزل بالعقوبة إلى ما هو دون ذلك، وقد يجد القاضى أن ظروف الحالة قد تقتضى وقف تنفيذ الحكم .

وهكذا نجد أنه يجوز للقاضى أن يحكم بسبع سنوات سجن فى قضية وفى آخرى مماثلة يقضى بستة أشهر حبس مع وقف التنفيذ وحكمه فى كلتاهما صحيح. وإن كان الاختلاف فى تقدير القاضى لظروف وملابسات كل قضية على حدة .. والهدف من ذلك بداهة هو تحقيق العدالة النسبية فى نظر القاضى.

وإذ ما انتقلنا من القوانين الوضعية التى وضعها البشر إلى القانون الإلهى الذى يطبق يوم الحساب، نجد أن القانون الإلهى الذى يطبق يوم الحساب، يتفق وقدر جلال مصدره وطبيعة الجزاء يوم الحساب. ومن ثم نجد أن هذا القانون الإلهى يتميز بأنه :

سرمدى وأبدى : بمعنى أنه قديم قدم البشرية ودائم دوامها إلى أبد الآبدين. وبالتالى لا يطرأ على أحكامه الكلية أية تغيير أو تعديل، على عكس القوانين الوضعية التى تتغير بتغير العصور. ذلك أن القانون الإلهى إنما وضع للوجود كله.

شامل جامع : بمعنى أنه محيط بكل تصرفات الفرد، بل وما هو أكثر بنواياه، سواء فى العلاقة بين الفرد وغيره أو بين الفرد ونفسه أو بين الفرد وخالقه وسواء أكان التصرف أو النية حلالا أم حراما. ومن ثم فهو يشمل كل ما يقوم به الفرد .

واضح جلى : إذ تنزلت به رسالات سماوية على أقوام، إلى أن كان التقنين الإلهى الخاتم الذى جمع بين كل هذه الأحكام فى كتاب فصلت آياته، ليكون هدى وبيانا للناس، ومن ثم لا تكون لهم حجة على خالقهم يوم الحساب.

الأهم من كل ذلك أن الذى يحكم يوم الحساب هو الخالق الأعظم الذى يتوافر لديه من الإثبات ما يقطع بصحة الواقعة، إذ يجد كل إنسان ما عمله محضرا .. وكل إنسان الزمناه طائره فى عنقه .. *" اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا "*[1] .

كما أنه ليس لسلطة الخالق حدود فى تقدير الجزاء، وإنما هى سلطة مطلقة لاحد لها .. فهو لا يملك فقط أن ينزل بالعقوبة لحد وقف التنفيذ، وإنما يتجاوز ذلك بمراحل لحد استبدال سيئاتهم حسنات، يملك العفو، يقبل التوبة .

فكل نصوص التقنين الإلهى ظروف مخففة عند خالقها، ولا رقيب عليه من محكمة نقض وإبرام، وإنما هو فقط العدل الإلهى الذى وسع كل شىء فى ملكوت الرحمن، والذى يحكم مسيرة الإنسان منذ كان فى الوجود وإلى ما شاء الله له أن يكون فى أخراه.

والخالق لا يجازى فقط عن الذنب وإنما له المثوبة عن الخير.. وفى ذلك حدث ولا حرج. فما يحسبه الإنسان يسيرا فى دنياه، قد يعنى عند الخالق الكثير يوم الحساب، فيلقى من الثواب أضعاف أضعاف ما تصور بحساباته الدنيوية .. *" من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون"*[2].

وكلها دلائل قدره يرجح بها الخالق ميزان الأعمال يوم الحساب، ذلك أن نتيجة الحساب ليست البراءة أو اخلاء السبيل كما فى الحياة الدنيا. وإنما هى نار وقودها الناس والحجارة، وإما جنات وعيون خالدين فيها أبدا.

---

(١) سورة الإسراء ، آية ١٤.

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٤٥.

ومن ثم فالحساب لا تتحدد نتيجته بواقعة أو عمل معين، وإنما هو حاصل تلك الوقائع والأعمال ... وهنا كما نفعل عندما نستخرج النتيجة النهائية لامتحان ما ... فإننا نطبق قواعد الرأفة ذلك أن النتيجة النهائية هى إما النجاح أو الرسوب ومن ثم يتعين تقدير حالة الطالب بصفة نهائية.

وأحسبنى لا أغالى إن قلت أن أهم ما يختص به الخالق عباده من رحمة فى هذا الحساب، أن يظل الميزان الحسابى للإنسان مفتوحا طيلة مسيرته فى الوجود، ولا تتحدد نتيجته إلا يوم الحساب فى الآخرة، حتى يظل لديه الحافز دائما على القيام بصالح الأعمال حتى النهاية. ولذا كانت آخر دعواه " اللهم أجعل خير أعمالنا خواتيمها " أملا ورجاء فى أن يلقى ربه يوم الحساب بقلب سليم وقد تعدل ميزانه الحسابى لصالحه.

وأحسبنى لا أغالى أيضا إن قلت أن أهم وأهم ما اختص به الخالق عباده من رحمة ، أنه تعالى هو الذى يسن قواعد الرأفة عند الحساب النهائى ويعملها ... ولك ان تتصور أن الإله الأعظم، الذى هو أعلم بعباده من أنفسهم وما تكنه جوارحهم وقدر ضعفهم وحاجتهم وما تتسلط عليهم غرائزهم وشهواتهم، هو الذى يضع لهم قواعد الرأفة .
بالقطع ستكون فوق ما نتصور من الكرم والجود، وهو القائل جل شانه عن نفسه *"وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم"*[1] *" هو التواب الرحيم"*[2]. *"ورحمتى وسعت كل شىء"*[3] *". كتب على نفسه الرحمة "*[4]

---

[1] سورة البقرة ، آية ١٦٣.

[2] سورة التوبة ، آية ١٠٤.

[3] سورة الأعراف ، آية ١٥٦.

[4] سورة الانعام، آية ١٢.

" يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم " [1] . وقد يصل أن يبدل الله سيائتهم حسنات وذلك مصداقا لقوله تعالى *" إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما "* [2] .

كما لك أن تتصور أن الإله الإعظم هو الذى يعمل قواعد الرأفة وهو الودود الغفور العدل العزيز الحكيم. فهل يقف أمام جوده حلق اللحى وطول الشارب .... الخ، أم أنه رب القلوب.

لقد قلتها يوما لإمرأة عجوز أفنت عمرها فى خدمة والدتى حتى جمعت نفقات الحج، وقد طافت بالكعبة ست مرات، وقال لها من افتاها بطل طوافك إذ الطواف سبعة . . قلت لها ما قاله صحيح من حيث المناسك . . ولكن قد يكون ميزان حجك عند الله غالب . . . فهو لا يقف عند حد عد الأشواط، وإنما هو البصير بالقلوب . . . . وقد يحسب لك الحج حتى ولو لم تغادرى بلدك . . . . وكفاكى عند الله ما افنيته من عمرك طلبا له .

فالمسألة ليست كسر إشارة أو تجاوز سرعة يعاقب عليها قاضى المرور، وإنما هى نظرة علوية شاملة تتجلى فيها كل سمات العدل الإلهى، التى تتناول ظروف كل منا وملابساته وصدق نواياه وطيب عزائمه، وخالص أعماله وحسن سريرته، وقدر طاقاته ومدى تسلط شهواته ... لتكون جميعا فى الميزان يوم لا تظلم نفس شيئا والأمر يومئذ لله.

---

[1] سورة آل عمران ، أية ١٢٩.

[2] سورة الفرقان ، آية ٧٠.

ثـــامنــا

نتيجــة الحســـاب

تتوقف نتيجة الحساب على ما إذا كان الإنسان قد حقق فى حياته الدنيوية الحكمة من وراء خلقه، بأن كان الأعز بنفخة الروح التى خصه بها الخالق وتلك التسوية العقلية التى اجتاز بها مواقع الذلة والوقوع فى الخطأ، والتغلب على غرائزه وشهواته البشرية والأهم وسوسة الشيطان وهمزه ولمزه، فقام بصالح الأعمال حيث تم ترجمة هذه الأعمال إلى حسنات وضعت فى كفة الميزان.

كما تتوقف على ما إذا كان الإنسان قد أهدر ما اختصه به الخالق وترك نفسه لهواها وصد عن سبيل العقل والمنطق واتبع شيطانه، فقام بالطالح من الأعمال حيث تم ترجمتها إلى سيئات وضعت فى الكفة الأخرى من الميزان.

فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية حيث جنات قطوفها دانية " *كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية* "[1]. " *وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ما هيه * نار حامية* "[2].

الحكم يصدر مشمولا بالنفاذ :

هذا ومتى رجحت إحدى كفتى الميزان واستقر الحكم، فإن هذا الحكم يصدر مشمولا بالنفاذ - خلافا لما هو مستقر عليه فى القانون

---

(١) سورة الحاقة ، آية ٢٤.

(٢) سورة القارعة، آية ٨ - ١١.

الوضعى، حيث لا ينفذ الحكم إلا إذا كـان نهائيـا أى استنفذ طـرق الطعـن بالمعارضة والاستئناف.

فالحكم فى الآخرة حكم نهائى واجب النفاذ، وفى ذلك يقول الحق تفصيلاً وتصويراً لهذا المشهد العظيم الذى يمتد حتى تنفيذ الحكم *" ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى والأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون * وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون *ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون * **وسيق الذين كفروا إلى جهنم** زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم أيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين * **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة** زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين "* [١] .

انقضاء الحكم فى القانون الوضعى والحكم فى الآخرة :

الحكم فى القانون الوضعى مؤقت إذ لا يعدو أن يكون تقرير عقوبة لفترة من الزمن يزول اثرها، بعد أن يكون قد تحقق الهدف منها وهو الإصلاح والردع.

---

[١] سورة الزمر، آية ٦٨ – ٧٥.

بينما الحكم فى الآخرة مؤبد إذ أنه تحديد مكانة وتسكين على منزلة، بمعنى أن يكون الإنسان إما من أهل الجنة أو من أصحاب السعير، مع تحديد منزلته فى الجنة أو النار.

فالحكم فى الآخرة أقرب بنتيجة الامتحان التى يؤديها الإنسان عن أعماله فى الدنيا، بحيث تسفر عن نجاحه وفلاحه فيكون من أهل الجنة أو إخفاقه فيكون من أهل النار، تماما كما يحدث فى واقعنا إذ نتيجة الإمتحان لا تخرج عن النجاح أو الرسوب، مع تقدير درجة النجاح والرسوب. ومن نجح أو رسب، أو من كان من أهل الجنة أو أهل النار، فقد تحددت مكانته إلى ما شاء الله وكان.

وليس هناك من سبيل لتغيير هذه النتيجة إلا بمعاودة الامتحان مرة أخرى. ويلاحظ أنه يجوز معاودة الامتحان بالنسبة لواقعنا إذا سمحت بذلك اللوائح، إلا أن ذلك مستحيل بالنسبة للآخرة إلا إذا عاود الإنسان من جديد حياته الدنيا ليعمل صالحا، وهو مالا يجوز بقول الحق " *حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا **إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** * فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم **فى جهنم خالدون*** "(١) .

وهكذا يتضح أن الحكم فى الأخرة تحديد مكانة إلى أبد الآبدين.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٩٩ - ١٠٤.

الباب الثالث

العذاب في الآخرة

بعد أن تناولنا – كالعادة – قهوة عم صالح، بدأت بنا المسيرة حول مفهوم العقوبة فى القوانين الوضعية والجزاء فى الآخرة، ثم توقفنا قليلا عندما تفحصنا الفرق بين عذاب القبر والعذاب فى الآخرة، وكانت نهاية المطاف أن ركزنا النظر على صورة العذاب فى الآخرة وحكمتها. وفيما يلى تفصيل ما أجملنا:

أولا

مفهوم العقوبة فى القوانين الوضعية والعذاب فى الآخرة

يتطلب الأمر معرفة ما تحمله العقوبة فى القوانين الوضعية وما يحمله العذاب فى الآخرة من معنى، وذلك على النحو التالى :

١ – تحمل العقوبة فى القوانين الوضعية معنى الجزاء والردع :

أ – معنى الجزاء :

العقوبة جزاء وفاق لما اقترف الإنسان من عمل مؤثم، ومن ثم فهى تتوافق مع طبيعة العمل الذى ارتكبه الإنسان، فإذا كان اعتداء على النفس والبدن كانت العقوبة هى الإعدام والسجن والحبس، وإن كانت اعتداء

على المال كانت العقوبة هى الغرامة والتعويض، وإن كانت مخالفة إدارية كانت العقوبة هى التنحية والعزل .... الخ.

ب – معنى الـردع :

وقد يكون القصد من العقوبة الحفاظ على كيان المجتمع ، ذلك أننا قد نقضى على متعاطى المخدرات بالأشغال الشاقة بهدف أن نقتلع جذور هذه الجريمة من المجتمع، علما بأن مدمن المخدرات قد يعتبر مريضا يحتاج إلى رعاية، وذلك فقط من قبيل الردع لأفراد المجتمع .

والردع قد يتطلب أن تتجاوز العقوبة قدر الفعل المرتكب بكثير حتى تقطع على الآخرين مجرد التفكير فى ارتكاب الفعل المجرم .

٢ – والعذاب فى الآخرة يحمل فقط معنى الجزاء :

ذلك أن الردع يتطلب الحياة الدنيا حيث لا تزال الصحف مفتوحة، فيكون توقيع العقوبة على المذنب رادعا لغيره فى الابتعاد عن هذه الجريمة.

أما فى الآخرة وقد طويت الصحف وجفت الأقلام، وتحددت الأوضاع بصفة نهائية، فالعقوبة ليست للردع، **وإنما هى فقط جزاء لما ارتكبه الإنسان فى دنياه من أعمال السوء** وخسرانه لقضيته فى الصراع مع الشيطان.

والملاحظ هنا أن الجزاء لا يتنوع بحسب طبيعة العمل الذى ارتكب، وإنما هو الجنة لمن ثقلت موازينه، والنار لمن خفت موازينه.

ثـــانيـا

الفرق بين عذاب القبر والعذاب فى الآخرة

١ - العذاب فى القبر ليس من قبيل الجزاء :

وإنما هو امتداد لعمل الإنسان فـى الدنيـا، كـل مـن هنـاك أن تـأثيره يتناول الجانب المعنوى من الإنسان بعد أن فقد جسـمه بـالموت. وقـد بينـا سلفا أن من انتحر مثلا تستمر معه حالة الانتحار بكل فزعها ورعبها بعـد الموت ... وقد قـال بذلـك المشـتغلون بعلـم تحضـير الأرواح علـى ضـوء تجاربهم ومشاهداتهم .

٢ - العذاب فى الآخرة جزاء :

بمعنى أنه لا صلة له بطبيعة العمل الذى إرتكبه الإنسان فـى حياتـه الدنيا .... فقد يكون ما ارتكبه الإنسان هو القتـل أو الانتحـار أو الكفـر أو الفسـوق أو العصيـان، ومـع ذلـك فـالجزاء فـى الحيـاة الآخـرة هـو عـذاب السعير فى نار جهنم.

وربما الهدف من هذه التفرقة :

أولا : أن يعلم الإنسان أن لعمله أثرا بعد الموت، ذلك أن من منـا يتصـور أن تستمر معه لحظات الندم أو الفزع أو الجـزع بعـد وفاتـه - وقـد تحلـل مـن جسده وغطائـه الـذى كـان يقيـه أو يحـد وقـع هـذا النـدم والفزع فى حياته الدنيا - حتى بعد رحيله للأبدية، بالقطع سيراجع نفسه قبل ارتكاب هذا العمل ألف مرة، لأن صـداه لا جـدال لـه مـن العنف والاستمرارية ما يفوق الطاقة وقد فقد ما ينعكس عليه .

ويكاد يكون تصوير هذا العذاب بحية لها ما يزيد على سبعين رأسا .. وحفرة من نار .... الخ، تجسيدا لواقع هذا العذاب الذى يفوق الطاقة والاحتمال . ذلك أن هذا الصدى سينطلق فى الأبدية بكل قوته وعنفه دون أن يجد ما ينعكس عليه ليقلل من وقعه أو يحد منه ..

ثانيا : أن يعلم الإنسان أن عمله سيحاسب عليه سعيرا يوم القيامة، حتى ولو كان فى الدنيا سكرة من سكرات الخمر فيها لذة للشاربين، أو كانت نشوة من جنس للراغبين المشتهين .. طالما كانت قد زينت لها الشياطين .

ومن منا يتصور أن وراء جرعة الخمر هذه أو تلك النشوة من الجنس .... نار حارقة لا تبقى ولا تذر إنها حقا لواحة للبشر عليها تسعة عشر .... ثم يطيب له سكرة أو تعنى له متعة !

وهكذا يجد الإنسان نفسه محاصرا بين عذاب معنوى يتناول كل تلك الانفعالات والأحاسيس المرعبة أو المجزعة التى انطلق عنانها بالموت لتصير عذابه فى القبر، **وبين عذاب الحريق فى الآخرة** عن كل الأحاسيس والانفعالات الشهوانية والغرائزية .... الخ، طالما كانت هذه وتلك وليدة أعمال ما أنزل بها الخالق من سلطان .. وإنما كانت مجرد إتباع لخطوات الشيطان.

والمحصلة أنه على الإنسان أن يحاذر الف مرة وهو يقدم على ارتكاب المعاصى وأعمال السوء، لأنه : سينعكس على نفسه صداها المرعب والمفزع والمخجل طيلة مرحلة الموت. ويجازى عنها فى الآخرة بعذاب الحريق إلى أبد الآبدين.

ثالثا
صورة العذاب فى الآخرة
والحكمة منها

تتخذ صورة العذاب فى الآخرة سعيرا وحريقا فى نار جهنم وقد سبق أن بينا أن هذه الصورة من العذاب هى أشد أنواع العذاب، **وقد عدلت عنها البشرية فى تطورها الأخير لما تحمله من قسوة وعنف،** واستبدلتها بصورة أخرى أقل إيلاما كالأشغال الشاقة وما إليه.

والسؤال المطروح كيف تكون هذه هى صورة العذاب فى الحياة الآخرة التى تتميز بسموها عن حياتنا الدنيا .. وكان الأولى أن يتخذ العذاب هناك صورة أخرى تتناسب والطبيعة البشرية، التى لا تطيق هذا النوع من العذاب بل ويستحيل أن تتحمله للحظات.

والجواب : أن النار كصورة من العذاب لم توضع أصلا للإنسان وإنما هى أساسا قد أعدت للشيطان، حيث أنها الصورة الوحيدة التى يمكن أن تؤثر فيه إيلاما وتعذيبا. فالمعروف أن الشيطان قد خلق من النار ولا يطويه إلا نارا أكثر منها حريقا، حيث لا يفل الحديد إلا الحديد.

ومن ثم إذا كان الشيطان قد خلق من نار السموم فلا يطويه إيلاما وتعذيبا إلا نار جهنم التى وقودها الناس والحجارة تكاد تميز من الغيظ وتسمع لها شهيقا وهى تفور كلما ألقى فيها فوج تقول هل من مزيد.

ولا مجال لاعمال الصور الأخرى من العذاب كالحبس والسجن بالنسبة للشيطان، إذ أن ذلك يتطلب أن يكون الشيطان من تكوين مادى شأن الإنسان حتى تؤثر فيه، وأن يكون المطلوب هو تقويمه وإصلاحه .

ولذلك فإن الحكم الإلهى الذى صدر على الشيطان يوم طلب الشيطان من رب العزة أن ينظره إلى يوم يبعثون أن قال رب العزة *" قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق أقول* لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين "*[1] .

وهكذا فالنار أعدت للشيطان أساسا ومن تبعه أيضا من بنى الإنسان (شياطين الإنس) ذلك أن من تبعه من بنى الإنسان قد استحق حكمه وصارت النار مثوى لهم خالدين فيها أبدا. **ولا تحسبن الذين اتبعوا الشيطان أقل خطرا منه، بل هم أكثر وبالا وأشد ضلالا:**

فهم أهل المكر والخداع، ومنبت الفتنة والرذيلة ، قلوبهم ملؤها الحقد والجشع، يعشقون سفك الدماء وهتك الأعراض ... والأدهى والأمر أنك تحسبهم أهل المبادئ والقيم بما أوتوا من مكر الشيطان ودهائه... وكم عانت البشرية من هؤلاء على مر العصور حيث كانت الحروب والفتن والقهر والاستعباد .

ولعل مكمن الخطورة فى الحقيقة أنك قد تحذر الشيطان ومكره، ذلك أنه عدو مبين، ولكن كيف لك أن تتحاشى هؤلاء وهم من بنى جنسك

---

[1] سورة ص ، الآيات من ٨٠ – ٨٥.

وعندهم معسول القول وممشوق القوام وطيب المظهر .. ينفذون إلى أعماق وجدانك وأنت عنهم غافل، ويوجهونك إلى حيث مرادهم وأنت لهم آمن .. تحسبهم ناصحين وهم لك من الغاويين.

إنهم فعلا من شياطين الإنس لفرط ما اتخذوا الشيطان قرينا، واتبعوا سبيله فكان لهم دليلا، وعاشروه فكانوا له أهلا وقبيلا :

فهم قد انتهجوا خط الشيطان من الاعتراض دائما على الحكمة الإلهية – وكما بينا سلفا أن التسليم بالحكمة هو قمة الإيمان بالخالق – وهم باعتراضهم على الحكمة قد كفروا بخالقهم وأنكروه ونصبوا من أنفسهم آلهة يقدرون ويحكمون ... ألا ساء ما يقدرون ويحكمون .

كما أنهم التزموا خط الشيطان حين استحبوا العصيان على الطاعة، فحياتهم فسق وفجور، ودعوتهم خروج على طاعة الخالق وعدم الالتزام بأوامره ونواهيه، وحجتهم دائما أنهم الأعلون وإن هى إلا حياتهم الدنيا ولا يهلكهم إلا الدهر، ومرادهم ضلال الآخرين حتى يكونوا عزوة وقبيلا.

إنهم فعلا شياطين وإن اتخذوا ثوب البشر، وحق عليهم أن يشاركوه عذابه دون ما رحمة أو هوادة حتى ولو كان عذاب السعير .... قالها لى أب مكظوم (قتل وحيده فى يوم مشئوم، حين استيقظ ولده واللص على وشك الهروب، فأخذه اللص باليمين فأرداه قتيلا ليجول ويصول، ويفر بغنيمته هاربا) يا ليته أخذ كل مالى.. وترك وحيدى – الذى هو صديقى وأبى وولدى وكل دنياى – ولكن عهدا على ما دمت حيا أن أجده لأكويه بنار من بعدها نار لا يموت

فيها ولا يحيا، عسى أن تنطفئ النار التى أشعلها فى وجدانى، فجعلتنى حطام بشر يحيا دون هوية .... إلا من هدف واحد، وهو أن يشرب ذلك الشيطان اللعين من نفس المعين، الذى اسقانى إياه بغدر وخسة نارا وسعيرا.

أدركت وقتها أن عذاب الحريق هو قمة العدالة الإلهية لمثل هؤلاء الذين أشعلوا جذوتها فى الحياة الدنيا، فتركوا الناس ثكلى .. وما هم بثكلى .... ولكن شر هؤلاء مستطير.

قال محدثى : وقد آمنت معك بعدالة هذا النوع من العذاب .. ولكنى فقط أكاد استوقف فكرك عند هذا المنعطف من رحلتنا ؟

أولا – لنتفحص ما إذا كان الجحيم منازل ومدارج ليتناسب مع نوع الجرم ومداه، أم هو سقطة واحدة لأصل الجحيم لا تميز ولا تفرق؟

وثانيا – أن هول يوم الوعيد قد جعل قومى هناك يعرضون عن إتباع ما يخيفهم من الأديان، ويقبلون على ذلك الذى يعدهم النعيم حيث ينالوا الغفران بمجرد الاعتراف بذنوبهم.
أو يغفل الحديث عن الحياة الأخرى من الأصل، فلا يكون هناك وعيد.

قلت :

فأما عن الأولى فسل قومك عن نظامهم فى التقاضى حين تجرى المحاكمة عن جريمة ما، سيقولون يسمع المحلفون لأدلة الاتهام ودفاع

المتهم حتى إذا ما تأكد لهم الإدانة كان المتهم مذنبا Guilty وإذا لم تتأكد فالمتهم غير مذنب Not Guilty .... وبعد ذلك يترك للسلطة العقابية – فى حالة إعتبار المتهم مذنبا – تقدير العقوبة، على ضوء العديد من الاعتبارات الاجتماعية والشخصية والنفسية للمحكوم عليه.

قل لهم إذا كان هذا دأبكم معشر البشر فهل تنكرون على رب العزة وهو الحكم العدل أن يكون معيار العذاب حرا لا جمود فيه وهو الواسع المغفرة التى قد تصل لأن يبدل سيئاتهم حسنات.

حقا أن *"من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية"* .... **ولكن يبقى بعد ذلك رحمة ربك وجوده عند توقيع العذاب، إذ هناك بالتأكيد من هم فى الدرك الأسفل من النار كالشيطان وأتباعه من الناس خالدين فيها أبدا .. ومن هم دون ذلك مكانة وهناك من يعرضون على النار فقط** .... والله وحده أعلم بمستقر الأنفس ومنتهاها يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله.

وأما عن الثانية : وهى الوعيد بعذاب الحريق فإنه قمة الرحمة، وذلك للآتى :

١ – **ذلك أن هذا الوعيد إنما جاء فى الحياة الدنيا**، ومازال أمام الإنسان كل الفرص لدرئه وتحاشى أثره، مهما كان قاسيا ... إذ ما يعنيه من فرط قسوة هذا العذاب بأن كانت نار وقودها الناس والحجارة أو أكثر أو أقل – طالما إنه سيتجنبها ويتجاوزها إلى حيث نعيم ما بعده نعيم. فالأمر مازال بيده، والطريق معروف ومرسوم وخطواته واضحة، كل ما هنالك هو الإصرار على الوصول وصدق النية على بلوغ الهدف.

٢ – ثم – وهو الأهم – أن قسوة الجزاء إنما هى دائما للصالح العام كما نعمل بذلك فى القوانين الوضعية، إذ لو أردنا أن نقتلع جذور جريمة من المجتمع، فعلينا أن نشدد العقوبة على المخالف. ومن ذلك مثلا ما ينادى به البعض من زيادة العقوبة على الاغتصاب لحد الإعدام بعدما تفشت ظاهرة خطف السيدات.

٣ – بالإضافة إلى أن عذاب الحريق هو عذاب مضاف إلى ما بعد الموت، وقد يجد الإنسان – طالما ما زال على قيد الحياة – بينه وبين هذا العذاب فرسخا من الزمان ... إذ رغم إيمانه بأن الموت حقيقة واقعة، إلا أن الإنسان جبل على أن هذه الحقيقة لن تصادفه، ولا يكاد يتصور أن يخضع لحكمها .... **ومن ثم يرى هذا العذاب باهتا لا يكاد يراه أو يحسه.**

وبالتالى يجب أن تزيد جرعة هذا العذاب – كما ونوعا – حتى أن ما بقى من التفكير فيها، يكفى لأن يردعه من الوقوع فى الذلة والخطأ . ولو كان هذا العذاب **حالاً** لكان يكفى ذرة منه لأن تردع حتى شيطان الإنس، إذ لك أن تتصور أن إنسانا ترك الصلاة لوقتها وقام ملكان بجلده مثلا .... فهل كان هناك من يترك الصلاة ؟ .. **كلا** .

٤ – وفى النهاية فإن المطلوب فى الحياة الدنيا أن يخاف الإنسان وعيد. ذلك أن الخوف إذا ما احسن استخدامه كان سبيل الإنسان إلى الصلاح والفلاح [1] .... فالخوف مدعاة إلى الحذر وإعمال العقل وتقدير الحساب بمنطق وفهم .

---

(١) أما سوء استخدامه فإنه يولد القهر والجبن وتلك رذيلة.

فالذى يخاف الرسوب هو الذى يعمل للنجاح، والذى يخاف الفقر هو الذى يجاهد للغنى .... والذى يخاف الآخرة هو الذى يعمل لها فى الدنيا.

فالخوف هو لغة مشتركة بين كافة المخلوقات وسلاح فعال :

لغة أودعها الخالق قلب صغير الطير والحيوان حتى يكتب له النجاة والحياة من ضواريها ، فما وجدنا فأرا يعيش إلا ويخاف ويحاذر قطة، وما وجدنا غزالا يسير على قدميه إلا ويرهب أسداً أو ضبعاً .... وهكذا.

سلاح فعال يكفى لأن يروض عمالقة الحيوان لهزيل من بنى الإنسان ، ونظرة إلى ما يجرى داخل سيرك مثلا لترى الفيل أو النمر أو الأسد وهو يأتمر بعصا امرأة أو طفل صغير .... وأخرى إلى حقل من الحقول وأنت ترى الخيل والحمير والبغال يقودها ويسيرها .. بل وما هو أكثر يسخرها قزم من بنى الإنسان.

فالخوف هو الذى يجنب البشرية ويلات الحروب، وهو الذى يدفع بالإنسان إلى النمو والرفاهية، وهو الذى يجنب صغير الحيوان والطير الانقراض .. وهكذا، والأهم هو الذى يرفع الناس درجات فى الآخرة، ويباعد بين الإنسان وعذاب الحريق .... وهكذا.

وهكذا أرادها الخالق للإنسان أن يخاف وعيد.. يخاف بمنطق العقل والفهم والإدراك عاقبة أمره .. فيكون خاشع القلب لين الفؤاد .... يتجنب غضب الله ويسعى لمرضاته، وهو ما زال على الساحة من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة.

وليس فى ذلك ذلة ، إنما الذلة :

لمن يكابر ويفاضل بين أقل الأديان وعيدا، رحمة بنفسه من عذاب يوم أليم.

لمن يساير هواه ويمنى نفسه بدين ظاهره الرحمة (حيث ينال الغفران بمجرد الاعتراف بذنبه) **وعاقبته العذاب.**

ويا ليته قد آمن بقول ربه " ***إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع*** " [1] ذلك أن الحق هو قول الحق.

يومئذ لن تجدى شهادة غفران حتى ولو كانت موثقة، ولا حجاب مستور عن الآخرة، تدفع بها عذاب ربك الواقع.

نعم إنه تحذير وبلاغ للعالمين، لمن كان له عقل سليم، أو ألقى السمع وهو شهيد.

---

[1] سور الطور ، آية ٦،٧.

الباب الرابع

الثواب فى الآخرة

بعد أن فرغنا من تناول قهوة عم صالح وتوديعه لزيارة ابنه فى بلدته ليوم واحد .

قال محدثى : لقد أثقلت عليك كثيرا حينما طلبت منك المرور سريعا عند منعطف العذاب من رحلتنا ، حيث كاد فكرنا أن يتعثر بل وينصهر فى خضم هذا اللهيب والشرر المتطاير والشهيق الذى يصم الآذان والدخان الذى يسد الحجب ، لولا أن كانت ملامستنا الفكرية لهذا المنعطف عن بعد.

ومن ثم لم نتناول إلا تلك المعالم الرئيسية لطبيعة العذاب والهدف منه، دون أن نمعن الفكر فى صوره وأشكاله من عذاب الحريق لنار جهنم ونار السعير والجحيم وسقر والحطمة والهاوية ولظى .... الخ.

أما ما يتعلق بالنعيم فيا حبذا لو تثاقلت خطواتنا، وغاب عنا فكرنا، واستسلمنا لتلك النشوة التى يعجز عن وصفها بياننا .... فهو رضا وهناء.. بل وفناء فى كل ما هو فوق إدراكنا .. **نعم إنه محسوسات** حيث جنات ونهر وما هو أكثر – فى مقعد صدق عند مليك مقتدر – وفاكهة مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون .. ويحلون فيها بأساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق .... الخ.

ولكن علينا أن نعبر بسرعة هذا الوصف للنعيم الذى يفوق الخيال، إلى تلك القضايا التى يثيرها قومى هناك.

يقولون عن النعيم أنه :

أولا - نعيم مادى على شاكلة النعيم فى الحياة الدنيا كل ما هنالك أنه يجاوزه فقط من حيث المدى، وكان الأولى أن يكون نعيما روحيا يناسب طبيعة الحياة الأبدية هناك، أسوة بتلك التى يعيشها الملائكة مثلا.

ثانيا - ثم كيف يتصور الإنسان أن يعيش حياة أبدية حتى ولو كانت فى النعيم دون أن يشعر بالملل والرتابة ، وقد أخذ فى حياته الدنيا على الكفاح والنضال بما يتطلبه ذلك من تفكير وتدبر ومفاضلة بين البدائل واتخاذ قرار.... وكل ذلك - رغم ما فيه من معاناة - يجعل للحياة الدنيا معنى وقيمة ، ويضفى على نعيمها الطلاوة والمتعة .... الخ.

ثالثا - ثم هم يقولون هل ستظل طبيعة الإنسان فى هذا النعيم على شاكلتها فى الحياة الدنيا، أم سيطرأ عليها بعض التغيير الذى يناسب طبيعة النعيم هناك ؟

قلت : إذا هى نظرة، نتناول فيها طبيعة النعيم فى الآخرة، وأخرى نتناول فيها طبيعة الإنسان فى الجنة.

وسوف نعرض لهما فيما يلى على التوالى :

أولا
طبيعة النعيم فى الآخـرة.

١ - نعيم مادى ملموس :

النعيم فى الآخرة مادى وملموس، ذلك أنه وضع أساسا للإنسان بالصورة التى تطرب لها بشريته .. وتهتز لها عواطفه وأحاسيسه وتنعم بها جوارحه وفيه يشبع غرائزه .... ولذا كانت جنات تجرى من تحتها الأنهار ولحم طير مما يشتهون .. وحور عين .. ولدان مخلدون .. وأنهار من خمر ولبن وعسل لذة للشاربين .... وهذه وتلك هى قمة ما يصل إليه الإنسان فى حياته الدنيا من الاستغراق فى النعيم. وما وجدنا صاحب مال - مهما كثر- كان له أكثر من قصور وجوارى ولحم طير، ليعيش كل نعيم الدنيا.

ومن ثم إذا أردتها مكافأة للإنسان - الذى حرم نعيم الدنيا، أو عايشه بواقعه دون أن يتطرق لوجدانه - فليس هناك إلا مضاعفة هذا النعيم مرات ومرات فى الآخرة مع الحفاظ على نوعيته. إذ تلك هى الصورة التى تطربه وتهز أحاسيسه وانفعالاته، دون ما غيرها من صور أخرى من النعيم الروحى التى أعدت لغيره من المخلوقات طالما أنه لم يتذوقها من قبل وطالما تخرج عن طبيعة تكوينه المادى.

وهكذا نصل إلى أن النعيم إنما وضع أساسا للإنسان الذى خلق من طين، ومن ثم كان لابد أن يكون نعيما ماديا يناسب بشرية الإنسان وطبيعة تكوينه .... تماما كما سبق أن تناولنا أن الجحيم إنما وضع أساسا للشيطان (ومن تبعه من الناس) ومن ثم كان نارا حارقة لا تبقى

ولا تذر.. لتناسب طبيعة تكوين الشيطان الذى خلق من نار السموم .... ومن ثم تؤثر فيه إيلاما وتعذيبا. دون غيره من أنواع العذاب الأخرى التى أعدت لغيره من المخلوقات كالحبس والسجن.

٢ - نعيم مقيم :

النعيم لا يمكن إلا أن يكون أبديا، أما غيره من نعيم زائل فهو ليس بنعيم، وإنما هو متعة عارضة تجلب الحسرة بعدها على زواله.

وما نعيم الدنيا إلا من قبيل هذه المتعة الزائلة، ومن ثم فهو ليس بنعيم بالمفهوم المنطقى للنعيم .... **وما من يوم يمر إلا ونجد إنسانا يبكى ويقول : هلك عنى سلطانى .. ونفذ منى مالى .. وتلك حياتى .. يوم على .. وآخر لى .. لتعيد دورتها ها هى.**

وهكذا فالخوف على زوال النعمة - يوما - يقضى على الإحساس بها ويغير مفهومها، ويجعلها متعة زائلة شأن الحياة الدنيوية الفانية .

ومن ثم فالنعيم الحق هو النعيم المقيم .. نعيم الآخرة.

ثانيا

طبيعة الإنسان فى الجنة

بينا أن الإنسان يتميز فى الحياة الدنيا بما وهبه الخالق من جسم يقود به المسيرة وتسوية عقلية، والأنا المختارة التى هى نفخة من روح الله. فهل ما تزال تؤدى هذه المكونات نفس دورها فى الحياة الآخرة، أم أنها تختلف بحسب طبيعة الحياة الأبدية فى الجنة ؟

١ - الجســم

أ - فى الحياة الدنيا :

معروف أن جسم الإنسان فى الحياة الدنيا إنما أعد ليتحمل مسيرته فيها :

ومن ثم فهو يتدرج مع الإنسان حسب مرحلة حياته فى هذا الوجود، وبالتالى يتغير ويتبدل بحسب ما إذا كان الإنسان طفلا أو شاباً أو كهلا.

وهو يتفاعل مع واقعه وطبيعة البيئة التى يعايشها ومن ثم يطرأ عليه المرض والعجز. وهو الأداة التى يتعامل بها الإنسان فى دنيا المحسوسات ومن ثم يضنية العمل ويأرقه السهر.

وهو الذى يفرض على الإنسان الوقوع فى الخطأ حين تتأجج غرائزه وشهواته. وهو الذى يسخر الإنسان لخدمة متطلباته الجسدية من مأكل ومشرب بصورة تحقق له ملذاته .. حتى ولو تطلب الأمر العدوان على الآخرين.

فكأن محور الفكر الإنسانى - فى مرحلة الوجود التى يعيشها - هو فى كيفية الحفاظ على هذا الجسد، وتحقيق رغباته وإشباع شهواته، ومن ثم يشغله دفع الأمراض عنه وتجنب فنائه بالموت أو على الأقل تأخيره، وتوفير سبل الرفاهية له حتى يتيسر له تحقيق رغباته وإشباع شهواته. وهو فى سبيل ذلك يصارع ويناضل كل ما يقف فى طريقه من طبيعة أو تطلعات غيره من البشر وهكذا.

والأهم من كل هذا أن هذا الجسد مثار سخط الشيطان وغضبه من الإنسان : إذ أن خلق الإنسان من طين الأرض، حيث هذا الجسد المادى، هو الذى أنكره الشيطان وكان محل خروجه واعتراضه على الحكمة الإلهية من السجود لآدم، وهو الذى خلقه الله من نار السموم.

ومن ثم تدور حلقات الصراع بين الشيطان والإنسان على محور رئيسى وهو هذا الجسد المادى للإنسان .. حيث يزين الشيطان للإنسان حياته المادية فى هذا الوجود، ويدفعه دفعا لإشباع غرائز هذا الجسد ومتطلباته، ولو كلف هذا الإنسان العصيان والخروج على الطاعة الإلهية .. وهكذا.

والجسد فى كل الحالات السابقة مفروض عليه الطاعة فى امتثال للإرادة التى تسيره، إذ هو لا يعدو أن يكون الأداة المنفذة: سواء كان ما يجنيه الإنسان متعة حسية أو حرمان منها.

ب - فى الحياة الآخرة :

اما فى الحياة الآخرة حيث النعيم .. حيث الأبدية .. حيث الانتصار على الشيطان .. حيث النفس المطمئنة .. حيث التفانى فى الحضرة الإلهية.. حيث القرب من العقل الأعظم .. حيث العطاء الإلهى بكل سعته .. حيث الجنة .. حيث ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر. فبالتأكيد سيتغير هذا الجسم ليعايش نعيمه، ومن ثم نجده :

١ - **وقد تحلل من دورته فى الحياة الدنيا** - وهى الطفولة والشباب والشيخوخة - **ليصير فى شباب دائم ومتصل إلى أبد الآبدين** . حيث الشباب هو صحوة العمر التى يتضاعف فيها الإحساس بالنعيم.

٢ - وقد برء من أمراضه ليصير فى نضرة وحيوية كاملة، فيتجرع النعيم وينهل منه، وهو موفور الصحة والعافية.

٣ - وقد تنصل من شيطانه الذى يقهره على الفسق والفجور، ليستمتع برغباته فى حب ونقاء ، شكراً وثناء.

٤ - وقد تسامت ذاته، فلا يجد ما يضنيه من فكر واجهاد ولا ما يشقيه من قهر واستعباد، وإنما هى دائما حلاوة القرب والاستغراق فى النعيم.

٥ - وقد تحرر فى النهاية من تلك الطاعة المفروضة عليه فى جبر وعناء، ليحل محلها المفاضلة بين المتع الحسية فى حرية واسترخاء. *" إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون * هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون "* [(١)] .

وهكذا يمكن القول أن جسم الإنسان يعاود سيرته الأولى يوم كان الإنسان فى الجنة *"وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين "* [(٢)] **، وأن ما طرأ عليه من تغيير فى الحياة الدنيا إنما كان نتيجة هبوطه الأرض حتى يلائم ظروفها وطبيعة الدور المعقود عليه القيام به، فى قضية الصراع الدائر بينه وبين الشيطان .**

[(١)] سورة يس ، الآية ٥٥ - ٥٦.

[(٢)] سورة البقرة ، آية ٣٥.

٢ - التسويـة العقليـة

أ - فى الحياة الدنيا :

بينا أهمية عقل الإنسان فى الحياة الدنيا:

إذ هو الذى يضع القيود على غرائز الإنسان ويحكم تصرفاته ويدفعه على الارتقاء بواقعه إلى حيث مراده.

والأهم أن يصارع به شيطانه فيكسب به قضيته فى الوجود ...الخ.

وهذه الوظائف المعقودة على العقل فى الحياة الدنيا تجعله دائما فى معاناة ما بعدها معاناة ... ويمكن أن تزيد هذه المعاناة إلى ما هو أكثر، إذا كان واقع الإنسان مريرا ولا يجد الإنسان بعقله ما يتجاوز به صعوبات هذا الواقع.

ولك أن تتصور معى ما يدور على صعيد الواقع، من شاب عانى حتى تعلم، ولم يجد عملا ولا سكنا وانقطع أمله فى الزواج والإنجاب وتكوين أسرة .... الخ. وقد أحاط فكره بأبعاد واقعه وعجز عن حل مشكلته بكل ما أوتيه من عقل وإدراك .... بالقطع سيعيش فى معاناة فكرية وعقلية تفوق الطاقة والاحتمال، طالما فقد القدرة على تطويع واقعه الجامد إلى حيث تطلعاته فى الحياة.

وقد لا يجد مثل هذا الشاب حلا لمشكلته، إلا أن يلجأ لخلق واقع مرن فيه كل المتاحات يمكن أن يطوعه إلى حيث تحقيق تطلعاته، حتى ولو كان هذا الواقع مزيفا ولا وجود له إلا فى خياله وتصوره .... ومن ثم يلجأ لتعاطى المخدرات أو شرب الخمر .. بهدف أن ينفصل عن واقعة المرير ويعيش واقعا يريده فيه كل المتاحات .. يحقق فيه ذاته وآماله

وأحلامه، حتى ولو للحظات من الزمن .. حتى ولو كلفته هذه اللحظات المعدودة حياته بكاملها بين قضبان السجون.

وما قد يتعرض له هذا الشاب، قد يتكرر مع تاجر اشهر إفلاسه أو مريض عجز الطب عن علاجه .... الخ.

فالإنسان دائما فى معاناة فكرية طالما أنه يعيش واقعا جامدا لا يملك تطويعه إلى حيث تحقيق رغباته .... وحتى إن أمكن تطويعه فإنما ذلك بقدر محدود.

ب - فى الحياة الآخرة :

وإذا ما انتقلنا من واقعنا فى الحياة الدنيا إلى حيث واقع الحياة الآخرة نجد اختلافا بينا : **إذ بينما نجد واقع الحياة الدنيا جامدا تحكمه الندرة، نجد واقع الحياة الآخرة مرنا تحكمه الوفرة.**

فكل شىء متاح فى الحياة الآخرة ، بحيث يمكن أن يعيشه كل منا على قدر تصوره وتطلعاته .. بل وما هو أكثر بما لم يخطر على قلب بشر ، عالم يجد فيه كل منا ما يتصوره محضرا .... فيه كل المتاحات .. فيه جنات .. فيه عيون .. فيه حور عين .. لحم طير مما يشتهون .. لهم فيه ما يدعون.

بالتأكيد مثل هذا العالم يؤدى إلى تغيير وظيفة العقل بالصورة المعروفة فى الحياة الدنيا ليطبعها بطابع النعيم فى الحياة الآخرة وواقعها.

فيتغير من عقل كادح .. يعمل ليل نهار وفي كل الظروف والملابسات ...حتى ولو استقر حاضره ليؤمن على الأقل مستقبله الذى يجهله، **إلى عقل هادئ مستقر** تخفف من كل أحماله، حتى صار يرفرف فوق واقعه، ويهتز فرحة ولذة لنعيمه. ليس عنده ما يشغله من هم وغم وكرب وموت، وإنما فقط يتنقل من نعيم لنعيم ومن حس لآخر أحسن منه.. بعد أن كتب له الخلود. فصاحبه يشرب من كأس من معين .. من أنهار من خمر وعسل ولبن لذة للشاربين، ولديه حور عين .... وهو فوق كل ذلك من المقربين.

إنه يرتفع هناك إلى حيث مصادره الأولى إلى حيث العقل الأعظم إلى حيث الطمأنينة .. إلى حيث النقاء .... إلى حيث مقعد صدق عند مليك مقتدر .

فهل مازال الإنسان هناك يشعر بالرتابة والملل كما يدعى قومك؟..
كلا ألف كلا.

٣ - النفخة الروحية (الأنا المختارة)

بديهى أن يرتبط الإنسان بواقعه، ومن ثم تجده، أو بمعنى أصح تجد الأنا المختارة فيه ، تختلف باختلاف هذا الواقع :

١ - **ففى الحياة الدنيا حيث عالم الأضداد** .. الحر والبرد، والليل والنهار، والصيف والشتاء، والظل والضياء، والخير والشر، والخوف والأمن، والغنى والفقر .... تجد الإنسان دائما فى مفترق

الطرق : عليه أن يفاضل بين البدائل حتى يتخذ قرار ، وإذا ما إتخذ هذا القرار لابد من الإرادة أيضا والعزم حتى ينفذه.

وفى الحياة الدنيا حيث الحركة والدوران بما يتطلبه ذلك من تغيير الأوضاع بين الحين والحين، فإن الإنسان بدوره دائب على اتخاذ قرار تلو قرار على مدى دورة حياته، ومن ثم نجد " الأنا المختارة " فيه أو بالأصح المحتارة ، دائما فى قلق وتوتر خشية التردى والخطأ بما قد يترتب على ذلك من تفاقمات.

وهكذا نجد " الأنا " فى الحياة الدنيا عالم الأضداد والمتغيرات، فى عناء واختبار دائب ومتصل للحد الذى قد تفقد فيه هويتها وتضل ... وقليل من الناس من عبر حياته " بأنا " سليمة الأوصال .. محددة الأهداف.

أما فى الحياة الآخرة حيث عالم السلامة والوفرة والطمأنينة .... الخ، حيث الهدف هو تحقيق النعيم المطلق .. عالم كله خير وبالتالى لا حسد فيه ولا جشع ولا طمع ولا غرور، وإنما هو بركة وإحسان ورضى وعفو .. لا جوع فيه ولا عطش ولا عناء ولا كدر ولا فقر ، وإنما هو شبع ورى وراحة وهناء وغنى .... الخ.

ومن ثم فإن الأنا المختارة التى تفاضل بين الأضداد فى الحياة الدنيا تتغير مهمتها إلى " الأنا " المطمئنة التى لا تخاف ولا يخطئها الاختيار... حيث كل الاختيارات خير ورضوان .. وكل الاختيارات متاحة .... وقد تجمع بين كل الاختيارات فى آن واحد دون ما أثرة أو عدوان.

٢ - **كما يتميز عالمنا فى الحياة الدنيا بالندرة**، وعدم كفاية الموارد لسد احتياجات كل البشر، لذا كانت " **الأنا المريدة** " التى شاغلها على مدى دورتها، المزيد من الاستئثار بكل ما فى هذه الحياة من نعيم، حتى ولو كان على حساب الآخرين، فالإنسان فيها شاغله جمع المال والفوز بالسلطان والتفاخر بالأولاد .... الخ.

وكلما جمع من عتادها ونعيمها زاده ذلك شغفا لجمع المزيد، ولن يقف جنوح نفسه نحو هذا التكاثر إلا إذا وافته المنية، وفى ذلك يقول الحق " *ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر* " [١] .

أما فى الحياة الآخرة حيث الوفرة كل الوفرة، فإن " الأنا " بالطبيعة تتغير من " الأنا المريدة " إلى " الأنا المحبة ".

وفارق كبير بين الأنا المريدة والأنا المحبة، ذلك أن الأولى طبيعتها الاستئثار بكل ما هو متاح وغير متاح، ومن ثم ففيها الطمع والجشع وحب الذات .... الخ.

أما " الأنا المحبة " فطبيعتها الإيثار والعطاء، ذلك أن الحب يسمو بالنفس ويتعالى بها عن الجشع والطمع. وما منا من عايش حالة حب إلا ووجد نفسه، وقد ضحى بالكثير وأعطى المزيد، برضا وسماحة وإنكار كامل للذات .. وما بالك إذا كان الحب قد ارتفع إلى درجات الحب الإلهى، بالقطع ستجد النفس الذى زادها الحب تفان فى العطاء ... النفس العاشقة التى تسمو فوق الماديات. ولن يغرقها فى النعيم هناك إلا

---

[١] سورة التكاثر ، آية ١-٢.

احساسها فقط بأن ذلك عطاء الله، إذ ستنهل منه بعشق الحبيب فيتضاعف الإحساس بالنعيم مرات ومرات.

وهكذا :

فإن عالم السلام، عالم السكينة، عالم الوفرة، يعكس بالضرورة سلاما مع النفس ، يجعلها راضية مطمئنة، يعكس سلاما مع الآخرين حيث تكون تحيتهم فيها سلام .. تصعد " الأنا " إلى حيث مصادرها .. إلى حيث عليين وتتفاعل مع عالمها .. فتكون فى قرار مكين ... فتكون اختياراتها دائما تسبيحا وشكرا، وتكون متعتها الحسية دوما قربا وحبا، وتكون دعوتها أن الحمد لله الذى صدقنا وعده .. نتبوء من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين.

نعم إن الاختيارات هناك أجر للعاملين، وليست اختبارات كما هى فى الحياة الدنيا... فما تشتهيه الأنفس ابتلاء لها فى الحياة الدنيا، يكون هناك متاحا مكافأة وأجرا.

ولا غرابة أن تعددت المتع الحسية هناك، مما قد ينكره البعض على نعيم الجنة - فهى هناك حلال طيب لا دنس فيها ولا عدوان ... وإنما هى دلالات رضى وأمارات إحسان واختيارات شكر وعرفان .

قال محدثى : بعد أن بينا أن الطاقات العقلية والأنا فى الإنسان تتغير إذا ما قدر له النعيم فى الجنة، **بقى أن نتعرف على ما إذا كان هذا التغيير يتم تلقائيا أم لابد أن يسبقه مجاهدة من الإنسان نفسه ؟**

قلت : الإجابة (من منظور علمى) هى أن هذا التغيير لابد أن يسبقه مجاهدة من الإنسان، **ويترتب على ذلك أن بداية هذا التغيير تبدأ فى الحياة الدنيا** - حيث أن هذه الحياة هى التى على ساحتها تجرى مجاهدة النفس، وعلى صعيدها يجرى تكبيل الفطرة الإنسانية بالعقل.

ومن ثم على الإنسان وهو يقدر لحساباته فى الدنيا أن يتعلق بالعقل الأعظم الذى تفوق إدراكاته ملايين المرات حساباتنا، حتى إذا ما وجد أن القضاء قد جرى بخلاف ما قدر، فعليه أن يسلم فى رضا وقناعة بالمشيئة الإلهية.

وعلى الإنسان أن يجاهد نفسه المريدة بكل عوالقها من طمع وجشع وحسد، إلى نفس محبة تسمو فوق الماديات فى إيثار وعطاء.

وعليه أيضا أن يجاهد نفسه القلقة المتوترة التى تجزع وتحزن وتفزع لكل ما يصيبها من قضاء، إلى نفس مطمئنة راضية بما قدر لها، وخير دليل على ذلك ما جاء فى الآية الكريمة " ***يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى*** *عبادى * وادخلى جنتى*" [1].

فكأن طمأنينة النفس فى الحياة الدنيا وصقلها بالحب الإلهى، وقهرها لشهواتها، والتحكم فى غرائزها، والسيطرة على دوافعها من استئثار وجشع، والرضاء الكامل بقضاء الله باعتبار أنه صادر عن عقل أعظم دونه إدراكاتنا .. كل هذه هى مؤهلات الإنسان التى يتحصل عليها من دنياه .. للرجوع إلى الخالق ودخول الجنة.

---

[1] سورة الفجر، الآية ٢٧ - ٣٠.

والمحصلة النهائية أن الطاقات العقلية للإنسان والأنا فيه تتغير مع نعيم الجنة، شريطة أن يكون الإنسان قد أهل نفسه على الأقل في حياته الدنيا لتقبل هذا التغيير والتبديل.

وربما هذا ما دعا القائمون على الجمعيات الروحية في الغرب (والقياس هنا مع الفارق) أن يتصوروا أن الإنسان، إنما هبط هذه الحياة الدنيا ليبلغ قدرا من الترقى الروحى ويرتفع بها إلى حيث مصادرها.

حتى أنه فى تصورهم إذا لم يتح للإنسان بلوغ هذه الدرجة من الترقى، فإنه يعاود حياته الدنيا مرة أخرى فى جسم وظروف أخرى تسمح له باستكمال درجة السمو المطلوب.

وقد ضربوا لذلك العديد من القصص عن أناس سبق لهم الحياة وتذكروا فيما بعد واقعها، وكان هدف حياتهم الثانية – بداهة – استكمال ما فاتهم من الترقى فى حياتهم الأولى .... الخ.

وهكذا يمكن القول فى النهاية :

أن طبيعة الإنسان بمكوناتها الثلاث: الجسم والطاقات العقلية و الأنا تتغير لتتلاءم مع حياة النعيم فى الجنة. حقا *" إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون * هم وأزواجهم فى ظلال على الإرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون *سلام قولا من رب رحيم "*[1] .

قاطعنى محدثى : استودعك سلاما إنى ها هنا من القاعدين .. وما احسبنى على العودة من القادرين ... إنها هنا جنات وعيون وكلها درجات فى عليين : جنات الفردوس .. جنات عدن .. جنة الخلد .. جنة

---

[1] سورة يس ، الآية ٥٥ – ٥٨.

النعيم .. جنة عالية .. جنة المأوى .. جنات عرضها كعرض السموات والأرض.. جنات معروشات وغير معروشات .

إنى هنا فى سكرة عشق .. بل هى غمرة ود .. طوفان صدق .. هدير محبة .. لحظة قرب .... **يا ليتها بحق كانت لى .. ويا ليتها ختامية.**

قلت : من أجل ذلك فليعمل العاملون ، قم فأسرع .. وإلى ربك فكبر.. والرجز فاهجر .. وجاهد واصبر. لن أتركك – ها هنا – غريبا على أهل الجنة تدخلها خلسة بفكرك، وإنما سارع وأدخلها مع كوكبة الداخلين من أبوابها *"وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم* خزنتها *سلم عليكم طبتم فادخلوها خالدين"* [١] ، وأنظر فإن غدا لناظره قريب *" وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد "* [٢] .

قال : أيقظتنى .. ولكن على آفاق أوسع ومدارك أرحب ..

إنها ها هنا ذاتى التى أدركت بعين اليقين مفهوم النعيم الأبدى، الذى يتضاءل معه كل كنوز الدنيا وما فيها ، وكل جاهها وسلطانها.

إنها ها هنا ذاتى التى تفجرت فيها كل ينابيع الفهم .... فصار عقلى مبصرا فى ملكوت النور، واخترق ظلمة الأشياء فى دار الفناء.

---

[١] سورة الزمر ، آية ٧٣.

[٢] سورة ق ، آية ٣١.

إنها هنا ذاتى .. إنها هنا الأنا التى غمرها السلام والسكينة فكانت فوق أحداث عالم الأضداد.

لقد تغير مفهومى للنعيم بحيث صار مفهوم النعيم عندى هو النعيم الأبدى .... النعيم الذى امتزج فيه الحب بالشكر.. والمتعة بالرضوان.

نعم لقد تغير عقلى وذاتى من إطار النسبية التى تكبلهما فى عالم الندرة والأضداد، إلى حيث الإدراكات الكلية والتطلعات العلوية فى عالم الوفرة والسكينة.

والآن رجعة إلى وراء .. إلى حيث عالمنا عالم الوجود .. ولكن فقط بجسد المبتهل.

قلت : بجسده وعقله وإدراكه ووجدانه وإرادته .... مهما تغيرت فى عالم السكينة **فما زال جواز المرور هناك .. هناك فى محطة القيام ، حيث حياتنا الدنيا.**

والان هيا نتطلع إلى متعة حسية من متع الدنيا .... نؤكد بها عودتنا إلى عالم الوجود .. بنا إلى لحم طير وغيره من خيرات الريف، آثر عم صالح استحضارها معه غدا من القرية لتناسب تلك الأكلة الشهية، التى يأمل ألا تنسى حلاوتها مهما طالت بك الغربة هناك .

اللقاء الختامى



ما أن طرق زائرى الباب قبيل موعده فى اليوم التالى حتى :

قال : معذرة عجلت بالحضور لأساعد عم صالح بقليل من الخبرة فى الطهى تعلمتها هناك .. والحقيقة أنى أريدها لحظات أنس ودفء هى كل رصيدى قبيل إقلاع طائرتى بساعات، فالرجل يذكرنى بأصولى من الآباء والأجداد .... **ولكنى أراك شاحبا منهكا فما عساك ؟**

قلت : بلا مقدمات .... **عم صالح مات** .. نعم هى كالصاعقة .. ولكنها الحقيقة مالها من واق .. **ترك لك رسالة فهل ابلغها ؟**

قال : ما احسبنى مدركها .. فقد اختلطت الحقيقة بالخيال .. والموت بالحياة .. والدنيا بالآخرة .. والحزن بالفرح. **ولكن قلها.**

قلت : لقد تركها رمزا .. فما أن طالعنى الصباح الباكر بخبر موته تليفونيا، حتى كنت اسابق الريح إلى هناك (فقد كنت أعلم أن عمله عندى طيلة حياته، إنما كان ليتباهى بى فى حضور جنازته يوم وفاته) وقد استوقفنى بعض الشيء كثرة عربات ورجال الشرطة على الطريق عند مشارف قريته، والعديد من اللافتات المرفوعة والمحمولة والتى بها عبارات الترحيب، وهذا الكم من السيارات التى شغلت جانبى الطريق الضيق الذى أسير عليه. وفى النهاية قادنى من استقبلنى من أهله إلى حيث كان جثمانه راقدا بمسجد القرية.

أدركت – بصعوبة – صلاة الجمعة التى كانت تقام فى هذا المسجد لأول مرة ، فقد كان هذا يوم افتتاح المسجد .. كان المحافظ والعديد من وجهاء القوم والغفير من كبار رجال الشرطة .. كان الخطيب من كبار

مشايخ وزارة الأوقاف ، وكان حديث الجمعة عن دلائل القبول عند الموت .. وكان الناس من كل حدب وصوب.

وما أن انتهت الصلاة حتى خرجت الجنازة فى موكب رهيب-كما لو كانت جزءا من مراسم الافتتاح - يتقدمها محافظ الإقليم ومن معه.

نعم كان الناس كالموج، وقد امتزجت فرحتهم بافتتاح المسجد الكبير (الذى يضم دارا لتحفيظ القرآن وقاعة للمناسبات) برهبة الموت، فاشتعلت عواطفهم .. والتهبت أحاسيسهم .... وتعالى هتافهم عاليا، كأنما يربط بين الأرض والسماء عند مقولة واحدة كانت تنساب كالترانيم : **الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.**

كان الرجل يزف إلى قبره .. يزف إلى آخرته، بما لم يزف به يوم عرسه. كل ذلك بقدر من الله ومشيئته ... ما أحسب غيره بالغة بماله وجاهه.

إنها حقا علامات القبول ودلالات الرضا التى كان يؤمن بها على الأقل - عم صالح - حينما كانت تمر عليه جنازة فى موكب رهيب.

وكانت فرحتى حين وجدت طيف هذا الرجل مجسدا (ولكن بأضعاف حجمه) ينظر إلى وهو يتصدر الموكب، تغمره فرحة ما رأيتها عليه فى دنياه، كان واقفا يلوح لى بكلتا يديه ... **إنى رحلت إلى هناك .. حيث كنتم، ولكن فى رحلة حقة.. فبشر صديقنا أننا على لقاء.**

قال : ولكن كيف وأنا أكاد اتلمسه الآن مبتسما يقدم لى فنجان القهوة !!

قلت : لا يا صديقى ، **لقد رحل عمى صالح بعيدا... بعيدا.... حيث لا مكان وكل مكان . واختفى عم صالح وراء .. وراء الأزمـان، حيث لا زمان وكل زمان.**

وباتت كـل حياتـه التـى عايشـناه فيهـا، أثـرا بعـد عيـن إلا مـن تلـك الصنية التى أمامنا وما عليها من فنجـان . نعـم محـال محـال .... ولكنهـا الحقيقة .. الحقيقة .. التى تفوق كل خيال.

قـال : ومـا قـدر **يقينـك** بمـا سـيراه عـم صـالح مـن رحلتنـا خـلال الملكوت ؟

قلت : لقد صدق عليه حدث الوجود وهو الآن يعايش حدث الموت، وهذا وذاك مقدمات وأسباب لحدث البعث والحساب ... **وعند هذا ينحصر يقينى.**

أما ما يراه **يقينا** من رحلتنا التـى قطعناهـا بفكرنـا، فعليـك سـلفا أن **تدرك قدرى، حتى تسأل عن صدق يقينى.**

ويمكن لك أن تتصـور **قـدرى وبالتـالى صـدق يقينـى** خـلال رحلـة عودتك ، وأنت تنظر من نافذة طائرتك إلى حيث أمواج تغشاها أمواج من السحب .. وجبال منها تعلو جبال .... لينفذ بصرك بالكاد إلى حيث رقعـة من أرض تكاد تتعرف عليها .

فيقال لك أن تحـت هـذا الرهـط مـن الجبـال وعلـى هـذا السـفح مـن الأرض والذى لا تكاد تراه ، تعيش كائنات وكائنات تموت وتحيا وتتـآلف وتتصارع.

ومن بين هذه الآلاف منها **يوجد كائن ضعيف لا مخلب له ولا ناب يسمى الإنسان** تصل أعداد أفراده إلى بلايين البلايين.

يحدثك أحدهم عن هذا الملكوت الذى يبتلع طائرتك وسمائك ويتجاوز بفكره المدى الزمنى لرحلتك إلى ما وراء الأزمان .. ويقف إلى ما بعد أرض عودتك إلى حيث لا مكان وكل مكان ... **بالتأكيد ستضحك ... وتضحك كثيرا** .... وربما يستغرقك الضحك إلى حيث تهبط الطائرة بارضك.

ولكن ربما ما يقطع عليك الاسترسال فى الضحك، أن تعلم أن هذا الكائن الذى لا تكاد تراه حتى بالمجهر، وهو الإنسان ، قد عقد عليه خالقه الخلافة فى الأرض ... وكرمه على الخلق .... واصطفى من بين افراده الانبياء والرسل .... ونزل عليهم كتابه ليحكم بينهم بالحق، ولتخبرهم آياته بعض اسرار هذا الملكوت الأعظم بقدر ما تحتمل عقولهم، وتسير بهم إلى حيث مستقرهم فى دار القرار، فى إطار من نهج مرسوم حدد معالم الطريق إلى هناك.

وربما ما يقطع عليك اكثر الاسترسال فى الضحك أن تعلم أن هذا الإنسان الضعيف البنيان، قد حمل الأمانة التى أبين أن يحملنها السماوات والأرض والجبال وأشفقن منها.

هذه الأمانة التى جعلته يختار ويفاضل بين البدائل والأضداد، وعلى رأسها الكفر والإيمان، اختيارا ذاتيا يعتمد على حرية الإرادة والفكر.

كل ما هناك أن عناصر الاختيار، قد تحددت بكتاب بينت آياته كل دلائل الإيمان ... من قدرة الخالق ووحدانيته وانفراده بالعزة والجبروت .... كل ذلك متجسما فى شواهد الخلق التى يتلمسها الإنسان ويحسها .... والتى عليه أكثر أن يتدبرها حتى وإن طاف بفكره أرجاء هذا الملكوت الأعظم، فى رحلة قد تمتد به إلى ما بعد رحيله إلى دار المقام الأبدى، طالما كان رائده فيها ذلك الخبر الحق، الذى ورد عنها فى بعض آيات الكتاب الذى تضمن أحكام التقنين الإلهى.

هذا يا صديقى هو قدْر الإنسان وقدَره .... يكاد لا يذكر فى عالم الوجود من حيث القدْر (الحجم)، وتنعقد عليه الخلافة فى الأرض من حيث القدَر (النصيب الذى يخصه من الخطة الإلهية)... ولك من خلال هذه المعادلة أن تدرك يقينا ما سيراه عم صالح هناك من رحلتنا .

ولكن أيا كانت حساباتك .. فإن هذه الرحلة التى قطعناها بفكرنا، يقينى منها أنها :

أولا – مطلوبة :

لتحاج بها قومك هناك من ذوى القلوب الغلف والعقول الصلدة، التى توقفت عند صك العملة وتداولها واكتنازها إرضاءا لهذا الجسد الفانى، عسى أن تخرجهم إلى رحاب أوسع من مجرد احتياجات الجسد المادية.

رحاب يلتقى فيها الإنسان – وقد تطهر من عصبية ابتدعها وأموال اكتنزها وعرقية دان لها – بملكوت أكبر من كل هذه الصغائر التى سرعان ما تذوب عند أول بادرة للرحيل والانطلاق أو ما نسميه الفراق– إلى حيث رحاب الملكوت الأعظم.

صدقني يا صديقي سيجدها وقتها وهو في أعلى عليين (كما ترى الإنسان وأنت في طائرتك فلا تكاد تبصر له أثرا على الأرض لفرط ضآلته) **صغيرة وتافهة ولا تكاد تذكر.**

ثانيا : مندوبة :

لترى بأذنك وتسمع بعينك في بوتقة البصيرة، التي يختلط فيها السمع بالبصر، تلك الأرجاء العلوية التي أخبرنا بها الخالق في محكم آياته، وترك لبصيرتك أن تقودك إليها ....

وهي جد يسيره لمن كان لبصيرته امتداد علوى ... وهي طلاسم مطموسة لمن كانت بصيرته عند حدود ذاته وإرضاء شهواته المادية.

وثالثا : مفروضة :

لتروض ذاتك على الإبحار بفكرك في ملكوت يستغرقك بكل ماضيك وحاضرك ومستقبلك، ولا مناص إلا إقحام النفس على التعرف على بعض أرجائه .... حتى إذا ما وجدت أحكام السماء قد دلتك على ملامح هذه الأرجاء زادتك إيمانا بخالقك.

وهنا تكون قد علمت بحق حدود ذاتك. وطوبى لمن عرف حدود ذاته .. إذ سيعرف قدرها في هذه المسيرة الأبدية ، وبالتالي يخطط لقدرها ومنتهاها .. وهو ما زال بعد بيده اتخاذ القرار.

والآن يا صديقي .. قد آنت ساعة الرحيل ، فإني أعلم أنها ساعات وتقلع طائرتك إلى حيث أرضك وذويك هناك ....

قاطعني محدثي : مهلا يا سيدى .. **لم يعد رحيلي – بعدما طفنا**

أرجاء الملكوت فى تلك الرحلة الفريدة - يعنى لى الطيران فوق السحاب، ولا اللقاء هناك بالأهل والأحباب، ولا البعد هنا عن الوطن والرفاق .... فما كل ذلك إلا فى دائرة الوجود الذى نعيشه والذى أطلقنا عليه محطة القيام.

وإنما أصبح رحيلى يعنى بالنسبة لى الهجرة بعيدا بعيدا إلى ما بعد أرض المهجر إلى حيث لا مكان وكل مكان .. وسريعا إلى ما وراء الأزمان وكل زمان.

وصدقنى لو قلت لك أن اندفاعى إلى السفر الآن إلى أرض المهجر - وقد انفرجت مداركى إلى حيث أرجاء أكبر - قد بات مجرد أداء لخط التزمته فى الحياة، وفرحتى بلقاء الزوج والولد هناك قد ذاب فى خضم حب علوى، استغرق كل عواطفى وجوانحى، وعجزى عن محاجاة قومى هناك بالموعظة قد حل محله يقينى بمحاجاتهم هناك بالبينة.

فقد طفت بالأرجاء العلوية، وبات يسيرا على أن أقود منهم إلى هناك من يريد أن يعمل عقله ويقدح فكره ويتأمل ذاته فيتطلع إلى غده. هناك سيرى بفكره ما رأيت . فيتضح له حقيقة دوره .. وسأتركه بارتياح ورضا أن يحدد هو عاقبة أمره.

ولكن دعنى أقول لك يا سيدى حتى لا يعز على الرحيل بالمفهوم الدنيوى .... أن تعاهدنى على الصحبة فى تلك الرحلة الأبدية التى طفناها بفكرنا، إذا ما آنت ساعة الرحيل **بالموت** إلى حيث المستقر هناك.

قلت : ليتنى أملكها فما كنت قد ترددت، ولكن " *إذا وقعت*

*الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة "*[١]، فمـا يدريـنـى أى مقـام سأكون هناك وأيا مقام ستكون .

ولكن إذا تعذر علينا العهد فلا أقل من أن نتمسك بالرجاء والدعـاء .... وهيا بنا يا صديقى بلا وداع، نقولها قولة واحدة فيهـا صـدق كـل مـا طفنا به فى رحلتنا " اللهم إجمعنا على اليقين، يوم الدين، واهـد بنـا قومـا ضالين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين ".

قال زائرى .. ليـس قبـل أن آخـذ منـك عهـدا - علـى الأقـل - بـأن تـدون رحلتنـا فـى كتـاب يجمعنـا .. وهـذه أشـرطة التسـجيل التـى سـجلت رحلتنا اتركها فقد وعيتها سمعا وفكـرا .... ويكفينـى زادا هنـاك أن آخـذ معى هذا الفنجان الذى ما زال فيه " بن " عم صالح.

قلت .. وعد على ، وانطلقنا سـويا فـى الدعـاء " **اللهـم إجمعنـا علـى اليقين .. يـوم الديـن .. واهـد بنـا قومـا ضـالين.. وسـلام علـى المرسـلين .. والحمد لله رب العالمين ".**

---

[١] سورة الواقعة : الآية ١ - ٣.

تـــذيـــل

﴿ على هامش الرحلـة ﴾

أيقظنى رنين التليفون المتصل فى ليلة كنت أتأهب فيها للسفر للسعودية لأداء العمرة فى الثامن والعشرين من شهر ديسمبر، وبصعوبة أدركت أن المتكلم هو تلميذى بالخارج - الذى كان قد مضى على رحلتنا سويا ما يزيد على عامين - **ليطلعنى أن عددا كبيراً من أهله وعشيرته هناك قد قرروا قضاء عطلة رأس السنة فى مصر** .. حيث يجمعنا لقاء ولقاء عرفانا وشكرا وطمعا فى المزيد .... وهنا اهتزت سماعة التليفون فى يدى رهبة وخوفا، وقد عاودتنى أحداث هذه الرحلة فى لحظات .. ولكنى تماسكت ..

وقلت له : أهلا ومرحبا بكم وبعشيرتكم أجمعين .. ولكن معذرة ففى غضون رأس السنة حين تحتفلون سأكون فى السعودية لقضاء العمرة.

قال : الخير فيما قلت فربما يطريهم أكثر أن يكون لقاؤنا المرتقب بعد خمسة شهور تقريبا فى السعودية .. حيث يكونوا قد انتهوا من استكمال بعض الإجراءات الشكلية المطلوبة لقضاء فريضة الحج .. **وحبذا لو شاركتنا الحج وكان معك ما دونته عن أحداث رحلتنا .**

قلت : نعم هو كما قلت لقاؤنا يوم الجمع الكبير على **"عرفات الله "** ومعى ما طلبت.

وانتهت المكالمة ولكن لتبدأ أحداث واقع جديد كنت أخشاه وهو تدوين أحداث هذه الرحلة .. فقد ترددت كثيرا فى تدوينها ذلك أنى تصورت أنها مجرد رحلة فكرية انتهت أحداثها بسفر صديقى إلى حيث أهله وعشيرته.

ثم بالإضافة أنها تتناول موضوعات دينية كان المطلوب أن نجد لها تدليلا علميا حتى تكون فى متناول فهمهم هناك .. والتدليل العلمى كما هو معلوم يقبل الخطأ والصواب .... ولسنا فى حاجة لأن يؤخذ علينا الخطأ فى الفكر ، خاصة ولو تعلق الأمر بتحليل بعض الغيبيات.

أما وقد شاء القدر أن يكون لرحلتنا صدى .... والأهم أنى تعهدت سلفا بتدوينها، فقد نهضت ليلتها حتى الصباح، استرجع ما تم من أحداث واستعين بسماع شرائط التسجيل، وقد عقدت العزم فى إصرار على أن أكتب فى سطور أحداث هذه الرحلة الفريدة - بمالها وما عليها - حتى ولو استغرقت هذه السطور صفحات كتاب .... وقد فعلت.

وهكذا وفيت بالعهد .. وطلبت الصفح .. ودعوت المغفرة، وترحمت على عبد هو أنا " عماد الشربينى " الذى عبر هذا الوجود فى رحلة الأبدية بالولادة فى الخامس من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٤ والذى فارق هذا الوجود بالوفاة فى تاريخ مازال فى علم الله، وكانت آخر تحيته ودعواه

" أن الحمد لله والسلام عليكم ورحمة الله "

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة



رقم الإيداع ٧١١٥ / ٩٦
الترقيم الدولى I. S. B. N.
977 - 19 - 0941 - X

دار (أبوالمجد) للطباعة بالهرم
ت : ٣٨٤٢٣٤٢

يتناول هذا الكتاب

القيام برحلة فكرية فريدة، أساسها المنطق العلمي المجرد، تتوقف بمراحل الملكوت، حيث نعرض:

أولاً: لمرحلة الوجود الذي نعايشه باعتباره محطة القيام

تتناول أهم القضايا التي تشغل الفكر الإنساني وأهمها: التفرقة بين المنطق العلمي والتفكير العقلاني، وكيفية خلق هذا الكون والهدف منه، وأيضاً قصة خلق الإنسان. كما نعرض لقضية الإيمان وتحرير اتجاهه على أساس علمي، وفي النهاية لأهم الغيبيات كالجن والروح والحسد.

ثانياً: لمرحلة الموت باعتباره طريق السفر

حيث نتناول حقيقة الموت وخصائصه، وطبيعة عالم البرزخ وقوانينه والآثار المترتبة عليه.. ثم نعرض لمرحلة الوجود في البرزخ.. وحقيقتها وما يجري فيها.. ثم في النهاية نتناول بالتفصيل عذاب القبر ونعيمه.

ثالثاً: لمرحلة الحياة الآخرة باعتبارها محطة الوصول

حيث نتناول البعث وكيفيته وقوانين الآخرة، والحساب وكيفيته ومستنداته والقانون المطبق يوم الحساب.. ثم نعرض للعذاب في الآخرة وصوره والفرق بينه وبين عذاب القبر.. وفي النهاية نتناول الثواب في الآخرة فنحدثك عن الجنة وطبيعة النعيم فيها وطبيعة الإنسان في الجنة.